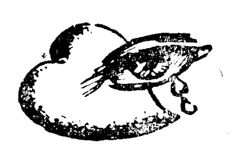
صابر يوسف

الحب والخطيئة

مجموعة قصص مصرية



الناشر
مكتبة القاهرة
لصاحبها علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية بميدان الأزهر بمصر

الطبعة الأولى
١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م
حق الطبع محفوظ للمؤلف
دار الطباعة المحمدية
بالأزهر - القاهرة

إهداء

إليها . . .

إلى الملك الجميل الطاهر الذى حلق بى فى سماء الخيال ، وقادنى إلى الجنة ، وأذاقنى السعادة والهناء ! .

إلى الشيطان الخبيث الماكر الذى هبط بى إلى الأرض ، وساقنى إلى الجحيم ، وسقانى المر والعذاب ! .

إلى النساء عامة ، وإليها هى خاصة . . فهى التى أسعدتنى وأشقتنى ، وهى التى أضحكتنى وأبكتنى ! .

إلى التى ترقد الآن فى بطن الأرض . . تنشد الراحة الأبدية ، وترجو رحمة الله ! .

إلى التى ألهمتنى كتابة هذه القصص ، أهدى هذه المجموعة ، إعترافا بفضلها ، واعتزازا بذكراها ؟ . .

صابر



ربيع وخريف

لو أن واحدا من أصدقائه ، قال له - يوما - أنه سوف يصبح بطلا من أولئك الأبطال الذين تزخر بهم قصص الحب المختلفة ، ذات العناوين المثيرة ، والأغلفة البراقة، التي كان يراها تملأ واجهات المكتبات، أو يجدها في أيدى كثير من زملائه الطلبة ، الذين كانوا يحرصون على اقتنائها ، ويواظبون على شرائها ، بقروشهم القليلة ، ثم يتبادلونها فيما بينهم ، ويقرؤونها بشغف عظيم ، في أوقات فراغهم الكثيرة ، أو في الفصول - خلسة - وهم يخفونها في ثنايا كتبهم المدرسية ، في الحصص التي لاتروق لهم مادتها ، أو لايعجبهم مدرسها ! .

ولو أن زميلا من زملائه قال له : إنه سيكون واحدا من أولئك العشاق ، الذين تمتلىء بهم دائما مخيلة الشباب ، ويرونهم في أحلامهم الوردية ، أو يشاهدونهم في روايات الغرام العجيبة ، التي تعرضها الأفلام الكثيرة ، في دور السينما العديدة ، المنتشرة في كل مكان ، والتي كان يسمع زملاءه وهم يتحدثون عنها بإفاضة ، ويروون وقائعها بإسهاب ، ويعلقون على أحداثها بصوت مرتفع ، متعمدين أن تصل إلى سمعه ، زيادة في إثارته ، وإمعانا في السخرية منه ، فهم يعرفون أنه لايميل إلى

قراءة هذا النوع من الروايات ، ولا يقبل على مشاهدة تلك الأفلام .
وهو إن قرأ فقراءته محصورة فيما يعثر عليه فى مخلفات والده من الكتب الدينية التى تغذى عقيدته . والأساطير الشعبية التى تشبع خياله !.
وإن ذهب إلى السينما — وهو قلما يذهب — فلكى يرى (فيلما) تاريخيا يحكى له أحداث التاريخ ، ومعاركه العظيمة ، أو ليشاهد قصة إنسانية ، تحث على الخير ، وتدعو إلى الفضيلة !

لو أن واحدا من هؤلاء . أومن أولئك ، أو من غيرهم ، زعم له شيئا من هذا ، أو تنبأ له بوقوعه ، لضحك من زعمه كل الضحك ، ولسخر من نبوءته أعظم السخرية ، بل ولاتهمه بالبله ، ووصفه بالجنون ! .

وهل كان يتصور أحد — مهما بلغت به القدرة على التصور — أن ذلك الفتى الصغير الذى لم يتم بعد عامه الثامن عشر . . ذلك الفتى الغر .. المنطوى على نفسه الذى لا يعرف من دنياه إلا بيته ومدرسته ، ولا يحب من الناس إلا بعض أهله ، وليس له صديق سوى كتبه ، ولا أنيس إلا الذكر والصلاة ! .

ذلك الفتى الساذج ، الذى كان يهرب من الحياة ، ويتجنب الواقع ليعيش فى الخيال ، ويهيم فى المجهول ، ويقضى عمره فى الأوهام .. بعيداً عن العالم الذى يحيط به ، والناس الذين يعيشون معه ! . يخاف من كل شىء ، ويخشى من جميع المخلوقات . . حتى من نفسه ! ويصور له الوهم أنه ليس فى الدنيا إلا الشر .. وأن الحياة مليئة بالرذيلة والفساد!

وأن الناس الذين يراهم من حوله ، ليسوا إلا مجموعة من الوحوش الضارية . . الرجال منهم ذئاب مفترسة ، والنساء كاهن حيات ناعمة ، وأفاعى سامة ، تخفى أنيابها الفتاكة تحت قناع من جلودها الجميلة ، وتنفث سمومها الناقعة فى كل مكان ، فلا يسلم من أذاها مخلوق ، ولا ينجو من شرها إنسان ! .

وهل من المعقول ـ وهذا حاله ـ أن يتصور أحد ، أن يحدث له شيء مما حدث ؟ . حتى هو . . هو نفسه . . لم يكن يتخيل ، أو يحلم ـ على كثرة أحلامه وبعد خياله ـ أن يحدث له ذلك ! . ولكنه مع ذلك قد حدث ، حدث مالم يكن يتصوره أحد ، ومالم يكن يقدره زميل أو صديق ! . بل ومالم يكن يخطر على باله فى نوم أو يقظة !

ولكن كيف حدث ذلك ؟ وكيف وقع ؟ فذلك مالا يعرفه ، وما لايستطيع أن يجد له تعليلا . . ولكن الذى كان يعرفه حقا ، هو أن ماحدث ، كان من الممكن أن يقضى على مستقبله ، وأن يقوض آماله ! . فقد أهمل بسببه دروسه وواجباته ، وترك من أجله نومه وفراشه ، وأصبح يهيم ـ كالمجنون ـ على وجهه فى الطرقات ، لايحس بنفسه ، ولا يحس بالناس من حوله . . بل لقد كان من الممكن أن يقضى على حياته ـ لو أن الله لم يلطف به ـ ورسب فى الامتحان . . امتحان الدبلوم . . الذى كان يعلق على النجاح فيه كل آماله ، ويرجو أن يبدأ به حياة جديدة ، سعيدة ، طال انتظاره لها ، وأوشك أن ينفد من أجلها صبره ! .

وهو لايزال يذكر ماحدث له ـ على الرغم من كثرة مامضى عليه من زمن ، وعلى الرغم من غرابة مامر به من أحداث ـ وكأنه وقع بالأمس القريب ! .

كان ذلك فى بداية صيف سنة ١٩٦٤ ، وكنا فى الأيام الأولى من شهر أبريل ، وكان لايزال باقيا على موعد الامتحانات أكثر من شهرين والجو معتدل، والحر لم يشتد بعد. وكان هو طالبا فى السنة النهائية بمدرسة التجارة الثانوية بالظاهر ، وكان يستعد لدخول الامتحان الأخير لتلك المرحلة من الدراسة . وهو مثل غيره من الطلبة ، يفضل استذكار دروسه فى المنزل فى تلك الفترة الحرجة، فامتنع عن الذهاب إلى المدرسة منذ بداية هذا الشهر ، لكى يتفرغ لدروسه ، ولا يشغله عنها شاغل ! . ولكنه كان يضطر فى كثير من الأيام ، إلى الذهاب إلى المدرسة ، لكى يتمرن على الآلات الكاتبة ، التى كان يجيد الكتابة عليها ، ويحرص على أن ينال فيها أعلى الدرجات ! .

وكان يتقابل فى الفصل ـ أثناء التمرين ـ مع زميله سمير ـ وهو شاب متوسط الذكاء ، وسيم المنظر ، كريم الخلق ، لازمه فى جميع سنى الدراسة ـ فيقضى معه فترات الراحة فى فناء المدرسة ، بين كل تمرين وآخر ، فى حديث معاد . لايخرج عن إطار الاستذكار وطرقه ، والامتحان ومايتوقعه كل منهما لنفسه ولزميله من الدرجات ! .

وكانا كثيرا مايشتركان فى استذكار بعض الدروس ، ويتبادلان

الشرح والمعلومات ، وكان سمير ضعيفاً فى مادة المحاسبة ، لذلك لم يكن غريباً أن يطلب منه — وهو يعرف تفوقه فى هذه المادة — أن يقرضه كراساته فيها ، وأن يعده بأن يعيدها إليه فى أقرب وقت .
ولم يبخل هو بتلك الكراسات ، وأعطاها له وهو واثق من أن زميله سمير سيبر بوعده ، ويعيدها إليه فى الوقت المناسب ، ولكن الأيام كانت تمضى ، دون أن يعيدها إليه ، فيضطر إلى طلبها منه مراراً ، ولكنه كان يعتذر له فى كل مرة بالنسيان ، ويرجوه أن يأتى معه إلى بيته — وهو قريب — ليسترد كراساته !

وتردد كثيراً قبل أن يقبل عرض سمير ، وقبل أن يوافق على فكرة الذهاب إلى بيته ، فهو كثير الخجل ، ولا يحب أن يذهب إلى منزل لم يسبق له الذهاب إليه ولكنه اضطر - إزاء حاجته الشديدة إلى الكراسات - إلى أن يوافقه على ما طلب ! .

وذهب معه .. ولم يكن منزل سمير كما كان يتصوره .. شقة فى أحد المنازل القديمة ، فى حى العباسية الشرقية ، بل وجده يسكن فى فيلا كبيرة ، من تلك الفيلات الكثيرة المنبثة فى تلك المنطقة الهادئة .. التى كان يقطنها عدد كبير من العائلات المحافظة ، التى كانت تحرص على الهدوء ، ولا تميل إلى الاختلاط الذى يستدعيه سكنى العمارات ! .

وكانت الفيلا كبيرة المساحة ، يبدو على مبانيها القدم ، وعلى حديقتها الصغيرة الإهمال ، وكأن يد البستانى لم تمسها منذ وقت طويل ! .

ودخل من بابها الحديدى الكبير ، وهو يحس بالخوف ، فهذه هى المرة الأولى التى يدخل فيها منزلا لايعرفه ! وتثاقلت خطاه قليلا ، وفكر فى الاعتذار لزميله ، والعودة من حيث أتى ! ولكن سميرا كان قد أحس بما يدور فى خلده ، ورأى خجله ، فاقترب منه ، وفوت عليه غرضه ، وأخذ بيده ودفعه إلى السلم الرخامى الناصع البياض ، وصعدا معاً حتى وصلا إلى الطابق الأول ، وتركه سمير لحظة — بعد أن استأذن منه — ثم عاد ومعه مفتاح صغير ، فتح به باب غرفة فى نهاية السلم ، متصلة من الداخل بباقى المنزل .

ودخل هذه الغرفة ، وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وأخذ يتطلع إلى مافيها من محتويات ، وكانت غرفة واسعة ، يدل أثاثها على أنها كانت لرب البيت ، فالمكتب الكبير الذى يتصدرها ، والمكتبة الأنيقة من خلفه ، والكراسى الجلدية الوثيرة ، والسجادة الفاخرة المفروشة على الأرض ، واللوحات الرائعة التى تزين الجدران ، وتشهد لأصحابها بحب الفنون ، وحسن الاختيار ، والثريا الضخمة ، ذات المصابيح الكثيرة ، التى تتدلى من السقف ، توحى بثراء أهل هذه الفيلا ، وتدل على ذوقهم الرفيع !

ورحب به زميله وهو يشير إلى أحد الكراسى ، ويطلب منه الجلوس ، ثم يستأذن منه — مرة أخرى — ليحضر له الكراسات . وجلس والرهبة لا تزال مستولية عليه ! وكان خروج سمير فرصة شجعته على أن يجول بعينيه فيما يراه فى هذه الغرفة من مظاهر البذخ ،

ودلائل العز القديم ! فوقف،وأخذ يتأمل فيما حوله ،وسبح فى الخيال، وهو يقارن — فى نفسه — بين ما يراه فيها من الأثاث الثمين الفاخر ، وما يتخيله من محتويات باقى الغرف ، وبين مايراه فى مسكنه هو . . حيث يعيش مع أخيه الكبير ، وأسرته الكثيرة العدد ، فى تلك الشقة الصغيرة ، ذات الغرف الثلاث ، التى تضيق بما فيها من أثاث قليل ، وفراش بسيط ، وعدد من السكان كثير ، ويعجب لهذا الفارق الكبير بين المسكنين . .

وظل سابحا فى هذا الخيال لحظات ، لم يدر مقدارها ، ولم يعد إلى الواقع إلا على صوت زميله سمير ، وهو ينادى عليه ، وإلا على يد رقيقة تربت على كتفه ، وتهزه بلطف ! . وعندما التفت ليرد على زميله ، ويرى صاحب تلك اليد ،وجد مفاجأة كبيرة لم يكن يحسب لها حسابا ! رأى بجواره سيدة أدرك من النظرة الأولى إليها أنها تركية الأصل،فقد كانت ناصعة البياض،رائعة الجمال،وكانت تلبس ثوباً أنيقاً،أسود اللون، ولا يزيد سنها على الخامسة والثلاثين ، وكان أكثر ما لفت إليها نظره ، وأثار انتباهه ، نضارة وجهها ، ورشاقة قدها ، وحلاوة ابتسامتها ، وكان شعرها الأسود الناعم ، المسترسل على كتفيها ، أشبه بتاج من الأبنوس الأسود الثمين ، على جبين ملكة عظيمة ! .

وعلى الرغم من أن نظرته إليها لم تطل ، وأنها كانت سريعة خاطفة ، فقد شعر — للوهلة الأولى — بأنه أمام امرأة عظيمة الشخصية ، كاملة الأنوثة . وأن تلك المسحة الخفيفة من الحزن التى كانت

تغطى وجهها ، وتحد من ابتساماتها . كانت تضفى عليها ظلالا رقيقة من المهابة والوقار ، وأن ذلك الثوب الأسود الأنيق الذى كان يكسو جسمها البض المتناسق ، ويحدد معالمه الدقيقة ، كان يزيدها حسناً وجلالا . .

وبهت لهذه المفاجأة العجيبة ، واحمر وجهه من شدة الخجل ، وأطرق برأسه إلى أرض الغرفة ، وقد بدا عليه الارتباك ، ولم يعد يدرى ماذا يفعل ؟ ولا يعرف كيف يجيب ؟ .

ورأت هى مااعتراه من خجل ، ولاحظت ماأصابه من ارتباك ، فرثت له ، وأشفقت عليه ، وحاولت أن تسرى عنه ، فتبسمت فى وجهه مشجعة ، ورفعت رأسه المنكسة برفق ، وربتت على كتفه بحنان ، ثم أمسكت بيده ، وقادته إلى أحد المقاعد القريبة منه وهى تقول :

ـــ اقعد .. اقعد ياصبرى .. اقعد ياابنى .. إنت مكسوف من إيه ؟ ده مفيش حد غريب هنا .. وانت هنا فى بيتك ، وأنا زى أمك ، وسمير زى أخوك . ولا تفتكرش إنى مااعرفكش .. أنا أعرفك من زمان .. سمير كلمنى عنك كتير .. وعرفت منه إنك ولد طيب ومستقيم .. وإنك مجتهد ومواظب على دروسك ، مش زى الشبان اللى بيضيعوا وقتهم فى اللعب ! وعلشان كده حبيتك وطلبت من سمير إنه يجيبك هنا معاه علشان تذاكروا مع بعض !

وكان لهذا الكلام الرقيق أثره فى نفسه ، فقد شعر بشىء من

الأنس ، وبقليل من الطمأنينة يعودان إليه ، وزال عنه ما كان يعتريه من ارتباك ، وأحس بأن الخجل الشديد الذى كان مستوليا عليه ، وكان يمنعه من الكلام ، قد بدأ يتبدد ، ليحل محله قدر كبير من الثقة والارتياح ! .

وجلس على المقعد الكبير القريب منه ، ولكنه ظل مع ذلك ساكتا ، مطاطىء الرأس ، لا يتكلم ، ولا ينطق ببنت شفة ، وكأنه طفل كبير ! .

واقترب منه سمير ، وهزه بعنف ، وهو يقول :

— جرى إيه ياأخى ماتنطق والا تتكلم ؟ هوأنت ربطت لسانك بحبل والا قفلت شفايفك بقفل ؟ .

فرفع رأسه ببطء شديد ، وشبه ابتسامة خفيفة حاول أن يرسمها على وجهه المقطب ، ونظر إلى سمير نظرة تساؤل ، وهو يقول :

— حاتكلم أقول إيه ؟

وعاد سمير إلى الكلام ، وهو يحدق فيه ، بعينين ملؤهماالسخرية ، وقال :

— قل أى حاجة ياأخى المهم إنك تتكلم وماتقعدش ساكت كده !.

ولكنه مع ذلك لم يتكلم ، بل لم يجد فى نفسه القدرة على النطق .. على الرغم من أنه حاول ـ فعلا ـ أن ينطق ، وأن يقول شيئا ! ! .

ولم ير سامية وهى تدخل إلى الغرفة فى هذه اللحظة .. سامية أخت

سمير الوحيدة التى طالما كلمه عنها ، وهو يتحدث عن أسرته ! لم يرها وهى تدخل .. ولكنه أحس بوقع خطواتها الخفيفة على أديم السجادة وهى تقترب منه ، وشعر بأنفاسها الحارة تهب على وجهه وهى تنحنى بخفة ، لتضع أمامه ، وعلى المنضدة الصغيرة القريبة منه ، صينية فضية عليها فنجانان من الشاى . ونظر إليها بطرف عينيه وهى تتناول أحد الفنجانين ، لتقدمه له ، وسمع صوتها ، وهى تقول :

— اتفضل . . اتفضل الشاى

ورفع إليها عندئذ رأسه ، ورآها .. رآها لأول مرة ، وحدق فيها بصره . . فتاه بصره ! وكانت أصغر من سمير سنا ـ كانت فى السابعة عشر تقريبا ـ وأقرب إلى أمها شبها ، ولكنها كانت أبهى منها وجها ، وأنضر شبابا ، وأرشق عودا ! كانت جميلة . . جميلة جدا ! جميلة كالوردة ، متفتحة كالزهرة ، رقيقة كعود الياسمين ، وكان وجهها الصغير أشبه بلوحة فنية رائعة ، رسمتها ريشة رسام من الخالدين . وكان أجمل مافى هذا الوجه .. عيناها ، العينان الساحرتان ، اللتان كان يطل منهما البراءة والطهر ، وينام فى أعماقهما الفتنة والسحر ! .

وكانت تنظر إليه ، وهو يمد يده المرتعشة .. ليمسك بفنجان الشاى ، وقد علت فمها القرمزى الدقيق ، ابتسامة مشرقة أضاء لها وجهها الملائكى وتلاقت أنظارهما ، وتعلقت عيناه بعينيها ، ولم يحاول ـ فى هذه المرة ـ أن يغض بصره ، أو أن يخفض رأسه ـ كما كان يفعل من قبل — بل أخذ يحدق فيهما كالمبهور ، وود أن يظل هكذا . . يحدق فيهما إلى الأبد ! ،

بل لقد تمنى لو أن الزمن وقف عند هذه اللحظة السعيدة فلم يتقدم !!

وكان يشعر فى هذه اللحظة بشعور جديد عجيب ، شعور لم يسبق له أن شعر بمثله ، ولا يعرف ماذا يسميه ، أو كيف يصفه ؟ شعر كأن نصلا حادا ، أو سهما مراشا ، قد اخترق صدره ، ونفذ إلى قلبه ، واستقر فيه ، وأدماه ! أو كأن تيارا كهربيا ، عالى الدرجة ، شديد السرعة ، سرى فى جسمه ، فصعقه . وسلبه الحياة ! . وهم بأن يرفع يده ليتحسس قلبه ، وليمنع الدم الذى خيل إليه أنه ينزف منه ، من أثر الطعنة النجلاء ! وأوشك أن يفرك جسده المتجمد بيديه ، ليعيد إليه الحركة التى توقفت ، ويرد إليه الحياة التى فارقته ! .

ولم تتحقق أمنيته فى أن يظل الزمن ساكنا ، وانتبه من حلم يقظته الغريب على صوت سامية الهادىء الرقيق ، وهو ينساب فى أذنيه كخرير الماء وهى تقول :

— اتفضل الشاى . . اتفضل . . إنت سرحت فى إيه !

واعتراه الخجل مرة أخرى ، وعاد إليه الارتباك من جديد ؟ ونظر حوله ، فإذا به يرى سميرا وأمه ينظران إليه ، وعلى شفاههما ابتسامة غامضة ، لم يعرف هل هى ابتسامة سخرية واستهزاء ؟ أم هى ابتسامة إشفاق ورثاء ! ؟

واستجمع شجاعته ، وحاول أن يستعيد هدوءه ، وأن يبدو متماسكا ومد يده إلى حيث توجد الصينية ، وأخذ فنجان الشاى ، وبذل مجهودا كبيرا ليقول لها :

— متشكر . . متشكر جدا .

وعاد إلى السكوت ثانية ، وكأن هذه الكلمة هى كل ما فى جعبته من كلام ! وأخذ يرشف الشاى رشفة فى إثر أخرى بحركة عصبية ظاهرة ، وقد أحس بحرج موقفه ، وبثقل الوجوم الذى كان يخيم على من فى الغرفة ، فلم يجد خيرا من أن يجرع الشاى دفعة واحدة ، ومن أن يقوم ، لكى يستأذن فى الخروج !.

وحاول الثلاثة أن يثنوه عن عزمه ، وأن يغروه بالبقاء مدة أطول ، ولكنه رفض ! وألح سمير ، وألحت أمه ، ولكنه كان قد صمم على أن يخرج ، لأنه وجد فيه المخرج الوحيد من هذا الموقف العصيب .

وخرج وهو يحس ـ لأول مرة ـ بأن له قلب ، وأن هذا القلب لم يعد فى مكانه المعروف من صدره ، فقد تركه ـ على الرغم منه ـ هناك . . حيث تعيش سامية !!.

وفى الطريق تذكر ـ بعد أن استرد وعيه ، وأعاد إليه الهواء المنعش ماضاع من رشده ـ أنه نسى أن يأخذ كراسات المحاسبة ، التى جاء من أجلها ، وقهقه ضاحكا من نفسه ، ومضى فى طريقه !.

وعندما عاد إلى بيته ، وأوى إلى فراشه ، فى تلك الليلة ، كان لايزال يفكر فيما حدث ، وكان طيف سامية لايزال فى خياله ، وصورتها لاتفارق عينيه ! وعندما حاول النوم ، وأغمض عينيه ، لم يستطع ، وأخذ يستعرض فى ذهنه صورة ذلك اللقاء العجيب ، ويستعيد فى فكره ذكرى تلك اللحظات السعيدة ! . حتى إذا تعب ذهنه ، وكل فكره ، استسلم للنعاس ، ليعيش فيه لحظات أخرى لذيذة ، فى عالم الرؤى والأحلام !

وفى الصباح ـ عندما استيقظ من نومه ـ كان يحس بالفرحة ، ويشعر بالبهجة ، وعلى الرغم من أن هذا اليوم لم يكن من الأيام المخصصة للذهاب إلى المدرسة ، فقد رأى نفسه يستعد للذهاب إليها ، ويتهيأ للخروج لها ، وكأن يدا خفية تدفعه إلى ذلك .

وعندما وصل إلى المدرسة ، كان أول شىء يحث عنه هو زميله سمير ، ولم تكد تقع عليه عيناه ، حتى هرول إليه مصافحا !. واستقبله سمير بضحكة عالية ، وصاح فى وجهه وهو يقوده إلى داخل الفصل قائلا :

— إيه ده ياراجل ده . . هو ده كلام ! . ده أنت امبارح كنت حاجة غريبة خالص ، وكان شكلك يضحك اللى مايضحك ! هو انت عمرك مادخلت بيت حد . . ولا قعدت مع ناس أبدا ؟ . طب ده احنا قعدنا نضحك عليك ضحك ،خصوصا بعد مالقيناك نسيت الكراسات اللى انت جيت علشانها ! . ولا كانش لماما وأختى سيرة غيرك . . وغير اللخمة اللى انت كنت فيها ! والنهارده الصبح ماـضيوش يدونى الكراسات،وقالوا لى لازم تجيبه معاك بعد التمرين .. فايه رأيك بقى ؟.

وأنقذه من الإجابة على هذا السؤال دخولهما إلى الفصل ، وصياح زملائهما وهم ينادون عليهما ، ووجد سمير آلة قريبة منه فأسرع إليها ، ورأى هو آلة أخرى فى الصف الخلفى ، فذهب إليها ، ليكتب تمرينه عليها . ولكنه لم يستطع الكتابة ، ولم يحس برغبة فيها ، ووجد نفسه ينساق مع خياله ، وينقاد لذاكرته ، وهى تعود به إلى الأمس ، يستعرض حوادثه ، ويعيش فيه ! .

ولم يرجع من رحلة خياله هذه إلا على يد سمير وهى تجذبه ، وصوته وهو يقول له :

— كفايه كده النهارده ، أنا خلصت خلاص ، يللا قوم بقى نروح البيت دلوقت .. علشان تأخذ كراسات الحاسبة .. ونذاكر شوية فى حاجة تانية ! .

ولم يبد اعتراضا .. بل أسرع بإخفاء أوراقه التى كانت لاتزال بيضاء — خوفا من أن يراها سمير ، ويعرف أنه لم يكن يكتب شيئا ، ويحرجه بأسئلته الساخرة — ووجد نفسه يقوم ليمشى بجانب زميله ، ويخرجان معا ، لكى يذهبا إلى البيت .. بيت سامية ! .

وحدثته نفسه - فى الطريق - أن يعود ، وأن لا يذهب ، ولكنه - على الرغم منه - لم يفعل ! ورأى نفسه سائرا بلا إرادة ، فى طريق البيت المرموق ! .

وصعد سلم الفيلا ببطء شديد ، ودخل إلى غرفة المكتب وقدماه تتعثران ، وجلس على الكرسى الكبير ، وهو يسمع نبضات قلبه القوية السريعة ، ولم يمض على دخوله لحظة ، حتى سمع وقع أقدام أم سمير وهى تقترب من الغرفة ، وسمع صوتها وهى تحدث سميرا ضاحكة ، فتلاحقت أنفاسه ، وزاد اضطرابه ، وكاد أن يقوم ليفر هاربا ! .

واستقبلته أم زميله هاشة باشة ، ولم تضحك منه فى هذه المرة

أو تسخر ، وإنما أخذت تداعبه ، وتمزح معه ، وتحدثه حديثا لطيفا ، محاولة أن تفك عقدة لسانه ، وأن تشجعه على الحديث . ونجحت فيما أرادت ، فقد بدأ - بعد أن اطمأن لحديثها ، وشعر بعطفها عليه - يتكلم شيئا فشيئا ، ولم يتعد حديثهما السؤال عن أحواله ، وعن طريقة معيشته ، وعن أسرته ، وعدد أفرادها ، وعن نوع التعليم الذي يتعلمونه . حتى دخلت سامية ، وهى تحمل بيديها الصينية الفضية ، وعليها فناجين الشاى ، ولم يكد يحس بدخولها ، ويراها واقفة أمامه ، وعلى شفتيها نفس الابتسامة الحلوة ، المضيئة ، التى تزيد وجهها حلاوة وفتنة ، حتى زاغ بصره ، وتلعثم لسانه ، وخفت صوته ! .

وعندما تلاقت عيونهما - للمرة الثانية - وهو يرفع إليها رأسه ، ليرد تحيتها الرقيقة ، أحس كأن شعاعا لطيفا هادئا ، ينساب من عينيها ، ويتسرب إلى نفسه ، ويغمرها بالسعادة والهناء ! .

ولم تستطع سامية أن تحتمل وقع نظراته ، فاحمر وجهها خجلا ، وأحنت رأسها ، وجعلت تنظر إلى الأرض ، وهى تضع الصينية على المنضدة الصغيرة ، ثم تذهب إلى أقرب كرسى لتجلس عليه ، دون أن تنبس بكلمة ! .

وأدركت أم سامية .. بذكاء الأم ، وغريزة الأنثى ، مااعتراهما ، فلم تعجب ، ولم تغضب ! وضحكت ضحكة رقيقة ، قطعت بها حبل السكون الذى أوشك أن يطول ، وقالت وهى توجه الحديث إليه :

— تعرف إنك عملت طيب لما جيت النهارده مع سمير ، أنا كنت خايفة لاماتجيش! وعلشان كده أكدت عليه إنه يجيبك معاه، مش علشان تاخذ الكراسات اللى نسيتها، لأ.. لكن علشان تذاكروا هنا مع بعض. أنا ناوية أديكم الأودة دى تذاكروا فيها ، وهى بعيده عن الشقه ، لا حد يضايقكم، ولا حاجة تزعجكم ! وإنت هنا زى ماقلت لك ماانتش غريب وما فيش حد فى الشقة غيرى أنا وسامية. وحتى سامية بتذاكر، وحتكون بعيدة عنكم ، وإن احتجتم لأى حاجة .. شاى ، قهوة ، مية ، أى حاجة ، إحنا تحت أمركم فإيه رأيك بقى ؟ أنا بقول إنه مادام ماانتش مرتبط بحد يبقى لازم توافق ، ولازم تيجى ، قلت إيه ؟ موافق ؟ ياابنى قل موافق ياتانت .. ماتبقاش دماغك ناشفة .

وهم بأن يرفض ، وأن يقول لا ، ولكن الكلام لم يخرج من فمه، ولم يجد فى نفسه القدرة على الرفض ، فسكت ! واعتبرت (تانت) شهيرة سكوته هذا رضا ، فربتت على كتفه ، ونظرت إليه بحنان ، وقامت لتخرج ، وهى تقول :

— أيوه كده.. أهو أنت دلوقت عجبتنى، وربنا يهديك ياابنى! ودلوقت يللا بينا ياسامية نخرج ونسيبهم علشان يبدأوا فى المذاكرة ، وانت ياسمير أى حاجة تعوزوها إنده علينا نجيبها لكم حالا ، ولحد عندكم .

وخرجت تانت شهيرة ، وخرجت معها سامية ، وهو يشيعها بأنظاره ، حتى اختفت عن عينيه ، وقد أحس بروحه وقد كادت تخرج لخروجها !.

ومكث مع سمير في ذلك اليوم حتى الغروب ، وعندما خرج ليعود إلى منزله ، كان لايدرى إن كان قد أخطأ بقبوله البقاء ، أم أصاب ؟ ولا يعرف إن كان سيستفيد من الاستذكار معه أم لا ! وإن كان يحس بأنه لم يخرج من وجوده معه فى هذا اليوم بشيء ، فقد كانت صورة سامية ، وعيناها الجميلتان ، تشغلانه عن التفكير ، وتمنعانه من التركيز ، وتظهران له فى كل صفحة من صفحات الكتاب ، وتغريانه بين لحظة وأخرى ، بالتحليق فى سماء الخيال ! .

ولكنه فى صباح اليوم التالى نهض مبكرا ـ على غير عادته ـ وأسرع بالخروج من منزله ، ليقابل سميرا فى فناء المدرسة ، ومايكاد يراه حتى يهرع إليه ، وحتى يصحبه إلى غرفة الآلات الكاتبة ، ومايكاد ينتهى هو من تمرينه القصير ، حتى يسرع إلى زميله الذى لم يكن قد انتهى منه بعد ، ويغريه بالاكتفاء بما كتب ، ويخرج معه ليذهبا إلى الفيلا ، وقد تأبط ذراعه ، كأنما كان يخشى أن يهرب منه ! ثم يحثه على الإسراع فى مشيته ، وسمير يعجب لهذا التغير الجديد الذى طرأ عليه ، وجعله يدفعه دفعا إلى طريق البيت ، ويكاد أن يسبقه إليه !.

واستقبلتهما تانت شهيرة ـ كعادتها ـ بابتسامتها الجميلة ، وأخذت ترحب به بعبارات رقيقة ، وتشكره على استجابته لطلبها ووفائه بوعده ، ولكنه كان يستمع إلى كلامها ، وهو لايفقه له معنى ! فقد كان فى شغل عن فهم معناه ، بما كان يبحث عنه . كان يبحث عن سامية ، وكان القلق باديا عليه ، وهو ينظر فى أنحاء الغرفة الكبيرة ، ثم يتجه بنظره إلى الباب الداخلى ، وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه ! .

ولم يهدأ أو يستقر ، حتى سمع صوتها من داخل الشقة ، يرن فى أذنيه ، كنغم موسيقى ، وهى تسأل أمها عمن جاء ؟ ولم تكد تسمع جواب أمها بأنه سمير وزميله صبرى ، حتى دخلت إلى الغرفة مسرعة، وأخذت ترحب به ، وتقول له بصوت ينم عن دهشتها :

— الله . . إنتم جيتم ؟ جيتم بدرى النهارده يعنى . هو ما كانش عندكم تمرين والا إيه ؟

وأجابها سمير ورنة السخرية تظهر واضحة فى صوته !

— أيوه ياستى جينا.. لكن الحق مش على.الحق على الجدع المجنون ده اللى استعجل وجابنا جرى،زى مايكون حيفوتنا القطر ! أناوالله باستغرب على الجدع العجيب ده،إمبارح كان عامل زى البنت المستحية ومش قادر يتكلم ، ومش عاوز ييجى ، والنهارده يخلص تمرين بسرعة البرق . ويجرنى جر على هنا ! .

وضحكت سامية وأمها من قول سمير ، ومن سخريته اللاذعة ، وكان هو ينظر إلى سامية من طرف عينه ، وكأنه يقول لها أنت السبب ، دون أن يأبه لما يقال ، أو يحس بما يفعل ! .

ودعته تانت شهيرة إلى الجلوس،وهى تحاول أن تخفف من مهاجمة سمير له ، ومن سخريته منه قائلة :

— بس بقى ياسمير . . هو يعنى صبرى غلط لما جابك ؟ طب ده أنامبسوطة منه النهارده خالص ، ومش تحمدربنا اللى جه منغير ما نلح

عليه ؟ يللا . . يللا اقعد انت وهو وشوفوا شغلكم ، وأنت ياسامية خشى أودتك ، وأنا رايحه أعمل لهم الشاى .

وخرجت تانت شهيرة وفى إثرها سامية ، وهما لاتزالان تعجبان مما حدث ، وتضحكان من مداعبات سمير ، ومن تهكمه .

وتوالت الأيام بعد ذلك ، وهو يذهب فى كل صباح إلى المدرسة ويجتمع بسمير فى حجرة الآلات الكاتبة ، ثم يذهبان معاً ـ بعد أن ينتهيا من تمرينهما ـ إلى منزل سمير ، فيقضيان هناك بقية اليوم فى الاستذكار. وطاب له المقام هناك ، ولم يعد يجد فى ذلك البيت مايضايقه ، بل كان على العكس ، يجد فيه كل مايسعده ، ويجعله يحس بكثير من الراحة والأنس ، بل لقد أصبح ـ بفضل ما كانت تسبغه عليه تانت شهيرة من عطف ـ يشعر وكأنه أصبح واحداً من أفراد هذه العائلة الصغيرة السعيدة ! . ولم يقتصر اهتمام تانت شهيرة على ما كانت تظهره له من عطف وحب ، بل بذلت جهدها فى تذليل كل ما كانت تراه من عقبات . فقد كان يصر فى أول الأمر على أن يخرج إذا حان موعد الغداء ، ليتناول طعامه البسيط ، فى أحد المطاعم الرخيصة القريبة . ثم يعود ليواصل عمله ! . فلم تزل به ـ وقد أدركت مبلغ حيائه ـ حتى أقنعته بأنه ليس من اللائق أن يخرج فى ذلك الوقت ، وأنه لن يضايقهم ـ كما كان يتصور ـ أن يجلس معهم على مائدة واحدة ، أو أن يحضر طعامه معه ـ إن كان ذلك ضروريا ـ وأن يشاركهم ويشاركوه فى الأكل ! . كما إنها لم تكتف بذلك ، بل أعدت لهما حجرة خاصة ، زودتها بكل

ما يلزمهما من ملابس ، لكى يناما فيها – وقت الظهيرة – بعد أن لاحظت مايعتريهما – عقب الأكل ، أو بسبب ارتفاع درجة الحرارة – من كسل وخمول ! . حتى مشكلة الحر – الحر الذى كان يشتد يوما بعد يوم ، كلما اقترب الصيف – وكان وجودهما فى غرفة المكتب الكثيرة الأثاث ، القليلة النوافذ ، المعرضة بحكم موقعها لأشعة الشمس ، يجعلهما يحسان بوطأة الحر ، وثقله ، ويدفعهما إلى الضيق ، ويغريهما بالاسترخاء ! . حتى هذه المشكلة وجدت لها حلا ، فقد اقترحت عليهما أن يصعدا إلى سطح الفيلا ، حيث توجد حديقة صغيرة (روف جاردن) ، تعلوها ظلة خشبية ، تغطيها أوراق بعض النباتات المتسلقة المعطرة – وهناك فى هذا المكان الجميل ، والجو الطليق – وجدا ما كانا ينشدانه من راحة ، وما كانا يحتاجان إليه من نشاط – يساعدهما على متابعة العمل ، دون ضيق أو ملل .

وكان هو يظن أنهما سيكونان وحدهما فى هذا السطح الجميل ، وأنه لن يشاركهما فى هذه الخلوة شريك ، ولكنه دهش حين رأى – فجأة – سيدة صغيرة السن ، جميلة الشكل ، تخرج عليهما من إحدى غرفتين كانتا بالقرب من مكانهما ، وتحييهما ، ثم تجلس على كرسى صغير ، كان موجودا بجوار الغرفة ، وتخرج بعض الخيوط الصوفية ، من كيس صغير من الورق كانت تحمله ، ثم تنهمك فى شغلها دون أن تلتفت إليهما .

ولاحظ سمير ما اعتراه من دهشة ، وأراد أن يوفر عليه عبء السؤال ، فأخبره بأن هذه السيدة هى سعاد .. وأنها عروس فى شهورها

الأولى ، وأنها متزوجة من مدرس شاب يعمل فى الريف ، ولا يحضر إلى القاهرة إلا فى يوم الخميس من كل أسبوع ، وأن والدته لم توافق على سكناهما معهم إلا بعد إلحاح شديد منهما ، وبعد أن ساقا إليها إحدى قريباتها ، وأن هذه القريبة قد استطاعت إقناع والدته بالموافقة على سكناهما ، بحجة أن الزوج غيور ، وأنه قد وجد فى هذا البيت الذى ليس فيه إلا أفراد عائلتنا المحدودة ، ولا يدخله غريب ، ما يطمئنه على زوجه الشابة أثناء غيابه فى عمله ! .

واعتاد بعد ذلك على أن يرى تلك السيدة فى كل يوم ، وأن يرد تحيتها كلما رأتهما ، أو جلست بالقرب منهما ، بل إنهما لم يكونا يجدا بأسا من محادثتها كلما أحسا بالتعب ، أو شعرا بالسأم من كثرة الاستذكار ، وكانت هى ـ على الرغم من جمالها وأناقتها ـ سيدة طيبة ، ينم أسلوبها فى الحديث على بساطتها ، وتدل سماحتها على أنها من أصل كريم ، وساعدهما ذلك على إزالة ما كانا يشعران به نحوها من كلفة ، وعلى أن يطلبا منها ما كانا يحتاجان إليه من ماء ، كانا يضطران إلى طلبه ـ كلما نفد ـ من سامية ، أو من أمها . بل لقد كانت تنفحهما من وقت إلى آخر ببعض العطر ، كلما رأت منهما فتورا ، أو كلالا ، ليجدد نشاطهما ، ويهدىء أعصابهما التى أرهقتها كثرة الاستذكار ! .

فإذا ماحان وقت الأصيل ، وأوشكت الشمس على الرحيل ، جمعا كتبهما ، وأوراقهما ، وودعا العروس الصغيرة ، ثم نزلا إلى الشقة ، ليستأذن هو من تانت شهيرة فى الرواح ، وليتزود لليلته هذه بنظرة

خاطفة من عينى سامية ، أو ليحظى منها بابتسامة عذبة ، تكون له زادا فى طريقه ، وأنيسا فى وحدته ، وسميرا يناجيه فى أحلامه حتى الصباح ! .

وكان من أسعد اللحظات فى أيامه هذه ، تلك اللحظات القليلة التى كانت تصعد فيها سامية - خلسة - إلى السطح ، لتملأ صدرها بهوائه المنعش العليل، ولتروح عن نفسها قليلا بالحديث معهما فى شتى الموضوعات، ولم تكن هذه اللحظات - على قلتها - تدوم أكثر من دقائق معدودة ، تسرع بعدها إلى مفارقتهما ، حين تسمع صوت أمها الغاضب ، وهى تناديها ، وتحثها على النزول ، لكيلا تضيع وقتها ووقتهما ، - كما تزعم - فيما لا يفيد ! .

وذات يوم - وكان يوم الخميس - وبينما هو يتأهب للرواح، أحس وإن لم ير - بحركة غير عادية بين أفراد أسرته الجديدة ، واستأذن منه سمير ليغيب لحظة ثم يعود ، وبينما هو فى انتظاره ، رأى العروس الصغيرة تخرج عليه وهى فى أبهى زينة - وعلى الرغم من أنه كان يراها دائما متزينة ، بحكم أنها عروس جديدة - إلا أنها فى هذا اليوم كانت تبدو أكثر زينة ، وأشد عناية بملابسها عن كل يوم . ولاحظت هى مابدا على وجهه من علامات الدهشة ، والاستفهام ، فضحكت ضحكة قصيرة واقتربت منه وهى تقول :

— إنت لسه قاعد هنا !؟ هو انت مش ناوى تروح معانا الحفلة والا إيه ؟

وعجب هو لقولها هذا ، فلم يكن يعلم أن هناك حفلا سيقام ، ولم يكن يعرف أين سيكون هذا الحفل ، ولا من سيذهب إليه ؟ وهم بأن يجيبها على تساؤلها ، ولكنه لم يكد يفتح فمه ، حتى رأى سميرا وسامية وأمهما يقبلون عليه ضاحكين ، وقد لبس كل واحد منهم أجمل ثيابه ، وظهر فى أحسن أشكاله ، وكأنهم فى يوم العيد ! وزادت دهشته،وأراد أن يسأل ، ولكنهم لم يتركوا له فرصة للسؤال ، بل هجموا عليه جميعا وهم يصيحون فى وقت واحد ، والفرحة تغمرهم :

— يللا . . يللا ياصبرى ! قم علشان تيجى معانا ، سهام صاحبة سامية عيد ميلادها النهارده وعازمانا كلنا ، ودول ناس جيرانا وحبايبنا من زمان ، وانت إذا جيت معانا حتنبسط وتهيص وتغير جو ! .

وهم بأن يرفض ، وأن يعتذر ، فلم يكن يعرف من هى سهام ، ولم يكن له عهد بمثل تلك الحفلات ، ولم يكن يحب - إذا دعى إليها - أن يذهب ، حتى ولو كانت عند أحد أقاربه ! ولكن نظرة سامية المستعطفة إليه - كأنما أحست بعزمه على الرفض - ورنة صوتها المغرية ، وهى تقول له ، وقد مدت يدها لتمسك بيده :

— قم ياصبرى .. قم عشان خاطرى .

لم تترك له فرصة للتردد أو الاعتذار ! .

وقام معها ، قام وهو مسلوب الإرادة ، مغلوب على أمره - وذهب معهم - ولأول مرة - إلى ذلك الحفل ، وقضى هناك وقتا طيبا ، عاش فيه لحظات جميلة ، بين مجموعة من الشباب الضاحك،ورآهم وهم يمرحون

ويرقصون رقصات مختلفة ، وسمعهم يغنون ، ويضحكون ضحكات عالية صادرة من قلوبهم الشابة الخالية ! .

ورأى سامية وهى ترقص ، فرقص معها فؤاده ، بل وندم ساعتئذ على أنه لم يتعلم الرقص ، ليشاركها فيه ! وكانت عيناه لا تفارقانها ، ولا تفوتهما حركة من حركاتها ، وكأنما شدتا إليها بخيوط من نور ! .

ومر الوقت ، ولم يحس بمروره ، ولم يفكر فى أنه تأخر كثيرا عن موعد عودته إلى بيته ، بل ولم يفكر فى أخيه الكبير الذى ينتظره فيه ، وقد يكون واقفا الآن بجوار الباب ، متجهم الوجه ، ليستقبله شر استقبال ، ويسمعه من كلمات اللوم والتأنيب مالا يحب أن يسمعها منه أبدا ! .

لم يحس بشىء من ذلك ، أو يشعر به ، إلا عندما توقفت الموسيقى عن العزف ، وكف الراقصون عن الرقص ؟ وسمع أحدهم وهو يهمس فى أذن صاحبه قائلا :

— ياه . . تصور إن الساعة بقت تسعة قوام ! .

وكأنما لدغته عقرب ، أو أحرقته جمرة ، عندما سمع هذه الجملة ، فقام من فوره ، وأسرع بالخروج ، دون أن يحس به أحد . وهرع إلى البيت وهو يحسب للقاء أخيه ولومه ألف حساب ! فلم يكن من عادته أن يتأخر ، ولم يكن من عادته أن يسهر إلى مثل هذا الوقت ، دون إذن منه ! .

ولكن يظهر أن الحظ كان يحالفه فى تلك الليلة ، ولم يرد أن يتخل عنه ، أو يترك لأحد فرصة ، ينغص عليه فيها هناءه حتى النهاية ! . فقد تأخر أخوه أيضا فى هذه الليلة ! . وتنفس الصعداء وهو يدخل ، وحمد الله ، ثم اعتذر لزوجة أخيه من تأخره ، وأسرع إلى غرفته ، وألقى بنفسه على فراشه لينام ، وليحلم فى نومه ، بما رآه فى يومه ، من حقائق تشبه الأوهام ! .

وفى صباح الغد ، بكر وخرج كالمعتاد ، وذهب إلى حيث لقى زميله الأثير فى المدرسة . ومن هناك صحبه إلى الفيلا ، ليواجه فيها عاصفة ضاحكة من العتاب ، على هروبه من الحفل ، وخروجه منه قبل أن ينتهى ، دون أن يخبرهم ، أو يحس به واحد منهم ! فاعتذر لهم بتقدم الوقت ، وبعدم تعوده على التأخر إلى مثل هذه الساعة دون علم أخيه ، وبخوفه من انشغاله عليه ! .

وضحكت سامية ، وضحكت أمها من قوله ، وعجبا ـ فى نفسيهما ـ من سذاجته ، ولكنهما لم يبديا له شيئا مما جال فى خاطرهما ، بل أظهرا له اقتناعهما بما قال ، ورضاهما عما فعل . ثم تركاه وسميرا ، ليصعدا إلى حديقتهما الصغيرة ، ليواصلا فيها عملهما المعتاد ! .

وفى اليوم التالى حدثت مفاجأة لم يكن يفكر فيها ، أو يتوقع حدوثها ، وكان ذلك عندما وصل إلى الفيلا مع سمير كالمعتاد ، بعد أن أديا تمرينهما فى المدرسة ، وهناك قابلهما تانت شهيرة ، وانتظر أن تخف سامية ـ كعادتها ـ لتحييه ، وتسلم عليه ، ولتزوده من ابتسامتها

جزاده اليومى ، ولكن انتظاره طال ، ولم تظهر سامية ، ولم يسمع لها صوتا ، فعجب لذلك ، وحاول أن يطيل أمد الحديث مع تانت شهيرة لعلها تظهر ، ولكن الله لم يفتح عليه بشىء يقوله ، ولم تسعفه بديهته بكلمة ! واضطر - بعد أن يئس من ظهورها - إلى أن يتجه إلى السطح ليصعد إليه - وقد شغله غيابها - مع سمير ، وهو يمنى نفسه بأن يسعده الحظ فتصعد إليهما ، كما كانت تفعل فى كثير من الأحيان ، فيراها ، ويطمئن عليها ! .

وقضى يومه هذا قلقا ، فلم تصعد سامية كما كان يؤمل ، ولم تواته الجرأة لكى يسأل سميرا عن سر غيابها . . ولم يكد ينقضى النهار ، وينتهى عملهما ، حتى جمع أوراقه ، ونزل مسرعا ، وكله أمل فى أن يرى سامية ، وأن يعوض بالنظر إليها فى الغروب مافاته فى أول النهار ولكن أمله خاب ، فلم تأت سامية ، وإنما جاءت أمها ، وحين مدت إليه يدها لتصافحه ، وتودعه ، كان نائها ، وكانت أنظاره على باب الغرفة التى اعتادت الدخول منه ، وكان قلبه يخفق بشدة ، وهو يتوقع أن تحضر ، ويخشى أن لاتجىء ! فلم ير اليد التى امتدت إليه ، ولم ير ابتسامة العجب التى ظهرت على وجـــه تانت شهيرة ، ولكنه سمع صوتها وهى تناديه :

— صبرى . . صبرى . . الله انت مالك تايه كده ؟ انت بتدور على إيه ؟ وبتبص على إيه هناك ؟ تكونش بتدور على سامية ؟ دى سامية مش هنا ، سامية راحت عند خالتها ، أنا بعتها تقعد عندها كم

يوم علشان تذاكر مع بنت خالتها ، وتأخذ دروس فى الانجليزى من الدكتور حسين جوز خالتها . ده أستاذ فى الجامعة ومتخرج من انجلترا .

ونزل هذا الخبر على رأسه كالصاعقة ، وأحس أن الدنيا تدور به ، وأنه يكاد يسقط على الأرض ! فاستند إلى أحد المقاعد ، ونظر إلى تانت شهيرة نظرة عتاب - وكأنه يلومها على مافعلته - ولم يتكلم ، ولم يقل شيئا ، بل تظاهر بعدم الاهتمام ، وأخذ يجر رجليه الثقيلتين ، وكأنه ينتزعهما انتزاعا ! . واتجه إلى الباب ، ليخرج منه إلى الطريق ، وليعود إلى منزله ، وهو شارد الفكر ! .

وحين جن عليه الليل ، وضمه الفراش ، أخذ يفكر فى غياب سامية ، ويحاول أن يجد له مبررا ، وأن يقنع نفسه بأنه لاذنب لها فيما حدث . ونسى فى غمرة أوهامه ، أنها قد لاتعلم بما يدور فى نفسه ، وأنه لايحق له - والأمر كذلك - أن يحاسبها .

وما زال فى مثل هذه الأفكار حتى غلبه النوم ، فنام ، وكان نومه مضطربا ! .

وعندما قام فى الصباح ، لم يكن يحس بمثل ما كان يحس به فى الأيام الماضية من البهجة والنشاط ، بل كان - على العكس - يشعر بالانقباض ، ولا يحس فى نفسه بتلك الرغبة القوية التى كانت تدفعه إلى الخروج ، وتغريه بالذهاب إلى منزل زميله سمير . وعول على أن لايخرج فى هذا اليوم ، وأن لايذهب إلى هناك ! .

وحبس نفسه فى غرفته ، وحاول أن يفتح كتبه ، وأن يحل مافيها من مسائل ، وأن يجيب على ماتضمنته من أسئلة ، ولكنه لم يستطع ، وخيل إليه أن مايراه اليوم فيها ليس إلا ألغازا وأحاجى ، لايمكنه مهما بذل من جهد حلها ! . فتركها يائسا ، وحاول أن يشغل نفسه بقراءة قصة من تلك القصص التى كان يحبها ، ولكن خيال سامية ، وتفكيره فى غيابها ، كان يحول بينه وبين مايريد ! وظل فى حيرته تلك مدة طويلة ، ولم ينقذه منها إلا دخول زوجة أخيه ، لتخبره بأن سميرا قد حضر ، فبدا السرور عليه ، وأسرع للقائه ، ولم يكد سمير يراه ، حتى صاح فيه قائلا :

— إيه ده ياجدع انت ؟ إنت باين عليك معقد وحتعقدنى معاك ، ماجيتش النهارده ليه ؟ ده أنا انتظرتك فى المدرسة لغاية الظهر وروحت البيت مالقيتكش ! ولما سألت ماما عليك استغربت وقالت إنها ماشفتكش ، وما رضيتش تخلينى أقعد إلا لما آجى واسأل عليك ، وكانت خايفة لتكون عيان أو تعبان ، وادينى جيت ولقيتك زى الحصان أهه ، فإيه بقى اللى خلاك ماتجيش ؟ .

وضحك هو من كلام سمير ، ومن تشبيهاته ، وزادته حماسته سرورا ، وأدرك من سرعة مجيئه مدى حبه له ، واهتمامه به ، واعتذر له بأنه أحس عندما استيقظ من نومه بشىء من التعب ، فآثر البقاء فى المنزل ، ولم يكن يعلم أن غيابه سيثير اهتمامهم إلى هذا الحد ! .

واطمأن سمير لكلامه هذا ، وعلم منه أنه بخير ، وأنه ليس به

ما يمنعه من الخروج ، فطلب منه أن يسرع بارتداء ملابسه ، لكى يذهب معه ليكملا اليوم عنده . وحاول هو أن يقنعه بأن يتركه يقضى هذا اليوم حيث هو ، أو أن يغريه بالبقاء معه ، لكن محاولته لم تنجح ، ورفض سمير ، وأصر على أن يصحبه معه إلى منزله ، وأقرته زوجة أخيه على ذلك ، فلم يجد مفرا من أن يقوم ، وأن ينفذ رغبتهما ! .

وفى الفيلا قابلته تانت شهيرة عاتبة ، وحاولت أن تعرف منه السبب الذى منعه من الحضور ، ولم يستطع — طبعا — أن يخبرها بالسبب الحقيق فاختلق لها سببا واهيا ، قبلته ببساطة ، وهى تقول :

— بقى إحنا ماصدقنا إن ربنا هداك وبقيت تيجى لوحدك، تقوم دلوقت عاوز تكسل وتخسر اللى عملناه ! يللا ياراجل . . يللا اطلع وبلاش كسل ! .

وطلع السلم - كما طلبت - إلى السطح ، وقضى مع سمير بقية اليوم .

ومضى على ذلك يومان ، ثم حدثت المفاجأة الثانية ، فقد أخبره سمير بعد لحظة من وصولها ، بأنه مضطر إلى أن يتركه بعد قليل ، ليذهب إلى بيت خالته ، لكى يأخذ درسا فى اللغة الانجليزية عند زوج خالته ، الدكتور حسين ، تلبية لرغبة والدته ، وإنه كان يود أن يأخذه معه لولا أنه يرى أن فى ذلك مضيعة لوقته الثمين ، فهو - أى صبرى - على خلاف سمير من طلبة القسم الفرنسى ، ولا فائدة له من حضور درس لا يستفيد منه . وعندما رأى ما اعتراه من دهشة ، أراد أن يهون

عليه الأمر ، فقال له : إنه يستطيع - أثناء غيبته القصيرة - أن يراجع واجباته الفرنسية ، وأن غيابه هذا سوف يتيح له فرصة مراجعة هذه المادة التي أهملها حتى الآن ! والتي لن يتاح له مراجعتها إلا في مثل هذا الوقت وختم حديثه بأن وعده بأن لا يتأخر كثيرا ، وبأن يسرع - بمجرد انتهاء الدرس - بالعودة إليه ، ليتما مابدآه من عمل ! .

وما كاد ينتهي من كلامه حتى قام وربت على كتفه ضاحكا ، وسار في طريقه ، وهو يشير إليه بيده مودعا ويقول :

— باي باي . . إوعى تقلق ، ولا تمشي . . أنا مش حاغيب ، أنا جاي حالا .

ووجد نفسه - بعد أن نزل سمير - وحيدا ، وأخذ يفكر فيما آل إليه أمره في هذا البيت ؟ هذا البيت الذي كان يحبه ، ويتعلق به ، وكان يراه مع وجود سامية وصحبة سمير أسعد مكان ، وأجمل بقعة ! ترى ما الذي يغريه الآن بالبقاء فيه ؟ لقد هجرته سامية ، وغاب عنه سمير ، فلم يبق هو فيه بعد أن فارقه أصحابه وأحبابه ؟ .

وحدثته نفسه بالهرب ، وبأن يخرج قبل أن يرجع سمير ، ودون أن تراه تانت شهيرة ، حتى لا يتيح لها فرصة تستطيع أن تستغل فيها خجله ، وأن تؤثر عليه ، وتقنعه بالبقاء ! .

واستحسن هذه الفكرة ، وعول على تنفيذها ، ولكنه لم يكد يجمع أوراقه ، ويهم بالوقوف ، حتى فوجيء بالعروس الصغيرة تقبل

عليه ضاحكة الوجه ، وبيدها ورقة بيضاء ، قدمتها له وهى تقول :

— والنبى ياصبرى أنا عاوزاك تكتب لى الجواب ده لماما ، أحسن وحشتنى قوى ، ومشغولة عليها خالص . بقى لها مدة مابعتتش جوابات وأنا خايفه لاتكون تعبانة ولا زعلانة ؟ وأنا كنت عاوزه أكتب لها زى كل مرة ، لكن قلت المرة دى أغير واخليك تكتب لها أنت كلمتين من الكلام الحلو اللى بتاخده فى المدرسة ، بس أنا خايفة لاضايقك أو أعطلك عن المذاكرة ! .

ولم يحر جوابا ، بل أعاد أوراقه التى كان قد جمعها استعدادا للرحيل إلى حيث كانت ، ومد يده ليأخذ الورقة التى قدمتها إليه ، وهو ينظر إليها بعجب شديد !.

وأدنت العروس الصغيرة كرسيها منه ، وجلست عليه ، وأخذت تملى عليه ـ وقد تقاربت رأساهما ـ مايدور برأسها من خواطر ، وهو يكتب ويحاول أن يختار لها من الجمل والعبارات مايرضيها ! ولم يحسا ـ وقد انهمكا فى الإملاء والكتابة ـ بوقع خطوات تانت شهيرة وهى تقترب منهما ، ولم يشعرا إلا بصوتها الغاضب الساخر وهى تقول :

— ماشاء الله .. ماشاء الله ! أهى دى المذاكرة ولا بلاش ؟ إيه ده ياأولاد اللى انتم بتعملوه ده ؟ وانتى ياسعاد مالك مايله على الجدع كده زى اللى بتوشوشو بعض ؟ إنت ناسية إن عنده امتحان ومش فاضى لك .. ولا إيه ؟ .

ووقع القلم من بين أصابعه عندما سمع هذا الكلام ، وكف عن
الكتابة ، ونظر إلى سعاد ، وكأنه يستنجد بها لتنقذه من هذا المأزق،
ولكنها لم تكن أحسن منه حالا ، فقد أذهلتها المفاجأة ، واحمر لها
وجهها خجلا ، وظهر الضيق عليها ، لما أحسته فى كلمات تانت شهيرة
من تهكم ، ولما رأته فى عينيها من اتهام !

وعندما همت بالكلام لتدافع عن نفسها ، ولتنفى ماقد يكون
قد علق بذهنها من شكوك ، لم تترك لها تانت شهيرة فرصة للكلام ،
ودارت لتنزل ، وهى توجه إليها الحديث ، والسخرية لاتفارقها :

— ياأختى ابعدىعن الولد ، وسيبيه فى حاله ، هو انتى مالكيش
خوات ؟

وكان لهذه الكلمات وقعها الأليم فى نفس سعاد ، وأحست كأنها
وخزات سكين حادة ، ولم تستطع المسكينةأن تفعل شيئا تخفف به من
ألمها ، سوى أن تبكى بكاء صامتا ، وأن تترك دموعها تسيل بغزارة ،
وهى تنظر إليه ـ من خلال هذه الدموع ـ نظرات حزينة عاتبة ،
كأنها تحتج بها على صمته العجيب وهدوئه المريب ! .

وتألم هو لألمها ، وكانت دموعها السائلة ، ونظراتها العاتبة ، أشبه
بسياط تلهب وجهه ، وتجعله يحس بالمهانة والخزى ، ولم يستطع أن
يواجه نظراتها ، فأطرق برأسه ، ليتفادى وقعها ، وأخذ يتمتم ببضع
كلمات لم تستطع هى أن تفهم منها شيئا ، ولم تعرف هل هى كلمات

اعتذار أو مواساة ؟ ثم قامت لتدخل إلى غرفتها دون أن تفوه بكلمة !

وظل هو مطرقا برأسه مدة طويلة ، انتبه بعدها على صوت زميله سمير وهو يصيح قائلا :

— إصح ياجدع انت .. انت نمت والا إيه؟ يللا فوق بقى علشان تكمل ، ده أنا ماغبتش ، يادوب خلصت الدرس وجريت على هنا على طول !

وأكمل ما بقى من عمله فى هذا اليوم صامتا ، وعندما نزل إلى الشقة لم ينتظر مجىء تانت شهيرة ، ليودعها كما كان يفعل ، بل أسرع بالخروج ، وهو يعتذر لسمير من عجلته ، ويرجوه أن يبلغها تحيته ! ونزل السلم الرخامى بسرعة غريبة ، وكأنه يهرب من وحش يطارده ! .

وعندما وصل إلى بيته ، وأوى إلى فراشه ، كان قد عزم عزما أكيدا على أن لا يعود إلى هذا البيت أبدا ! . ولكى ينفذ عزمه ، ولا يترك لسمير فرصة للتأثير عليه إذا حضر – بعد أن يفتقده – كما فعل فى المرة السابقة ، قام من نومه مبكرا ، ولبس ملابسه ، وخرج متأبطا كتبه – دون أن يذكر وجهته لزوجة أخيه – وذهب إلى إحدى الحدائق البعيدة ، ومكث فيها إلى قرب الغروب ، ثم رجع إلى منزله وهو راض عن نفسه ، مطمئن إلى أنه – بعمله هذا – سوف ينجح فى التخلص من أسر هذه الأسرة !.

وزاد اطمئنانه ، وأحس بالراحة ، وهو يستمع إلى زوجة أخيه وهى تقول له – بعد أن رجع – إن سميرا قد حضر وسأل عنه ، ول

لم تستطع أن تخبره بالمكان الذى ذهب إليه لجهلها به - وإنه خرج غاضبا! .

ودخل إلى غرفته ، وهو يظن أنه قد ضمن بذلك النجاح لخطته ! ووجد نفسه - ولأول مرة - منذ وقت طويل يغنى - وهو يخلع ملابسه بصوت منخفض ، الأغنية المشهورة (أحب عيشة الحرية ، زى الطيور بين الأغصان وبين الميه) ! .

وعجبت زوجة أخيه لما طرأ عليه من مرح ، ولكنها لم تحاول أن تسأله عن سره ، وتركته وصوته المرح مايزال يترنم بمقاطع الأغنية ، وذهبت لتعد له طعام العشاء .

وبعد أن انتهى من عشائه ، قام ودخل إلى غرفته ، وتمدد على سريره ، وقد عزم على أن ينام مبكرا ليريح جسده المتعب ، وأعصابه التى أرهقتها كثرة التفكير .

ولم يكد يغمض عينيه ، ويبدأ فى النوم ، حتى سمع صوت زوجة أخيه يدوى فى أذنه ، وأحس بيـــدها وهى تهزه لتوقظه ، وهى تضحك :

— صبرى . . إصحى ياصبرى . . تعرف مين جاء بره ؟ شهيرة هانم أم زميلك سمير ، جت بنفسها علشان تشوفك ! وبتقول إنها جايه لك انت مخصوص ! وبتستغرب لما لقيتك مارحتش عندهم النهارده ! قم بقى علشان تقعد معاها على بال أنا ما أعمل لها القهوة .

وكان ينظر إليها بذهول ، ويحملق فيها بعينين تجلى فيهما الشك ،

وكأنه لايصدق ماتقول ، فلم تر مفرا من أن تشده من يده لترغمه على النزول ، ومن أن تصرخ فيه لتبدد شكوكه ، وتؤكد له صحة ماتقول :

— قم ياأخى إحنا حنفضل سايبين الست قاعدة لوحدها هناك ، تقول عليك إيه ؟ ده أنا قلت لها إنك موجود ، وإنى داخله أنده لك.

ولم يجد شيئا يفعله بعد الذى سمعه سوى أن ينزل من سريره ، وأن يخرج من غرفته ، ويمشى كالمسحور إلى الغرفة التى كانت تنتظره فيها ! .

ودخل إلى الغرفة ببطء شديد ـ وكأنه غريب يدخلها لأول مرة ـ ورآها . . رأى تانت شهيرة ، وسمع صوتها ، فلم يستطع أن يكذب عينيه أولا أذنيه ! رآها وهى تقوم من مكانها ، وتتقدم إليه لتستقبله وترحب به ، وكأنه هو الضيف وهى صاحبة البيت ! وسمع ضحكتها الحلوة ، وصوتها الناعم ، وهى تقول :

— أهلا أهلا بالهراب ! إخص عليك .. برضه كده تسيبنا ياخاين واللا يعنى علشان بتحبك تقوم تتقل علينا بالشكل ده؟ واللا تكونش عامل زعلان من كلام امبارح! طب ده أنا بدور على مصلحتك، وخايفة لتضيع وقتك! ياسيدى إن كنت زعلت حقك على ، وادينى جيت لك بنفسى أهه! علشان اعتذر لك !. ومش حانزل من هنا إلا لما توعدنى وتحلف لى على إنك حاتيجى ومش حتتأخر تانى .

ولم تترك له مجالا للكلام ، بل أسرعت ووضعت يدها على فمه تمنعه منه كلما هم به .

ودخلت فى هذه اللحظة زوجة أخيه ، وقدمت إليها القهوة وهى تضحك من منظرهما ، وتعجب لما تراه ، وإن لم يداخلها الشك فى أسبابه .

وانتهزت هى فرصة وجود زوجة أخيه لتستعين بها على تأييد وجهة نظرها ، فلم تجد زوجة أخيه مانعا من تأييدها ، مادام فى هذا ـ كما أوهمتها ـ مصلحته ! .

وغلب على أمره ، ولم يستطع أن يقدم لهما سببا معقولا للرفض ، ولم يجد بدا ـ بعد أن شعر بحرج موقفه ـ من أن يعدها بالذهاب إليها ، ومن أن يقسم لها على الوفاء بهذا الوعد ! .

واستأذنت ـ بعد أن مكثت مدة قصيرة ـ لتعود إلى منزلها ـ وخرجت بعد أن ودعاها وهى تضحك . وعيناها تطفحان بشرا وسرورا ، وكأنها قد فازت فى معركة ! .

وبر بوعده ، وذهب فى الصباح إلى المدرسة ، وهناك قابله سمير فرحا مهللا . وذهبا معا إلى الفيلا ، ليجد من تانت شهيرة من الترحيب وحسن اللقاء فوق ما اعتاد أن يلقاه ! .

وعندما صعد إلى السطح رأى سعاد تجلس فى مكانها وحيدة وقد انهمكت فى غزلها ، فحياها بإيماءة خفيفة من رأسه ، ونظر إليها نظرة عطف ورثاء ، وكأنه يعتذر بها عن موقفه الذليل بالأمس ، ويستغفرها عما سببه لها من آلام ! .

ومرت على ذلك أيام ، وهو مواظب على الحضور ، ولم يكن يضايقه شيء سوى حرمانه من رؤية سامية ، وضجره من زيارات تانت شهيرة المفاجئة له ، تلك الزيارات التي كانت تتكرر في كل يوم ، وخاصة في الأوقات التي لا يكون فيها سمير موجودا ، بحجة أنه ربما كان محتاجا لشيء يمنعه الحياء من طلبه ! وكانت نظراتها الغريبة إليه وإلى سعاد كلما رأتهما يجلسان بالقرب من بعضهما ، أو سمعتهما يتحدثان بصوت منخفض، تنم على الشك والريبة ، وتدل على الغيظ والكراهية ! وكانت المسكينة ترتجف من الخوف كلما رأتها، وتذوب خجلا من وقع نظراتها ، وتكف عن الحديث ، وتغضى إلى الأرض وكأنها تبحث عن شق تختفي فيه !.

وكان يظن في بادىء الأمر أن ما تفعله تانت شهيرة ليس إلا حرصا منها على مصلحته ، وتعبيرا صادقا عن عاطفة الأمومة التي تدفع الأم إلى الدفاع عن أولادها إزاء ما تتوقعه من أخطار ، ولو كانت وهما من الأوهام . ولم يكن يشك قط في أن هذه التصرفات الغريبة يمكن أن تكون ناجمة عن عاطفة أخرى غير تلك العاطفة النبيلة ، التي تكنها كل أم لأولادها أو لمن هم في سنهم !. ولم يكن يتصور قط أن الغيرة — مثلا — أو الحسد يمكن أن يسيطرا على مثل تلك السيدة الكريمة ، ويدفعانها إلى مثل تلك التصرفات ! .

لم يكن يتصور شيئا من هذا ، حتى كان ذلك اليوم الذي كان جالسا فيه في مكانه ، ورأى سعادا تخرج من شقتها مسرعة ، ويداها مبتلتان ،

وترجوه وهى مترددة أن يساعدها فى إصلاح صنبور المياه الذى لم تستطع إصلاحه بمفردها ، وإنها تخشى إذا تركته إلى أن يأتى العامل ، أن تتسرب المياه إلى الغرف ، وتتلف الأثاث ! .

فلم يجد مفرا – بعد أن رأى ماهى فيه من ارتباك – من أن يستجيب لطلبها ، ومن أن يدخل معها إلى شقتها ، وأن يحاول إصلاح الصنبور التالف ! .

ولم يشعرا بدخول تانت شهيرة ، ولا بوقوفها خلفهما تراقبهما ، وهما يضحكان من أعماقهما ، ضحكات كلها مرح وسعادة ، كلما أفلت زمام الصنبور من يده ، وتناثر ماؤه على وجهيهما ! . ولم يرياها وهى ترمقهما بنظراتها الغاضبة ، عندما رأت سعادا تمسح وجهه المبلل بمنديلها الصغير ، وهو يمسك بها ويميل عليها ، ويكاد أن يسقط من كثرة الضحك ! .

لم يشعرا بشىء من ذلك ، ولم يحسا به ، إلا عندما رأت سعاد أن منديلها الصغير لايكفى لتجفيف ماتناثر على وجهه من الماء ، فتركته لتحضر منشفة كبيرة ! .

وصعقت سعاد حين رأت أمامها تانت شهيرة واقفة تنظر إليها بعينين يتطاير منهما الشرر ، فوقفت فى مكانها كأنما سمرت قدمها فى الأرض ! ، وندت عنها صرخة مكتومة ، التفت على إثرها صبرى ليرى ماحدث ، فراعه المنظر ، وخيل إليه وهو يرى ماظهر على وجه

سعاد من الرعب ، وما تجلى فى عينى تانت شهيرة من الحقد ، أنه يرى مجرما وقع فى يد أحد رجال الشرطة ، بعد أن أعياه البحث عنه ! .

ووقف هو الآخر ساكنا ، وقد أذهلته المفاجأة ، وعقد الخوف لسانه ! واقتربت منه تانت شهيرة ببطء ، ووضعت يدها على كتفه ،ثم دفعته إلى ناحية الباب بعنف ، وأشارت إليه ليخرج ، فخرج وهى وراءه ، وعيناها تنظران إلى سعاد نظرات مليئة بالزراية والاحتقار !

ومشى هو أمامها ساكنا ذليلا ، وكأنه مذنب يساق إلى القضاء ، أوطفل صغير ارتكب إثما ، ويخشى ماسوف ينزل به من عقاب !

وأسرعت هى إليه حين رأته يتعثر فى مشيته ، ويكاد أن يقع من فرط الاضطراب ، ومشت بجانبه ، وقالت له عاتبة وهو يهم بنزول السلم :

— كده برضه ياصبرى تعمل كده ؟ وأنااللى بقول عليك عاقل ... كده تخلى واحده زى دى تضحك عليك وتشغلك عن عملك ؟!

وسكتت برهة وهى تنظر إليه بغيظ ثم عادت تقول :

أنا مش عارفة إيه اللى عاجبك فيها ؟ فيها إيه حلو يخليك تسيب مذاكرتك وتطاوعها ، وتدخل معاها الشقة علشان تهزروا مع بعض الهزار البايخ ده ؟ ماترد ؟

ولم يرد ، فلم يكن فى حالة يستطيع معها الرد ! كان أشبه بالنائم الذى

يمشى فى نومه! ، وغاظها سكوته ، فجذبته من ذراعه بشدة ، لتحمله على الكلام ، ولم تكن تتوقع — وهى تجذبه — أن يختل توازنه ، وأن يقع على السلم ، ثم يتدحرج على درجه حتى يصل إلى نهايته ، فيصرخ صراخا حادا ، وهو يمسك بساقه ، ويتلوى من شدة الألم !

وأفزعها هذا الحادث الذى لم تكن تنتظره ، ولم تدر بنفسها وهى تهبط السلم قفزا لترتمى عليه ، وتحاول أن تساعده على الجلوس ، وتقول له وفى صوتها رنة الألم :

صبرى .. مالك ياصبرى ؟ إيه اللى جرى لك ياحبيبى ؟ اتكلم .. قل لى فيك إيه؟ وإيه اللى بيوجعك ؟ قل ياحبيبى ما تعذبنيش، يقطعنى ؟ أنا السبب فى ده كله ! ياريتنى مازعلتك ولاشديتك !

ولكنه لم يستطع أن يتكلم ، فقد كان ألمه عظيما ، وعلى الرغم من أنه حاول — عندما رأى ماظهر عليها من الرعب والهلع — أن يكتمه ، وأن يتظاهر بالهدوء ، فإنه لم يستطع أن يخفى ما كان يرتسم على وجهه من مظاهر الألم ، كما إنه لم يستطع أن يمنع صرخة خرجت من فمه عندما حاول أن يقوم ، وعندئذ أدرك أنه لافائدة من المقاومة ، وأنه لامفر له من البقاء حيث هو .

وكانت هى تنظر إلى محاولته تلك وهى تتألم ، وتكاد أن تبكى لما يقاسيه من أوجاع ! وعندما رأت عجزه عن القيام ، تقدمت إليه ، وأخذت ذراعه برفق ووضعتها على كتفها ، ثم أدخلت ذراعها فى وسطه وجذبته إليها وهى تقول :

— قم ياصبرى . . قم ياحبيبى ، قم معايا واستند على ! علشان تخش جوه ويمكن تستريح شوية لما أدعك لك رجلك ! .

وقام وهو لايزال يتألم ، ويضغط على شفتيه ليمنع صراخه ، وسار معها وهو يقفز ، وقد أناخ بجسمه كله عليها ، حتى وصلا إلى غرفتها الخاصة ، فوقف عند بابها لحظة ، كأنه يخشى من دخولها ؟ ووقفت هي لوقوفه ، وقد حسبت أنه وقف ليستريح ، ولكن نظرة منها إلى عينيه ، أدركت منها مايجول بخاطره ، فدفعته بلطف وهى تقول :

أدخل . . أدخل ياحبيبى ماتخافش . . دى أودتى أنا ! .

ودخل . . ولم يكن فى مقدوره أن يفعل غير ذلك ، وسار حتى وصل إلى حافة السرير ، ودارت هى لتساعده على صعوده ، وعلى أن يتمدد فيه ،وجلست بالقرب منه على السرير ، وأخذت تشجعه على الاحتمال ، وتطمئنه على إصابته.ومدت يدها لتتحسس رجله المريضة، ولم تكد تفعل حتى صرخ متألما ! ، وأجفلت هى لصرخته ، وأبعدت على إثرها يدها ، ونظرت إليه وهى مرتاعة ، فراعها أكثر ، مارأته على وجهه من علامات الألم الشديد ، فازدادت منه اقترابا ، وأخذت تربت على خده ، وتهدئ من روعه ، وتكلمه بصوت ناعم دافىء ، وعيناها تحدقان فيه ، وأنفاسها الحارة تلفح وجهه ،وتختلط بأنفاسه! .

ولم يعجبه هذا الوضع ، وأحس بالضيق ، وهو يراها تزداد اقترابا منه !، وعندما أراد أن يبعد جسمه عن جسمها ، وأن يحول وجهه عن

وجهها ، لم يرعه إلا أن يراها تمد يدها لتقرب وجهه ، وتعيده كما كان ! ثم تميل عليه ، وتقبله قبلات عديدة على جبينه ، وفوق وجنتيه ! وبهت هو لهذه الحركة . واحمر وجهه حتى أصبح فى لون الدم ! واستجمع قواه وحاول أن يبعدها عنه ، وقدهاله مافعلته ، ولكنها لم تمكنه من غرضه ، وانتهزت فرصة ضعفه ، وطوقته بذراعيها ، وأخذت تضمه إلى صدرها بحرارة ، وتغرق وجهه بسيل من القبلات . . وهو يحاول جاهدا أن يتخلص منها ، وأن يتفادى هذه القبلات . ولكنها راحت — بلا وعى — تشدد قبضتها عليه ، وتضمه إليها بقوة ، ثم تطبق بفمها على فمه ، وتقبله قبلة طويلة محمومة ، أودعت فيها كل ما كانت تحس به من ظمأ وجوع .

وعندما رفعت رأسها ، ونظرت إليه . . كان فى شبه غيبوبة ، وكانت عيناه اللتين تجلى فيهما الرعب تحملقان فيها ولا تطرفان ، وحدقتاهما الثابتتان تبدوان كأنهما قطعتان من الزجاج ، وخيل إليها — من كثرة مابدا عليه من الذهول — أن الفتى الذى تراه الآن ممددا فوق سريرها ليس هو الشخص الذى تعرفه ، وإنما هو شخص آخر يتميز عنه بالسذاجة والبله ! .

وانتصبت واقفة ، وهى تعجب لما طرأ عليه من تغيير ، وراحت تناديه بصوت يكاد أن يذوب رقة وحلاوة :

— صبرى . . صبرى . . مالك ياحبيبى ؟ إنت رحت فين ؟ فوق وبص لى .

أناشهيرة ، شهيرة اللى بتحبك ! إخص عليك . . بقى مش عاوز تبص لى ؟ هو أنا يعنى ماجيش زى البت الصفرا اللى فوق ؟ هى فيها إيه أحسن منى ؟ طب بص وشوفنى . . شوف أنا والا هية ؟ شوف شعرى ، شوف وشى ،شوف صدرى ، شوف جسمى كله قدامك أهه . برضه مش عاوز تبص . . طب أناماشية وزعلانة :

وكان هو يستمع إلى صوتها المثير ، وإلى كلامها الرقيق ، وهو مغمض العينين ، شارد الفكر! فلماسمعها تقول إنها سوف تخرج ،فتح عينيه !، وعندئذ لم يتمالك نفسه من أن يصرخ صرخة عالية ، تدل على عظم ما انتابه من دهشة ، وما أصابه من ذعر ، فقد رأى منظرا غريبا لم يكن قد رأى مثله من قبل !. رآها تقف أمامه ، وقد تجردت من ملابسها وأصبحت شبه عارية !، وكانت أشبه بتمثال بديع من الشمع الأبيض النقى، صنعه مثال عظيم، لامرأة جميلة ملهمة ، وأفرغ فيه كل فنه، ليصل بها وبه إلى الخلود !! .

ولم يستطع هو أن يطيل النظر إليها ، بل أسرع ووضع كفيه على عينيه ، ليحجب عنهما رؤية هذا المشهد المثير ، الذى لم يكن يحلم برؤيته ، أو يتخيله ! .

ولم تأبه هى لصرخته ، ولم تبال بما ظهر عليه من ذعر ، ولا بما اعتراه من دهشة ، وإن كانت قد عجبت — فى نفسها — لهذا الفتى الساذج الذى يراها تقف أمامه عارية ، ولا يثيره جسدها ، ولا يؤثر فيه منظرها ! .

ونال من كبريائها أن يحجب عينيه لكيلا يراها ، وهى المرأة الجميلة التى تعرف مقدار جمالها ، والتى يتهافت عليها صلاب الزواج منذ أن مات زوجها ، ويلاحقها الرجال بعيونهم النهمة فى كل مكان ! . كما عز عليها أن تنهزم أمام ذلك الشاب الصغير الذى لايقدر تضحيتها ، ولا يبالى بحبها . فقفزت إلى جواره ، وألقت بنفسها عليه ، وأزاحت كفيه عن وجهه ، وأخذت توسعه لثما وضما ، وهى تهمس فى أذنه ، بكلمات رقيقة ، تؤجج بها حواسه ، وتثير مشاعره ، ويدها المرتعشة تنساب فى رفق لتتحسس جسمه ، وتنزع ثيابه ، وتدغدغ بأناملها الدقيقة كل مكان تصل إليه ! . وما تكاد ترى جسم الفتى عاريا ، حتى تصاب بالسعار ، وتسرى فى جسدها النار ، وتتملكها الرغبة ، فتلتصق بجسمه ، وتلتحم به ، حتى لا يكاد يفصل بين جلديهما الملتهبين شعرة !

ونسيت نفسها — فى تلك اللحظة — فأطلقت لنزواتها العنان ، وغاب عقلها فلم تعد تبالى بشىء ، أو تخشى عاقبة ! . وكأنما أرادت — وهى تتهالك عليه ، وتذيب روحها فيه — أن تنتقم لنفسها مما ذاقته فى حياتها من حرمان ، وأن تعوض كل مافاتها من متعة ! .

وعندما أفاقت من نشوتها ، وسكن ثائرها ، ابتعدت عنه قليلا وراحت — وكأنما أحست بوزرها ، وخجلت من نفسها — تغطى جسمها ، وتوارى سوءتها ، وهى تختلس النظر إليه ! .

وكان المسكين ينظر إليها برعب — وهو لايزال فى مكانه — منهوك

القوى ، من أثر الصراع العنيف الذى نشب بينهما ـ وكأنه ينظر إلى شيطان رجيم ! وكانت عيناه تدوران فى أنحاء الغرفة ، وتحدقان فى محتوياتها ببلاهة ، وبدا كأنه لا يعى شيئا ، ولا يذكر كيف جاء ، ولا يصدق ماحدث ! . كان أشبه بالمغشى عليه من الموت ، ينظر ولا يرى ، ويسمع ولا يفهم ! . وقد نسى ـ فى غمرة ماحدث ـ نفسه ، ونسى ألمه ، ونسى مبادئه التى ظل يعيش عليها حتى هذه اللحظة ! .

ولم يطق البقاء فى هذا المكان أكثر من ذلك ، فتحامل على نفسه ، وأخفى ألمه ، وقام ـ وهى تراقبه ـ ليرتدى ملابسه ، وليغادر تلك الغرفة الملعونة . وخرج .. خرج منها ذليلا ، منكس الرأس يترنح من ثقل ما به ، وقد خيل إليه أنه ـ وحده ـ يحمل أوزار الناس جميعا ، وخزى الدنيا بأسرها ! .

ونادت عليه ، وقد كاد أن يختفى عن عينيها ـ لتودعه ، فلم يرد على ندائها ، ولم يلتفت إليها ، فأسرعت إليه ، وتعلقت به ، وهمت بأن تقبله ، ولكن الدموع الغزيرة التى رأتها تنهمر من عينيه ، منعتها من تحقيق رغبتها ، فتركته مرغمة ! وخرج وهو يلعنها ، ويلعن نفسه ، ويلعن اليوم الذى عرفها فيه ، والشيطان الذى أوقعه فى حبالها ! .

وسار وهو لا يدرى بنفسه ، ولا يشعر بأن قدماه تحملانه ، سار على غير هدى ، وأخذ يذرع الطرقات ، ويهيم على وجهه ، وقد أظلمت الدنيا فى عينيه ، وضاق بالكون على رحبه ! وظل ـ هكذا ـ

يسير من طريق إلى طريق ، ومن مكان إلى آخر ، وكلما قادته قدماه إلى منزله ، نكص على عقبيه ، ولم يجرؤ على دخوله ، كأنما أصبح يرى نفسه غير جدير بالانتساب إلى هذا المنزل الطاهر ! ومازال كذلك حتى تقدم الليل ، وكلت قدماه من كثرة المشى ، فلم يجد مناصا من الالتجاء إليه ، وما أن فتح الباب ، حتى دخل بسرعة ، واتجه إلى غرفته ، دون أن ينظر إلى من فتحه أو يفتح فمه ! .

وحمد الله حين أحس بأن أهله كانوا جميعا نائمين ، فقد كان يخشى أن يروا عاره ، وأن ينظروا إليه مشمئزين ، وأن يضحكوا منه ساخرين ، وأن يشيروا إليه بأصابعهم ، وهم يصرخون فيه بأعلا أصواتهم : أخرج .. أخرج أنت .. آثم .. أنت مجرم ! .

وعندما وصل إلى غرفته أغلق بابها وراءه ، ثم ألقى بنفسه - وهو لايزال بملابسه - على سريره ، وأغمض عينيه ، وحاول أن ينام ، وهو يرجو أن يخلصه النوم من جحيم أفكاره ، وأن يرحمه من عذاب ضميره ، ولكنه لم يستطع ، وظل مستيقظا طول الليل ، يتقلب على الفراش ، وكأنه يتقلب على جمر ! . ولم يحس بطلوع النهار ، أو يشعر ببزوغ الشمس ودخولها إلى غرفته ، ولم ينتبه من أفكاره إلا على الحركة والصخب اللذان يصدران من أبناء أخيه كل صباح ، وهم يستعدون للخروج ، والذهاب إلى مدارسهم .

وأراد أن يفتح عينيه ، وأن يجلس .. فلم يستطع ، وأحس بثقل

كبير فى جفنيه ، وبصداع شديد فى رأسه ، كما شعر بآلام حادة فى جميع أنحاء جسمه ، وبعدم القدرة على السير أو الحركة ! .

وقضى هذا اليوم فى الفراش ، ولم تمكنه آلامه الشديدة من أن يتناول شيئا من الطعام البسيط الذى قدم إليه ، ولم يقدر ـ على كثرة ما حاول ـ أن يشغل نفسه بالمطالعة ، أو بالتحدث إلى من حوله عما يدور برأسه من أفكار ! .

وفى الليل استسلم لهذه الأفكار تعذبه وتضنيه ، حتى خارت قواه ، وغلبه النوم ، فنام نوما متقطعا ، تخللته أحلام مزعجة ، مليئة بالأشباح ! .

وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى ، كان لا يزال متعب الفكر ، وإن كان قد أحس ببعض الراحة فى جسده ، وساعده ذلك على أن يقوم من السرير ، وأن يخرج من البيت ، وأن يقضى نهاره يضرب فى الطرقات كإنسان ضال شريد ! .

ومضت عدة أيام وهو على هذه الحالة ، يخرج فى الصباح من البيت ، ويجول فى الطرقات دون هدف أو قصد ، ثم يعود فى المساء ، وقد أضناه الجوع ، وأنهكه التعب ، فيأكل شيئا خفيفا ، ثم يأوى إلى غرفته .. لينام ! ولم يكن يمسك كتابا ، أو يحاول الاستذكار ، ولم يكن يشعر بمرور الزمن ، واقتراب موعد الامتحان ، أو يفكر فيما قد يصيبه من جراء ذلك من ضرر ! .

وفتح عينيه فى صباح أحد الأيام ـ وكان يوم جمعة ـ على ضحكات وأصوات خيل إليه أنها ليست غريبة عنه ، وأنه يعرفها ، وتحقق ظنه عندما نظر حوله ، فرأى زوجة أخيه تقف بجوار السرير ، ويقف بجانبها زميله سمير . وشقيقته سامية ! ولم يصدق عينيه ، وظن أنه لايزال نائما ، وأن مايراه ليس إلا حلما جميلا ، وفرك عينيه ، وأعاد النظر ، فتيقن من حقيقة مارآه ، وزاده يقينا هذه الضحكات الرنانة التى تجلجل فى أذنه ، وتلك الصيحات العالية التى تخرج من أفواههم ، وهم ينادونه ، ويحثونه على النهوض ، وكان صوت سامية العذب أسبقهم إلى أذنه ، وأسرعهم وصولا إلى شغاف قلبه ، وهى تقول :

— قم ياأخى . . قم ياخم النوم . . هو انت ماشبعتش نوم ؟ ده احنا بقينا الظهر ! .

وزاد ضحكهم ، واشتد مرحهم ، وهم يرونه ينزل من فراشه ببطء ، وينظر إليهم بغرابة ، ويده تتحسس وجهه وجسمه ، وكأنه يريد أن يتأكد من أنه يقظان ، ومن أنه لايحلم ! .

ولم يعجب سمير وسامية مابدا عليه من بلادة ، فأمسكا بيديه ، وجراه جرا إلى غرفة الاستقبال ، وأجلساه ، وجلسا بالقرب منه ، وراح سمير يمطره بوابل من الأسئلة ، عن أسباب غيابه ، وعن سر تخلفه عن زيارتهم كل تلك المدة؟ وكان هو ينظر إليه ، وكأنه لايراه ، ويصغى إلى حديثه ، وهو لاه عنه بالنظر إلى سامية ! . وكانت هى تختلس النظر

إليه ، ويحمر وجهها خجلا ، وتكف عن الحديث ، كلما رأته يطيل النظر إليها ويكاد أن يلتهمها بعينيه ! . ولم ينقذها من نظراته إلا دخول أخيه ، وجلوسه معهم . ومشاركته لهم فى أحاديثهم وضحكهم ! .

وعادا من جديد إلى سؤاله عن السر فى غيابه؟ وألحا عليه فى معرفة السبب ، واستعانا على ذلك بأخيه ـ الذى لم يكن يعلم بانقطاعه عنهم ، ولا يشك فى أنه يذهب كعادته إليهم ـ ولكنه لم يحر جوابا ، ولم يستطع أن يبدى عذرا ، أو يقدم سببا ! وعندئذ طلبوا منه أن يعود إلى سابق عهده ، مادام لا يوجد ما يمنعه ، أو يضطره للتخلف ، خصوصا وأن الوقت : يمر بسرعة ، وأن موعد الامتحان يقترب ! ، وزادت سامية فقالت إن سميرا ـ وقد اعتاد على مزاملته ، واستراح للتعاون معه ـ قد قل نشاطه ، وفترت همته بعد أن تركه ! وإن من المصلحة لسمير وله أن يعودا إلى ما كانا عليه ، وختمت حديثها وهى تنظر إليه نظرة توسل ورجاء بقولها :

— يللا ياصبرى . . يللا قم معانا دلوقت ، دى ماما زعلانة منك قوى ، وحتفرح كثير لما تشوفك ! دى والنبى بعتتلى مخصوص علشان أجيلك وأجيبك معايا . . وقالت لى ماارجعش من غيرك ! فياللا قم بق . . قم ماتكسفنيش . . قم عشان خاطرى . . والا أنا يعنى ماليش عندك خاطر !

وكان هو يستمع إلى قولها هذا وكأنه يستمع إلى قصيدة جميلة من

الشعر الغزلى الرقيق ، وكان بوده أن يجيبها إلى ماطلبت ، وأن يسارع إلى طاعتها ، ولو كان فى ذلك هلاكه ! ولكن . . ولكنه كان يعرف أنه إذا ذهب فلن يكون من أجلها هى ، ولكنه سيذهب ليلاقى تلك الحية الرقطاء ، التى أرتعته فى براثنها ، وسممت حياته ، ودنست طهارته ، وظل ساكتا ، وإن كان قد بدا فى عينيه الرفض الذى لم يستطع أن يقوله بلسانه .

وكان أخوه ينظر إليه ، وينتظر إجابته ، فلما رآه صامتا قال له :

— جرى إيه ياصبرى ؟ مالك ساكت كده ؟ ياابنى الناس بيحبوك ، وبيدوروا على مصلحتك ، وأنا بقول إنه مادام مافيش حاجه تمنعك من المرواح عندهم يبقى لازم تروح ! وإن ماكانش علشانك يبقى علشان سمير اللى مصمم على إنه يذاكر معاك ! وكمان علشان خاطر ساميه ياأخى . . وهو حد يرفض طلب بنت قمورة زى دى ؟ يللا قم وروح معاهم ، وشجعوا بعض علشان تجيبوا لنا نتائج حلوة ! .

ولم يجب أيضا ، فلم يعتد أن يجادل أخيه ، ولم يعتد أن يرفض له طلبا ، بل لقد كان يعد طلبه أمرا واجب الأداء ! وقام ليدخل إلى غرفته ، ولكى يخفى دمعة أوشكت أن تسيل من عينيه ، حزنا ألا يستطيع أن يعصى أخاه ، ولا يمكنه أن يفضى إليه بالسر الذى يمنعه من الذهاب مع سمير ! .

وخرج بعد لحظة وقد لبس ثيابه ، ووقف أمام أخيه ، وهو

ينظر إليه ويطيل النظر ، وكأنه يستغيث به ، ويرجوه أن يعدل عن رغبته التى قد تودى به وتقضى عليه ! .

ولكن أخاه لم يلاحظ نظرته ، وظن أنه يتلكأ ويتدلل ، فقال له:

إيه اللى وقفك تانى ؟ ياأخى يللا بلاش كسل ! خد سمير وروحوا ذاكروا . . ولا تضيعوش وقت !

ولم يبد اعتراضا ، وقامت سامية ، وقام سمير ، وأخذا بيده ، بعد أن شكرا أخاه على ماأظهره من اهتمام بمستقبلهم ، وخرجوا جميعا من المنزل ، وأخوه يودعهم حتى الباب ، ويوصيهم ببذل الجهد فى الاستذكار ويدعو لهم بالتوفيق والنجاح .

وسار معهم وهو واجم ، وكأنه يساق إلى المشنقة! وحاولت سامية وحاول سمير أن يخرجاه من صمته ، وأن يعدياه بمرحهما ، ولكنهما لم يفلحا ، وظلوا سائرين والصمت يلازمهم ، حتى وصلوا إلى مدخل الفيلا . وهناك وقف لحظة ، ونظر إليهما نظرة رجاء ، وكأنه يلتمس منهما أن لايلزماه بالدخول !، ولكنهما لم يحفلا بنظرته ، ودفعاه إلى السلم وهما يقولان :

— ماتدخل ياأخى . . هو إنت غريب ؟ والا هى دى أول مرة تدخل فيها هنا ؟ ده اللى يشوفك واقف كده وخايف . . يقول إن احنا حندخلك سجن ! .

ولو أنهما اطلعا على دخيلة نفسه ، وعرفا مايجول بخاطره فى تلك اللحظة ، لعلما أن دخوله إلى السجن كان أهون عليه من دخول بيتهما ، وأنه يود لو أنهما خليا سبيله ، وتركاه يعود من حيث أتى !

واستقبلته تانت شهيرة استقبالا حارا ، وكأنها لم تره منذ عام ! وكانت من الدهاء بحيث استطاعت أن تخفى عواطفها ، وأن تبدو أمامه وكأنه ليس بينها وبينه أى شىء ! .

ولم يقف هو معها إلا بمقدار أن حياها . ثم أسرع إلى السطح يصعد إليه وهو يحملق بغيظ فى يده التى صافحتها . وكأنها لامست نجسا ! وقضى ذلك اليوم مع سمير مهموما . وعندما انتهيا من عملهما ، خرج دون أن يراها !

ومضى على ذلك بضعة أيام ، كان قلما يراها خلالها أو يحادثها ، فإذا لقيها فبمحض الصدفة ، وإذا حادثها فـــلا يزيد على التحية أو السلام ! .

وكانت هى أيضا تتظاهر بعدم المبالاة ، ولا تكترث لما يبديه لها من إعراض ، وتحرص على أن تبدو أمامه فى صورة المرأة العفيفة المترفعة ، حتى أوشك أن يكذب نفسه ، وأن يعتقد أن ماحدث بينهما لم يكن حقيقة ، وأنه ليس إلا رؤى كاذبة وأوهام ! إلى أن سمعها ذات يوم - وهو فى مكانه من السطح - تنادى عليه - دون أن تصعد - وتطلب منه أن ينزل ليكلم سميرا فى التليفون . وعجب فى نفسه لهذا الطلب

الغريب ، وداخله الشك فى بواعثه . فلم يسبق لسمير أن طلبه إلى التليفون ، وهو — فضلا عن ذلك — لم يفارقه إلا منذ لحظة ! وقرر أن لايجيبها ، وأن يتظاهر بأنه لم يسمع نداءها ! ، وبدأ يفكر فى الأسباب التى دعتها إلى طلبه ، ولكنها قطعت حبل تفكيره — قبل أن يتمادى فيه — بظهورها أمامه — فجأة — وقولها له لاهثة :

— إنت مش سامع ياصبرى . . والا عامل نفسك مش سامع ؟ يللا قم قوام . . أحسن التليفون مفتوح ، وسمير عاوز يكلمك .

وقام وهو بين مصدق ومكذب ، ونزل إلى الشقة ، وأمسك بسماعة التليفون ، وخجل من نفسه — لسوء ظنه — عندما وجد أن سميرا هو الذى طلبه حقيقة ليقول له : إنه سوف يتأخر عن موعده قليلا لأن الدكتور حسين تأخر !

وعندما وضع السماعة ، وهم بالخروج ، رآها واقفة أمامه ، وهى تنظر إليه نظرة غامضة ، فلم يلتفت ، وتقدم إلى الباب ، ولكنها أسرعت وسبقته إليه ، وسدت الطريق عليه ، فنظر إليها ، والعجب والدهشة يطلان من عينيه . فضحكت من منظره ضحكة طويلة وقالت :

— ياأخى ده انت سقت فيها قوى ! هو أنا عملت فيك حاجة وحشة ؟ ده أنا بحبك ياصبرى . . شوف بحبك يعنى إيه ! بحبك لدرجة إنى نسيت نفسى وعملت حاجة ماكنتش أفكر فى يوم من الأيام إنى أعملها

لكن أعمل إيه . . غصب عنى .. ماقدرتش أحوش نفسى !. وأنا كنت فاكرة إنك حتنبسط ، وحتحبنى زى ماحبيتك ، وتقدر التضحية الكبيرة اللى عملتها علشانك ، مش تخاصمنى وتهرب منى ! هو أنا وحشة ياأخى للدرجة دى ؟ ده أنا ياما ناس جريت ورايا علشان تسمع كلمة منى ، أوتتجوزنى ! لكن أنامارضيتش ، ولما حبيتك أنت تقوم تتقل وتعمل كده ! تعال . . تعال ياحبيبى . . تعال ماتبقاش عبيط ، تعال ماتبوظش الساعات الحلوة اللى بنشوف بعض فيها ! طب ده لوكان واحد غيرك وعرف إنى بحبه بالشكل ده . . كان مش حبنى بس . . ده كان حطنى جوه عينيه ! .

وكانت تتكلم هذا الكلام بصوت رخيم ، يذيب القلوب ، ويحرك المشاعر ، وعيناها الناعستان تحدقان فيه ، وتنفثان فيه سحرهما ، وهى تقترب منه شيئا فشيئا حتى التصقت به ، ووضعت يدها فى خصره ، وسارت به ، وهو فاقد الإرادة ، لاهث الأنفاس ، حتى وصلت إلى غرفتها ، فأدخلته ، وأغلقت الباب وراءهما ! .

وعندما خرج من غرفتها ، كان يمشى ببطء ، وكأنه شيخ فى الثمانين ولم يكن يفكر فى شىء ، فلم يعد فى رأسه عقل يفكر به ! لم يفكر فى الصعود إلى السطح كالمعتاد ليواصل عمله فيه ، أو ليأخذ كتبه التى تركها هناك ، ولم يفكر فى زميله الذى سوف يعود ولا يجده ! . لم يفكر فى شىء من ذلك ، وإنما خرج ليهيم - مرة أخرى - على وجهه

فى الطرقات ، لايرى شيئا سوى صورة ذلك الصديق الذى خانه ، وأهدر كرامته ، واستغل ثقته فيه ليعتدى على أقدس حرماته، وأعز الناس عليه !. ولا يحس بشىء سوى وخزات ضميره الذى استيقظ وأخذ يصليه من عذابه نارا حامية ! وحين وصل إلى بيته ـ وكان الليل قد أرخى سدوله ـ وأوى إلى فراشه ، لم تهدأ نفسه ، ولم يخف عذابه ، إلا بعد أن عاهد نفسه على أن لايذهب إلى تلك الفيلا .. أبدا ، وأن لايرى وجه تلك الشيطانة بعد اليوم ! ولم يغمض له جفن إلا بعد أن أقسم على الوفاء بهذا العهد .

ولم يستيقظ فى صباح اليوم التالى إلا بعد أن تسربت الشمس إلى غرفته ، وشعر بحرارتها ، وحين خرج من الدار ، لم يكن يقصد جهة معينة ، وظل يمشى ، وقد شغلته همومه عما فى الطريق من أخطار ، ولم يفق منها إلا حين وجد نفسه يقف ـ فجأة ـ أمام مدخل فيلا تانت شهيرة ، ويهم بالدخول فيها .

وبهت لهذه النهاية التى لم يسع إليها ، وتذكر العهد الذى قطعه على نفسه بالأمس ، وتذكر القسم الذى أقسمه . فثاب إليه رشده ، ودار ليعود من حيث أتى ، ولكنه لم يكد يفعل حتى وقف فى مكانه بلاحراك ! فقد سمع صوت سمير ينادى عليه من فوق السلم ، ويقول له والدهشة ـ اضحة فى نبرات صوته :

— الله .. إنت جيت ياصبرى ؟ اتأخرت كده ليه ياأخى ؟ ده أنا دورت عليك فى المدرسة . . ولما مالقيتكش . قلت يمكن تكون اتأخرت وجيت على هنا . والحمد لله أدينى لقيتك .. وكان ظنى فى محله ! يللا بق اطلع .

ووجد نفسه يطلع دون أن يفوه بكلمة ، وعند نهاية السلم ، رأى تانت شهيرة فى انتظاره ، وعلى وجهها ابتسامة خبيثة ! ولم يكد يصل إلى حيث تقف ، حتى سمع سميرا يقول له ، وهو يستعد للنزول :

— عن إذنك بق ياصبرى . . أنا رايح الدكتور حسين .. ومش حاغيب عليك كتير . . إوعى تمشى ؟ .

وما كاد يختفى عن عينيه حتى أمسكت به تانت شهيرة ، وقادته والسعادة تغمرها إلى غرفتها وهى تضمه إليها بوله ، وتغمره بقبلاتها الملتهبة ، وغلقت الباب وهى تقول :

أنا مش مصدقة عينى . . ومش مصدقة إنك جيت هنا لوحدك ! ده النهارده الدنيا مش سايعانى من الفرحة، ودلوقتى بس اتأكدت إنك بتحبنى زى مابحبك ! ياسلام يا صبرى لو تعرف قد إيه أنا بحبك ؟

وشعر بندم شديد وهو يغادر غرفتها إلى الطريق ، واستيقظ ضميره ، وأخذ يحاسبه حسابا عسيرا على عهده الذى نكث به ، وعلى يمينه التى حنث فيها ، ولم يصل إلى داره إلا وقد عقد العزم ـ من

جديد - على أن لايعود قط إلى تلك المرأة التى سلبت إرادته ، وأعمت بصيرته ! .

ولكنه وجد نفسه فى ضحى اليوم التالى يخرج من بيته مسرعا ، ويذهب إليها مدفوعا بقوة خفية لم يستطع مقاومتها ! وقد نسى عزمه الأكيد ، ونسى قسمه الغليظ ، ونسى ماينتابه عقب كل مرة يذهب إليها من ندم ومن تأنيب ضمير ! .

وظل هكذا - أياما عديدة - يصمم فى الليل على أن لايذهب إليها ، وعلى أن لايرها ، ويعاهد نفسه على ذلك ، ويقسم ويشدد فى القسم ، وينام مطمئنا إلى أنه قد أصبح فى مأمن من شرها ، فإذا أصبح الصباح ذهب إليها دون إرادة ولا شعور ! .

واستجمع إرادته فى أحد الأيام ، وقاوم رغبته ، ولم يذهب ، وكان يوما شاقا عسيرا ، قضاه مبلبل الخاطر ، مشتت الفكر ، لايكاد يهدأ أو يستقر ، وكأنه سجين ينتظر الحكم عليه ! وظل هكذا حتى أسلمه التعب إلى النوم ، فنام ، وهو يرجو أن لايطول الليل وأن لايتأخر النهار ! . واستيقظ فى الصباح مبكرا ، وأسرع بارتداء ملابسه ، وحين تهيأ للخروج نظر فى ساعته ، فإذا الوقت لايزال مبكرا ، وضاق صدره ، وخيل إليه أن الساعة لاتتحرك ، وأن عقاربها لاتدور ! وحاول أن يشغل نفسه بقراءة صحيفة الصباح ، ولكنه تركها بعد لحظة . وهو يحس بأن مافيها لايستحق القراءة ! واتجه إلى النافذة لعله

يرى - وهو يطل منها - من المناظر مايلهيه ، ومايخفف عنه عذاب الانتظار ، ولكنه لم ير فيما شاهده شيئا يسترعى الانتباه ! . وأخيرا لم يجد مفرا من الخروج عسى أن يجد فى الطريق مايزيل قلقه،ويضيع وقته ! . وسار وهو يسرع الخطى حينا ، ويبطىء أحيانا أخرى ، حتى وجد نفسه على عتبة الفيلا ! . وعندئذ نظر فى ساعته ، وصعد السلم ، وقد اطمأن إلى أن سميرا غير موجود فى هذا الوقت ! .

ودق الجرس ويده ترتعش ، وفتحت له الباب ، ولكنه لم يدخل، ولم يجرؤ على النظر إليها ! . ورأت هى مابدا عليه من تردد ، فأسرعت إليه ، وعانقته بلهفة ، وأخذت تغمره - والشوق يطفر من عينيها - بسيل من الأسئلة عن سبب غيابه بالأمس ، حتى وارتهما الغرفة ! .

وعندما خرج كان كل همه أن يبتعد بسرعة عن طريق سمير خوفا من لقائه ! . وخرجت وراءه لتوصله إلى الباب ، وهى تناشده أن لايتأخر ، وتستحلفه بحبها أن لايعذبها بغيابه ، ثم تهمس فى أذنه . وقد كاد أن يجاوز الباب إلى السلم قائلة :

— ماتتأخرش على ياحبيبى تانى..أنا بستناك على نار. ومابقيتش أقدر على بعدك يوم ! . وعلشان تعرف أنا بحبك قد إيه . . امبارح جانى عريس ممتاز يقرب للدكتور حسين ورفضته . . علشان أفضل جنبك ! .

ونظر إليها عندئذ نظرة امتزجت فيها السخرية بالاستنكار ،

ولكنها لم تهتم بنظرته ، وواصلت حديثها قائلة :

— بقى مش مصدقنى . . ومش مصدق إنى أضحى بعريس زى ده علشانك ؟ طيب ما انا ضحيت قبل كده بأعز شىء عندى . ضحيت بشرفى وسمعتى ! أمال لو عرفت إنى حامل . . تعمل إيه ؟ ولو عرفت إنى ما بنمش الليل من خوفى من الفضيحة ، وإنى ساعات بفكر فى إنى أموت نفسى عشان أخفى عارى ، وأريح أولادى من المصير الوحش اللى بينتظرهم . . تقول إيه ؟ !

ولم يستطع أن يبقى ليسمع منها أكثر من ذلك ، ووجد نفسه ينزل السلم قفزاً ، ويخرج إلى الطريق وهو يعدو ، وكأنه يفر من غول فظيع ! ولكن زحمة الطريق اضطرته إلى أن يخفف من سرعته ، وإلى أن يسير ببطء ؛ وكانت كلماتها الأخيرة لا تزال تدوى فى رأسه — وهو يمشى — دوى آلة حديدية ضخمة ، وصوتها الباكى يطن فى أذنيه طنين النحل ! . ووضع إصبعيه فى أذنيه لكيلا يسمع هذا الطنين ، وهز رأسه بعنف لعله يبعد ذلك الدوى !

ولو أن واحداً ممن يعرفه رآه فى هذه الحالة لما عرفه ، ولهاله ما هو فيه ! فقد كان يكلم نفسه كلاماً غير مفهوم ، ويهز رأسه هزات متوالية ، ويشير بيديه إشارات لا معنى لها ، وكان يمشى وهو يتخبط فى مشيته ، ويبدو وكأنه قد جن ، أو أصابه مس من الجن ! وكان يفيق أحياناً من ذهوله ، فيفكر فيما سمعه ويتذكر جريمته ، ويتصور



.. سبعة أشهر طويلة، لم يكف فيها ضميري عن تأنيبي وتعذيبي !..

ما عمله فى أبشع الصور ! فتسود فى عينيه الحياة ، وتضيق به الدنيا ، ويدفعه اليأس إلى التفكير فى الخلاص بالانتحار مما هو فيه من عذاب ، ولا يمنعه من تنفيذ عزمه إلا عودته إلى الذهول من جديد !

وحين دخل إلى بيته ، وطرح نفسه على الفراش ، كان جسمه المرتعش يكاد أن يلتهب من شدة الحمى ، ورأسه المحموم يفور ، وكأنه بركان يريد أن ينفجر ، ثم راح فى غيبوبة طويلة !.

ولم يعرف حين استيقظ وفتح عينيه ، وبعد أن خفت وطأة الحمى وسكنت آلام رأسه — كم من الزمن مضى عليه وهو فى تلك الحالة — وجال بعينيه الكليلتين فيما حوله ، وعجب حين رأى أخته الكبيرة وبعض أقاربه يجلسون بالقرب من سريره وعيونهم جميعاً متجهة إليه ! وبدت فى عينيه الدهشة وهو يهم بالجلوس ، ولكنه لم يستطع ، وأحس بالضعف ، وعندما أراد أن يعود كما كان ، كان العرق يتصبب من جسمه بغزارة ! فأسرعت إليه أخته — وقد رأت ما هو فيه من ضعف — لتساعده على الرقاد وهى تقول :

— شد حيلك ياصبرى . . شد حيلك ياخويا . . وبلاش دلع ! ده اللى يشوفك بالشكل ده يقول إن بقى لك شهر عيان ! مع إن ما بقالكش غير ثلاث أيام بس . . سيبك فيهم ركبنا ، واتخضينا عليك . . لما شفناك سخن زى النار ، والعرق بيحميك ، وعمال تهذى وتهلوس ، وتعيط وتصرخ ، زى ما تكون بتتخانق ! . . ومين ياخويا

كانت شهيرة اللى عمال تزعق لها ، ومش عاوز تشوفها ؟ ومين كان سامية اللى دايما تسأل عليها ؟ واللاسمير اللى فضلت تترجاه علشان يسامحك ! . ده اليومين اللى أنا بت فيهم هنا جنبك ورونى حاجات غريبة خالص ! تكونش بتحب ياصبرى واحنا مش عارفين ؟ مين عارف .. ماهو يا ماتحت السواهى دواهى ! .

ونظر إليها عاتبا ، ولم يتكلم ، وسمع من حوله يوجهون إليه عبارات التشجيع ويدعون له بسرعة الشفاء . ورأى امرأة أخيه تقترب منه ، وهى تحمل كوبا من عصير الليمون ، ثم ترفع رأسه لتسقيه وهى تقول :

— قم بقى ياأخى .. ده انت رعبتنا ! قم اشرب الليمون ده علشان يبل ريقك ، ده انت بتدلع قوى . . ولك حق ! كل الناس جم يسألوا عليك - حتى شهيرة هانم - جت بنفسها مع سامية وسمير ، وزعلوا قوى لما شافوك تعبان ، والنبى دول ناس فيهم الخير صحيح وبيحبوك قوى ! . .

وأجفل حين سمع إسم شهيرة هانم ،وظهر الامتعاض على وجهه ، وسد أذنيه ، وأغمض عينيه ، كأنه لايريد أن يراها أو يسمع إسمها ! . ومكث فى الفراش بضعة أيام ، كان يتماثل فيها للشفاء ، وحين أحس فى نفسه بالقدرة على الحركة وعلى النهوض ، أخذ ينزل من الفراش ، ويمشى قليلا فى أنحاء الشقة . وبدأ يفكر فى الامتحان الذى لم يبق

على موعده سوى أيام قلائل ، وفى واجباته التى أهملها ، وفى كتبه التى لم يفتحها طوال هذه المدة ، وكان أكثر مايفكر فيه هو كيف يهرب من هذه الأفعى التى أوصلته إلى تلك الحالة ! وإلى أين يذهب إذا ماترك البيت ، لكيلا يراها أو يرى واحدا من ابنها ، إذا جاءوا لزيارته ؟

وهداه تفكيره إلى أن بيت الله هو المكان الوحيد الذى يستطيع أن يلجأ إليه ، فيغسل فيه ذنوبه ، ويتطهر من أدرانه ، ويجد فيه المهرب من تلك المرأة التى باعت نفسها للشيطان !

واستحسن الفكرة ، فقام ولبس ملابسه ، وأعد كتبه وورقه . وكانت زوجة أخيه تنظر إليه فى عجب ! ، ودفعتها الشفقة إلى أن تسأله عن السبب فى خروجه وهو لايزال ضعيفا ؟ وعن الجهة التى سيذهب إليها ؟ فأخبرها بأنه قد سئم الفراش ، وأنه لا بد له ـ بعد أن من الله عليه بالشفاء ، وأزف وقت الامتحان ـ أن يعوض مافاته من الوقت ، وأن يبذل جهداً أكبر فى الاستذكار ، وإنه لذلك قرر أن يذهب إلى أحد المساجد الكبيرة ، حيث يجد فيه من السكون والهدوء مالا يجده فى البيت مع كثرة الزوار ! واستحلفها وهو يغادر الشقة أن لاتخبر أحـــداً بمكانه ، خصوصا شهيرة هانم وابنها ! فدهشت لقوله ، ولكنها لم تستطع إلا أن تجيبه إلى طلبه ، وتشيعه إلى الباب ، وهى توصيه بالمحافظة على نفسه !

ودخل إلى المسجد الكبير ، واتجه إلى المحراب ، ووقف خاشعا

بين يدى الله ، ورفع يديه متوسلا إليه ، وأخذ يستغفره من ذنبه ويتضرع إليه ، ونسى فى هذه اللحظة الدنيا ، ونسى المخلوقات جميعا ، واستغرق فى صلواته وابتهالاته ، ولم تسكن جوارحه ، وتطمئن نفسه إلا عندما شعر بالدموع — دموع الندم — تنهمر من عينيه ، وتبلل وجنتيه ، وكأنها تغسل آثامه ، وتمحو بما تها سيئاته !.. وانتحى بعد ذلك ناحية قصية من نواحى المسجد ، وفتح كتبه ، وانصرف بكليته إلى دروسه الكثيرة يستذكرها ، ولا يدعها إلا لفترة قصيرة ، يتبلغ فيها بشيء قليل من الزاد ، يعينه على العمل ، ويقيم صلبه .

ومرت الأيام .. وهو يواظب على الذهاب إلى المسجد فى فجر كل يوم ، ولا يتركه إلا بعد أن يصلى العشاء ، ويغلق الخدم أبوابه ، فيعود داره لينام ملء عينيه .

وعندما حل موعد الامتحان ، دخله ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، عامر بالأمل فى أن الله لن يخذله ، وأنه لن يتخلى عن مساعدته .

وكان حريصا طوال أيام الامتحان على أن لايرى سميرا ، وأن لايترك له فرصة لمقابلته ، فما يكاد يفرغ من إجابته حتى يسرع — وقبل انتهاء الوقت — إلى مغادرة مقر الامتحان ليعود إلى بيته ، ومنه إلى المسجد يقضى فيه بقية اليوم فى الصلاة والاستذكار !

وانتهت أيام الامتحان ، وعلى الرغم من أنه خرج منها مرهقا ، إلا أنه كان متفائلا ، وقضى المدة التى تسبق ظهور النتيجة مع أخيه فى

محله ، يعمل معه ، ويساعده . وحين ظهرت النتيجة ، وعرف منها أنه ناجح ، بكى من شدة فرحه ! وهرع إلى المسجد الكبير ليصلى فيه صلاة طويلة ، وليشكر الله على ماحباه من عون ، وما منحه من توفيق ! .

ولم تمض بضعة أسابيع حتى عين فى إحدى شركات التأمين الكبيرة بالقاهرة ، واطمأن إلى مستقبله !

وعلى الرغم من أن عمله الجديد فى الشركة ، كان من الكثرة بحيث يشغل كل وقته ، ولا يدع له مجالا للتفكير ، فقد كانت ذكريات تلك التجربة الأليمة التى مر بها تبرز له — أحيانا — من بين طيات الورق وترغمه على التفكير فيها ، وتعود به إلى ذلك الماضى الذى نسيه ، أو كان يحاول أن ينساه . ولكنه سرعان ماكان يهرب منه وينهمك فى العمل ، ليمنع نفسه من التمادى فى هذه الذكريات .

ومرت شهور طويلة ، وسارت به الحياة فى طريقها المألوف ، وكان سعيداً بعمله ، راضيا عن زملائه الجدد ، وعن صلات الود التى تربطه بهم .

وعاد ذات مساء إلى بيته ، فإذا بزوجة أخيه تقدم له رسالة باسمه وعجب وهو يأخذها منها - فلم يسبق له أن تلقى رسائل فى بيته - وقرأ العنوان - وهو يرجو أن يكون خطأ - ولكنه رأى اسمه واضحا ، ومكتوباً بخط دقيق لم يعرف صاحبه ! ودخل إلى غرفته ، وفض

الرسالة ، وكانت دهشته عظيمة عندما وقع نظره — قبل أن يقرأها — على إمضاء شهيرة هانم فى نهايتها ! وصعد الدم إلى رأسه ، وطوى الرسالة ، وهم بإلقائها من النافذة ، ولكنه تريث ، ولم يفعل ، ووجد نفسه يفتحها من جديد ، ويقرأ فيها .

عزيزى صبرى :

أبعث إليك تحية رقيقة من مدينة لندن عاصمة انجلترا

وبعد . . فإنى أكتب إليك اليوم هذه الرسالة — على الرغم من أننى أعرف مقدما أنك لن تقرأها ، وأنك سوف تلقى بها فى سلة المهملات ! ولكنى مع ذلك أكتب إليك ! . أكتب إليك وأنا راقدة على سرير فى إحدى مستشفيات الولادة فى هذه المدينة الكبيرة ، وقد انتهزت فرصة الراحة التى شعرت بها بعد أن أعطانى الطبيب جرعة كبيرة من المخدر ، سكنت الآلام الحادة التى كنت أحس بها ، وأصرخ وأتلوى منها . أكتب إليك رسالتى الأولى . . ومن يدرى فلعلها تكون الأخيرة ! فإنى أنتظر بين لحظة وأخرى نقلى إلى غرفة العمليات لإجراء (عملية قيصرية) بعد أن تعسرت ولادتى . .

وثق أنى لا أكذب عليك ، إذا قلت لك إننى أحس إحساساً قوياً بأننى لن أخرج من هذه الغرفة وأنا على قيد الحياة ! وأن هذا الإحساس هو الذى دفعنى إلى أن أكتب إليك . . لكى أخبرك بأن الطفل الذى سيولد بعد لحظة هو ابنك . . ولا صلة له بمختار زوجى !

ذلك الرجل النبيل الذى ظللت أخدعه طوال سبعة أشهر هى عمر زواجنا القصير ، سبعة أشهر طويلة ، لم يكف فيها ضميرى عن تأنيبى وتعذيبى ، ولم أشعر خلالها بشىء من السعادة ، على الرغم من كل مابذله فى سبيل إسعادى من جهد ومال !

ولعلك لاتعرف أننى قد قبلت الزواج من هذا الإنسان الكريم مرغمة ، فقد رأيت أن الزواج منه — بعد أن تخليت عنى — هو الوسيلة الوحيدة التى أستطيع أن أبعد بها شبح العار الذى يطاردنى أنا وولدى ، وأن أخفى بها رائحة الفضيحة التى أوشكت أن تفوح .

وقد سافرت معه إلى هذه البلاد البعيدة مضطرة ، بعد أن أصر على أن أكون بجواره ، والحق أنى لم أجد عذرا أعتذر به بعد أن يسر لى سبيل السفر ، وبعد أن عين سمير فى أحد بنوك الإسكندرية ، وانتقلت سامية إلى بيت خالتها لتعيش معها إلى أن نعود .

وقد فكرت كثيراً — قبل هذه اللحظة — فى أن أكتب إليك ولكن يدى كانت تخوننى ، وخوفى من الفضيحة يمنعنى ، أما الآن .. وأنا أرى نفسى على حافة الأبدية ، فقد رأيت أنه لا بد لى من أكتب إليك ، لكى أريح ضميرى ، ولأطلعك على الحقيقة التى كنت أخشى أن أموت قبل أن تعرفها ! .

وأنى لأختم الآن هذه الرسالة - بعد أن بدأت أحس بالتعب وأخذت الآلام التى هدأت بفضل المخدر تعود — وأنا أتجه بقلبى

وجميع مشاعرى إلى الله الرحيم ، أسأله أن يقبل توبتى ، وأن يغفر زلتى ، وأن لا يحرمنى من رحمته التى وسعت كل شىء !.

فإن بقى لى شىء فهو أن تعرف أننى لم أكن امرأة شريرة كما تصورت ، وأننى لم أكن أماً مستهترة كما خيل إليك ! وأن ماحدث بيننا لم يكن إلا نزوة عارضة ، وحالة طارئة من حالات الضعف الذى ينتاب النفس البشرية فى بعض الأحيان ! وإنى لأرجو منك وقد عرفت .. أن لا تظلمنى ، وأن لاتقسو فى حكمك على ، بل إنى لأطمع فى أن تغفر لى وأن تصلى من أجلى !.

ولن أطيل عليك أكثر من هذا . . ولكنى كنت أود قبل أن أطوى هذه الرسالة . . أن أذكرك بابنى ـ ابننا ـ المسكين.. إذا قدر له البقاء ! وأن أوصيك به ، وأن أستحلفك بكل ما تحبه ، أن لاتظلمه وأن لا تؤاخذه بجريرتى ! ولكنى أعلم أنك أنبل وأكرم من أن تعاقب طفلا بريئا بذنب لم يرتكبه ! ويكفيه أن القدر ظلمه ، فحكم عليه باليتم قبل أن يولد ، وعاقبه بالحرمان من حنان أمه ومن عطف أبيه وهو مايزال جنينا لم ير النور ! . .

ومع إنه كان يكره تلك المرأة ولا يطيق ذكرها ، إلا أنه ـ وقد وصل فى رسالتها إلى هذه النهاية المحزنة ، لم يستطع أن يحبس صرخة أسى خفيفة خرجت من فمه ، ولا أن يمنع دمعة ساخنة فرت من عينيه، حزنا على ماأصابها ! ووجد نفسه يطوى الرسالة وهو يذهب إلى

باب غرفته ليغلقه ، ثم يخلع ثيابه ، ويستلق على فراشه ، ليواصل التفكير فيما آلت إليه نهاية تلك المرأة . وكر به الفكر إلى بداية قصته معها ، وأخذ يستعرض فصولها الأليمة فصلا فصلا ، حتى إذا وصل إلى هذه الخاتمة التعسة أحس بالألم يعصر قلبه ، وبالحزن يغشى نفسه ، وهو يذكر كلماتها الأخيرة التى تستحلفه فيها أن يغفر لها ، وأن يصلى من أجلها . ثم وهى توصيه بابنها - إبنهما ومع أنه لم يحس قبل الآن بعاطفة الأبوة إلا أنه وجد نفسه يقف طويلا عند هذه الكلمة ، وداخله شعور عجيب لم يدرك كنهه ، ولم يعرف إن كان حبا لهذا الطفل الذى لم يخرج إلى الدنيا بعد .. لأنه بضعة منه ؟ أم هو كره له لأنه جاء وليد الاثم ، وثمرة الفجور ! وظل مدة طويلة فى مثل هذه الأفكار ، ولم يشعر بالنوم وهو يتسلل إلى عينيه المجهدتين فيغمضهما ، ويلقى به فى سبات عميق ! .

واستيقظ فى الصباح ، وهو لا يزال يحس بالمرارة ، ويشعر بالحزن . وذهب إلى عمله ، وحاول أن يشغل نفسه به ، وأن يبعد عن مخيلته صورة تانت شهيرة وطفلها ولكن هذه الصورة كانت تغلبه من حين إلى آخر ، فتشغله عن عمله ، وتحتل تفكيره ، وتعيده - كرها - إلى ماضيه ! ولا يرجع منه إلا على صيحات زملائه ، ونداءاتهم عليه ، فيفزع ، ويعود إلى عمله ، ليغرق نفسه فيه ! . وظلت هذه الصورة تلاحقه فى نهاره ، وتؤرقه فى ليله ! وكانت تبدو له وهى مسجاة على فراش الموت ، تنظر إليه متوسلة ، وعيناها مغرورقتان بالدموع ، ويداها ممدودتان

إليه . . كأنما تناشده الصفح ، وتسأله المغفرة ! وكان الطفل الوليد يظهر له وهو في مهده ، يبكى بكاء مرا يفتت كبده ، ويصرخ صرخات عاليـــة تصم أذنيه ، وكأنها دقات ناقوس ضخم تنبهه من غفلته ، أوصيحات احتجاج عالية توقظ ضميره ، وتحمله مسؤولية وجوده ! .

وكان يوما من أسوأ أيام حياته ، لم يذق فيه طعم الهدوء ، ولم يعرف فيه معنى الراحة . وفكر - في اليوم التالي - في أن يذهب إلى سامية في بيت خالتها ، لعله يجد عندها من الأخبار مايعيد إليه بعض الهدوء ! ولكنه خشى أن تفضحه عينه الملتهبة ، وأن تنم عليه حاله المضطربة ، أو أن تؤول زيارته تأويلا سيئا ! . وفكر في أن يسافر إلى سمير في الإسكندرية ، وفي أن يكتب إليه ، ولكنه كان لايعرف مقر سكنه ، ولا عنوان عمله ، وأخيرا . . فكر في أن يكتب إليها . إلى تانت شهيرة نفسها ! ولكنه تذكر أنها تلازم الآن الفراش ، وأن حالتها قدلا تمكنها من الكتابة إليه - هذا إن كانت لاتزال على قيد الحياة - وخطر على باله في تلك اللحظة زوجها الأستاذ مختار ، وسأل نفسه : لماذا لايكتب إليه ؟ إنه هو الوحيد الذى يستطيع أن يرد على رسالته ، وأن ينقل إليه من أخبارها ماهو بحاجة إليه ! وعزم على الكتابة إليه ، وأمسك بالقلم ، ولكنه توقف قبل أن يبدأ ! وأخذ يسأل نفسه - مرة أخرى - كيف يكتب إليه ؟ وإذا كتب . . فماذا يقول له ؟ هل يقول له : إن السيدة التي تعيش معه ، وتحمل إسمه ، كانت عشيقة له ! وإن المرأة التي أحبها ، واختارها زوجة له ، كانت

تخفى عنه سرا رهيبا ، وتخدعه ! أم يقول له : إن الطفل الذى كانت تحمله فى بطنها ، والذى سوف ينسب إليه بعد ولادته . . ليس ابنه ، وإنما هو ابن الخطيئة ، وثمرة الحرام ! هل يقول له ذلك ، أو شيئا من ذلك ، فيقضى عليه ، ويلقى به ـ وهو الرجل النبيل الذى لم يرتكب إثما ـ فى هوة التعاسة والشقاء ! . وعندما وصل من حديث نفسه إلى هذه النتيجة ، أحس بالخزى ، وشعر بالخجل ، وأشفق على الرجل ، فعدل عن الكتابة ، وعن التفكير فيها ! .

وألقى بالقلم . . وهو يزفر زفرات حارة ! وعادت إليه الحيرة ، وانتابه القلق ـ من جديد ! ـ وأخذ ينظر فيما حوله متبرما ، وقد ضاق بنفسه ، وضاقت به نفسه ! فوقع نظره على صحيفة الصباح ، وتذكر أنه لم يقرأها ، فأمسك بها متأففا ، وفتحها وهو يأمل أن يجد فيها ما ينسيه ـ ولو لحظة ـ ماهو فيه من هموم ، وما يلهيه عما يعذبه من أفكار ! وبدأ يقرأ ، وينتقل من خبر إلى خبر ، ومن صفحة إلى أخرى ، حتى وصل إلى صفحة الوفيات ـ وكان قد نفد صبره ـ فهم بأن يطويها ، وأن يقذف بها إلى الأرض ! ولكن عنوانا صغيرا فى أعلا الصفحة أثار انتباهه ، وجعله يعدل عن طى الصحيفة ، وعن رميها ! وكان هذا العنوان مكتوبا بحروف شديدة السواد كما يلى :

مصاب عائلة الأزميرلى الفادح

وتملكه العجب لهذه الصدفة الغريبة ، واستولت عليه الدهشة لهذه المفاجأة التى لم يكن يتوقعها ، وأخذ يحملق فى ذلك العنوان بعينين

ذاهلتين ، فقد كان إسم الأزميرلى هو لقب عائلة زميله سمير - وكان واضحا فى هذا النعى ! - وبدأ يقرأ وهو يكاد أن لا يصدق عينيه ! .

تنعى عائلة الأزميرلى بالقاهرة سيدة من أكرم سيداتها وزهرة من أنضر زهراتها ، هى السيدة شهيرة هانم الأزميرلى ، وافتها المنية وهى تضع مولودا لم تكتب له الحياة فى مستشفى . . بمدينة لندن . والفقيدة العزيزة والدة سمير ببنك مصر بالإسكندرية وسامية بالثانوى و . .

وتوقف عند إسم سامية ، ولم يستطع أن يتم قراءة النعى ، وعادت به الذاكرة إلى الوراء ، ونسى نفسه ، ونسى الصحيفة التى لا تزال بين يديه ، ونسى النعى الذى لم يتم قراءته ، وتذكر سامية . . الفتاة الجميلة الرقيقة ، وتذكر حبه الطاهر لها ، وما كان يعلقه على هذا الحب من آمال عريضة ! وتذكر تانت شهيرة . . المرأة اللعوب ، وكيف حرمته من هذا الحب لتوقعه فى الاثم ، وتغريه بالخيانة ! تذكر كل هذا ، وعاش فيه لحظات ! وكان من الممكن أن يسترسل فى هذه الذكريات ، وأن يتمادى فيها . . لولا أن وقوع الصحيفة من يده أعاده إلى الواقع المر ، وذكره بالحقيقة المؤلمة !. وعجب لتصرفات القدر وسخريته، ولم يستطع أن يكتم برمه بها وضيقه منها ، فانفجر ضاحكا ، وكان ضحكه غريبا وعاليا ، كان أشبه بالصراخ والعويل منه بالضحك ! . وقد تشنجت له عضلات وجهه ، وتقلصت منه شفتاه ، ثم لم يلبث قليلا حتى انخرط فى بكاء طويل ، ونشيج عال ، وكأنه طفل صغير ثكل أمه ، أو فقد أباه ! .

وظل يبكى وينشج مدة طويلة ، وعندما هدأت نوبة البكاء ، وخفت حدة النشيج ، خرج - بعد أن جفف دمعه ، وغسل وجهه - ليذهب إلى عمله وهو يحس بالراحة ، ويشعر بالهدوء ! ولم يكن يعرف مبعث هذه الراحة أو مصدر ذلك الهدوء . . أهو إحساسه بأن الدموع الغزيرة التى ذرفها قد غسلت نفسه ، وطهرت روحه ، وأعادت إليه السكينة ؟ أم هو اطمئنانه إلى أن كل ما كان يذكره بجريمته المخزية ، ويربطه بماضيه الكريه ، قد انتهى وذهب إلى غير رجعة ! كل الذى كان يعرفه ، وكان على يقين منه - عندما وصل إلى مكتبه واستقر على كرسيه ، وبدأ يؤدى عمله بنشاط - هو أنه قد تخلص بموت الطفل وأمه من كابوس مخيف ، كان يثقل عليه ويلازمه ، وطوى - إلى الأبد - صفحة سوداء من تاريخ حياته ، كادت - لولا هذا الحادث - أن تعكر عليه صفو شبابه ، وأن تعذبه طول العمر ! .


الحب والخطيئة

لم تستطع فوزية أن تمنع علامات الدهشة من أن ترتسم على وجهها الرقيق عندما وجدت نفسها — فجأة — وجها لوجه ، أمام الدكتور حسام الدين اسماعيل » طبيب الأمراض الباطنية المعروف » وهى تهم بالخروج من الباب الزجاجى الكبير ، لمحل الحلوانى المشهور وفى يدها علبة صغيرة من الحلوى التى اشتهر ذلك المحل بصنعها ، كما لم تستطع أن تخفى أمارات الابتهاج الذى غمرها وهى تمد يدها ، لتصافح يده التى امتدت لتضغط عليها بحرارة وشوق ظاهرين !

وكان عجيباً أن تبدو فى عينيها الجميلتين دلائل التردد عندما سمعته يرحب بها ، ويدعوها إلى الجلوس معه لحظة ، تتناول فيها فنجانا من (الشيكولولاته) الساخنة وهى التى لم تكن تتردد من قبل فى قبول دعوة لأى رجل من الرجال !

ولبثت هنيهة تنظر إليه بملء عينيها ، دون أن تجيب على دعوته ، وكانت آثار المفاجأة ما تزال تسيطر عليها ، حين سمعته يقول لها مشجعاً ، ويده ما تزال ممسكة بيدها :

— يعنى لم تقبلى موافقة . . هل خجلت منى ؟ أم تخافين من أن يراك معى أحد ؟ إن كان الأمر كذلك فمن حقك أن تترددى ! لكنى لا أرى فى الأمر ما يدعو للخوف . . فأنا طبيبك ! أما إذا كنت لا ترغبين فى الجلوس معى . . فهذا ما لا أستطيع إكراهك عليه ! .

وأغمضت فوزية عينيها حتى لا تلتقيان بعينيه ، وقالت له وعلى فمها ابتسامة حلوة :

— لا يا دكتور . . لا تقل هذا الكلام ، أنا يشرفنى أن أجلس معك ، لكنى أخشى أن أعطلك أو أحرجك ! .

وأجابها الدكتور حسام وهو يمشى بها إلى مائدة قريبة ، ويشير إليها بالجلوس :

— ياستى . . لا عطل ، و لا إحراج ، فلن نمكث كثيراً . .

وجلست على المقعد ، وجلس هو أمامها . وأحست وهو يحدق فى عينيها الواسعتين بشىء من الخجل الذى لم تعد تعرفه ، بعد أن فقدت القدرة على الإحساس به منذ أمد بعيد .

وأطرقت برأسها . . وجعلت تنظر إلى المائدة الصغيرة ، وتشغل نفسها بالتأمل فى نقوشها الكثيرة . وكان هـــذا الإحساس غريباً بالنسبة لها ، فليست هذه المرة هى الأولى التى تجالس فيها رجلا . كما إنها ليست أول مرة تقابل فيها الدكتور حسام ، فقد سبق لها أن

قابلته قبل هذا اليوم - عندما ذهبت إليه فى عيادته — لكى يعالجها من الضعف الذى ألم بها منذ شهر، ونصحتها زميلتها كوثر بزيارته، وعرض نفسها عليه بعد أن أثنت عليه وأطرت مهارته .

وسمعته يقول لها منبها بعد أن رأى صمتها يطول ، وإطرافها يستمر :

— الله . . هل جئنا هنا لكى نجلس ساكتين ؟ أم يظهر إنى ضايقتك ؟ .

ورفعت رأسها بحركة سريعة ، وأخـــذت تنظر إليه نظرات طويلة كأنما تحتج بها على قوله ، وتعاتبه على ما بدا لها فيه من سخرية ، ثم قالت :

— بالعكس يا دكتور . . أنا سعيدة جداً . . بل فى منتهى السعادة . .

وعندئذ رأت يده وهى تمتد إلى حيث تضع يدها ، وتتحسسها برقة ، ثم تضغط عليها بحنان كثير ، وكأنما يريد أن يعتذر لها عما بدر منه ، ويزيل ما توهمته فى حديثه من سخرية ! .

ولم يبد عليها أنها غضبت أو استاءت لما فعله . . ولم تحاول أن تجذب يدها ، بل على العكس ، أحست برغبة خفية فى أن تظل يده فوق يدها أطول مدة ! .

وتبادلا الحديث ، وكان أغلبه يدور حول صحتها ، وحول الدواء الذى وصفه لها ، ومدى نجاحه فى علاجها . وبدالها وهو يتحدث باهتمام



...رأت يده وهى تمتد إلى حيث تضع يدها وتتحسسها برقة ، ثم تضغط عليها بحنان !.

شديد عن صحتها . . كثرة حرصه عليها ، وشدة عنايته بها . وجعلها ذلك تحس بالغبطة ، وتشعر بالسعادة ، وتتمنى المزيد ! .

ولم تطل جلستهما ، فقد رأت عقارب الساعة الكبيرة المعلقة في صدر الردهة الواسعة تقترب من السادسة ، وهو الموعد الذى تبدأ فيه عيادته ، فاضطرت ـ وهى كارهة ـ إلى أن تلفت نظره إلى ذلك ، وإلى أن تطلب منه الإسراع فى الخروج ، للحاق بمرضاه الكثيرين الذين ينتظرونه .

وعندما خرجا إلى الطريق ، دعاها إلى ركوب سيارته ، لكى يوصلها إلى بيتها ، ولكنها رفضت دعوته برقة ، وزعمت له أنها لابد لها من أن تمر على بعض المحلات لتشترى منها ما تحتاجه قبل أن تعود إلى البيت ، كما إنها لا تود أن تؤخره عن موعد عيادته وهى تعلم أن هذا وقتها فنزل على رغبتها ، ولكنه لم يتركها إلا بعد أن أخذ منها وعداً بأن تمنحه فرصة أخرى ، يلقاها فيها ، دون أن يكون وراءهما ما يشغلهما ، أو يعجل بانصرافهما ، ولم يترك لها فرصة للتفكير ، بل أسرع وحدد يوم الجمعة القادم ، فى نفس الزمان والمكان ، ثم ركب سيارته بسرعة وانطلق بها .

وأحست وهى تمشى وحدها فى الطريق الطويل الخالى من المارة ، والذى يوصلها إلى البيت ، بشىء يشبه وخز الضمير ، لأنها كذبت على الدكتور حسام حين ادعت أنها سوف تمر على بعض المحلات

قبل عودتها إلى البيت ، فلم يكن ينقصها شيء تشتريه! . ولكنها التمست لنفسها العذر بأنها لم تتعمد الكذب إلا لأنها تريد أن لا تؤخره عن عيادته . ولا تحب أن يعرف مكان بيتها ! .

ومطت شفتيها بحركة تدل على الامتعاض ، عندما خطر على بالها ذكر بيتها ، وراحت تسأل نفسها : ألها بيت حقاً ؟ وهل تسمى ذلك المكان الذى تعيش فيه .. بيتها ؟ صحيح أنها تقضى كل وقتها فيه .. تأكل، وتشرب، وتنام ! . وهى لاتستطيع أن تنكر أنه مكان أنيق ، وأن أثاثه فاخر وثمين ، ومع ذلك فهى لا تستطيع أن تقول أنه بيتها ! . فهى ليست وحدها التى تقيم فيه ، وليست هى ربته ، وإنما يشاركها فيه أخريات هن فى نظرها أشبه بقطيع ضال من النساء ! أفتعد ذلك البيت .. بيتها ؟ . . أتعد ذلك الوكر اللعين الذى تذبح فيه الفضيلة وتباع فيه الأعراض بأبخس الأثمان . . بيتها ؟ ولاحت على وجهها المربد ابتسامة ساخرة ! فقد نسيت أنها واحدة من ذلك القطيع من النساء اللاتى يتخذن من هذا الوكر مأوى لهن ؛ ويقدمن فيه المتعة الزائفة واللذة المحرمة لطلابها من الرجال! الرجال ذوى الميول المنحطة ، أولئك الذين يجرون وراء شهواتهم ، ولا يجدونها إلا فى مثل هذه الأوكار ، ولا تحلو لهم إلا بين أحضان بائعات الهوى ، وهم ينهشون أجسامهن الميتة بأفواههم كما تفعل الذئاب ، أو يمرغون وجوههم الصفراء على أقدامهن كما تتمرغ الخنازير فى الوحل ! . لشد ما تكره الآن أولئك الأوغاد ، بل وتكره من أجلهم جميع الرجال !

ولكم تمنت من أعماقها أن يتقرض ذلك النوع القذر من المخلوقات ، أولئك الحيوانات الذين يمتلىء بهم البيت فى كل ليلة ، ويرتكبون من الآثام ما تشمئز منه نفسها ، ويقشعر منه جلدها ! ولطالما اشتهت أن تمزق بأظافرها الطويلة الحادة جسم واحد منهم ، وهو يجثم عليها كما يجثم الكلب على جيفة ، أو حين يضمها إليه بشراسة ، ورائحة الخمر الكريهة تهب عليها من فمه المنتن مع أنفاسه المتلاحقة ، كلما أراد أن يقبلها بشفتيه المرتجفتين، فتحس بالغثيان ، وتشعر بالدوار! . ولكنها كانت تدرك ضعفها إزاء هذه الوحوش ، فلا تملك سوى أن تلعنهم فى سرها بشدة ، وأن تلعن معهم الزمن الغادر الذى ألقى بها بين أيديهم ، والرجل النذل الذى جاء بها إلى هذا المكان . وأوصلها إلى ذلك الهوان ! .

وأحست بالنار تسرى فى جسدها ، وبالمرارة تغشى حلقها . . وخرجت من فمها ضحكة عالية جوفاء لم تلبث أن وأدتها ، كما لو كانت خطيئة تخشى افتضاحها . . عندما ذكرت زوجها . . ذلك الثعلب الماكر ، الذى استغل سذاجتها ، وأهدر كرامتها ، وباعها للشيطان ! .

ورأت نفسها وهى تمشى الهوينى فى ذلك الطريق ، وقد بدأت الأنوار الهادئة التى ترسلها المصابيح العالية ، المنتشرة على جانبيه ، تغمره بلون زئبقى جميل . . رأت نفسها تعود — على الرغم منها — إلى ذلك اليوم الملعون الذى عرفت فيه ذلك النذل ، ووقعت

فى شراكه ! . وأحست بدمعة ساخنة تكوى خدها وهى تذكر ذلك اليوم .. وتذكر بذكره والديها الطيبين ، وما لحقهما بسببها من عار ! فلم يكونا يتصوران — وهما يغمرانها بحبهما ، وحنانهما ، ويكرسان كل حياتهما لإسعادها .. أن ينتهى بها المطاف إلى هذه النهاية الحزينة ! .

كانت آنئذ فى التاسعة عشر من عمرها ، فتاة غريرة ، مدللة ، تلاحقها أنظار المعجبين بجمالها أينما ذهبت . وتملأ سمعها عبارات المديح والإطراء فى كل مكان . ولم تكن تعرف من الدنيا إلا وجهها الضاحك ، ولم يكن يهمها من الحياة سوى ما تستطيع أن تقدمه لها من بهجة ومتاع ! .

وكانت طالبة فى السنة الثالثة بمدرسة معلمات الجيزة . وكان عطف أمها الزائد وحنانها العظيم ، وحديثها الذى لا ينقطع عن اليوم الذى تراها فيه عروسا فى بيتها ، وعن الزوج الجميل الذى تتمناه لها . . من الأسباب التى أدت إلى كثرة رسوبها ، وإلى دخولها مدرسة المعلمات » بعد أن فشلت فى الحصول على مجموع يؤهلها للاستمرار فى التعليم العام ، تمهيداً للوصول إلى الجامعة ، كما كان يتمنى والدها .

وكانت المدرسة تبعد مسافة طويلة عن موقف السيارة التى تركبها كل يوم للذهاب إليها والعودة منها ، ولم يكن يضايقها طول هذه المسافة على الرغم من أنها كانت تقطعها فى كل يوم مرتين . . إلا حين يقبل

الصيف ، ولا تجد من الشجر مايقيها هى وزميلاتها من حرارة الشمس وشدة القيظ .

وكانت تمشى فى ذلك اليوم مع بعض صديقاتها الطالبات ، وهن يقطعن الطريق ضاحكات لاهيات ، عندما وقع نظرها على فؤاد . . لأول مرة - وكان واقفاً بالقرب من المدرسة ، ينظر إليها بإعجاب ، ويحدق فيها — دون غيرها من الفتيات — ويبتسم لها ابتسامة أخاذة وآسرة ! . .

واحمر وجهها — يومئذ — من وقع نظراته ، وغضت بصرها ، وواصلت السير مع زميلاتها ، وهى تظن أن الأمر لا يعدو المصادفة ، ولا يدعو للاهتمام . ولكنها عجبت — حين التفتت خلفها بعد لحظة — فرأته مايزال يمشى وراءها ، ويتبعها بنظراته ، ويشير إليها بيده ! .

وعلى الرغم من تأكدها من أنه كان يقصدها بنظراته ، ويعنيها بإشاراته ، فلم تعره التفاتا ، وإن كانت قد أحست فى نفسها الغضة بإحساس غريب لذيذ لم تدركنه أو تحس به من قبل ! .

وتابعت السير وهى — بين لحظة وأخرى — تسترق النظر إلى الخلف ، فتجده يتعقبها ، ويواظب على النظر إليها ، ويمتلىء بهجة وسعادة كلما رآها تلتفت إليه ! .

وعندما وصلت إلى البيت ، ودخلت إلى غرفتها ، أسرعت إلى

النافذة ، وأطلت منها وهى تعتقد أنها لن تجده ! ولكن دهشتها كانت عظيمة ، حين رأته واقفاً يتطلع إلى نوافذ البيت بحثاً عنها ! وما يكاد يراها ، حتى يوجه إليها بصره ، ويرفع يده محيياً ! . ويظل فى مكانه حتى تترك النافذة ، وييأس من عودتها ، فيغادر المكان ! .

وشغلها ما رأته منه فى هذا اليوم بعض الوقت ، وكاد منظره وهو يقف تحت نافذتها بقامته القصيرة وجسمه النحيل يحتل تفكيرها — لولا أنها أسرعت بتنحيته عن مخيلتها — بعد أن أقنعت نفسها بأن ما فعله ليس إلا لونا من طيش الشباب الذى تتعرض له كثيراً فى الطريق ، وإنه لن يلبث أن ينصرف عنها إلى غيرها من الفتيات كما يفعل أغلب الشبان ! .

ولكن ظنها لم يتحقق ، ووجدته فى اليوم التالى ينتظرها فى نفس المكان ، ولم يتركها إلا بعد أن دخلت البيت وأطلت عليه من النافذة ! . وكذلك فعل فى اليوم الثالث وما أعقبه من أيام ! .

وتعودت على رؤيته بعد ذلك فى كل يوم ، حتى أصبح شغلها الشاغل ! . وكانت ترتجف فرقاً كلما تصورت أنها قد لا تراه فى موقفه فى يوم من الأيام ! . وكم عجبت من نفسها . . حين راحت — ذات يوم تعتذر لصديقاتها عن مرافقتهن فى الطريق ، مدعية أنها تشعر بالتعب ، وإنها لذلك سوف تستريح قليلا فى فناء المدرسة قبل أن

تخرج منها ، وما كدن ينصرفن ، ويختفين عن نظرها ، حتى تخرج وتمشي وحدها ! .

وأتاحت له بذلك فرصة الاقتراب منها ، ومحادثتها ! ومع إنها هي التي هيأت له هذه الفرصة فقد اعتراها خجل شديد . . وهي تستمع إلى صوته الهادىء ، وحديثه المثير !، وكانت تشعر بالارتباك الممزوج بالخوف وهي تمشي إلى جواره صامتة ، حتى لقد خيل إليها أن عيون الناس جميعاً تنظر إليها غاضبة.وتهاجمها بقسوة ! ولكنها لم تلبث ـ وهي تستمع إلى كلامه الرقيق وحديثه العذب ـ أن ذهب خوفها ، وانفكت عقدة لسانها ، وبدأت ترد عليه بكلمات سريعة مقتضبة ، وهي تختلس النظر إليه من حين لآخر ! .

ومنذ ذلك اليوم لم تعد ترافق زميلاتها وهن عائدات إلى بيوتهن ، وكانت تعتذر لهن في كل يوم بأعذار واهية . وهي تخشى أن يكتشفن سرها فلا تسلم من سخرتهن !

وكانت علاقتها بفؤاد تنمو يوما بعد يوم ، حتى أصبحت حبا جارفا ، ولم تعد تطيق فراقه أو البعد عنه !. ولم يعد هو أيضا يكتفي من حبه بمصاحبتها في الطريق كل يوم إلى بيتها ، بل أخذ يبتعد بها ـ شيئا فشيئا ـ عن هذا الطريق ، ويتنقل بها في الأمكنة البعيدة الخالية التي لاتحاصرهما فيها العيون ، ولا تلاحقهما فيها الأنظار !

وكان ذلك ـ بالطبع ـ يؤخر عودتها إلى بيتها ، ويعرضها للوم

والدتها ، ولكنها لم تكن تعجز عن انتحال الأسباب الكثيرة التى تنطلى عليها ، وتقتنع بصحبتها .

وشجعه ذلك على أن يدعوها لمصـــاحبته فى حفلات السينما الصباحية ! وإلى مرافقته فى الحدائق النائية ، فتضطر — لكى ترضيه — إلى التخلف عن المدرسة فى كثير من الأيام .

وعندما توسل إليها — ذات يوم — أن تصعد معه إلى مسكنه — وهما يسيران بالقرب منه — لكى ترى والدته التى تتمنى رؤيتها — بعد أن حدثها عنها كثيرا — ترددت لحظة ، ونظرت إليه بدهشة مشوبة بارتياب ثم لم تلبث أن رضخت لطلبه ، حين رأته يمسك بيدها ، ويسير بها إلى السلم ، وعيناه تنظران إليها بحنان ، وتبثان فيها الثقة والأمان !

وصعدت السلم وهى ماتزال تشعر ببعض بالخوف ، ولكن ذلك الشعور زال تماما عندما دخلت الشقة واستقبلتها أمه فاتحة ذراعيها ، وعانقتها عناقا حارا . وهى تقول لها بصوت ملىء بالفرحة :

— أهلا . . أهلا بعروس ابنى ! ياسلام يافؤاد . . لقد عرفت كيف تختار ، جمال ودلال ، وبنت حلال ! .

وأدخلتها غرفة الاستقبال الأنيقة ، وجلست بجوارها وهى لاتكف عن الترحيب بها ، والإسهاب فى وصف جمالها . وقضت معهما ساعة لطيفة ، استأذنت بعدها فى الخروج حتى لاتتأخر ، وتسبب القلق لوالدتها . وأذنت لها ، وهى تظهر حرصها على راحتها ، ولكنها

دعها - قبل أن تخرج - إلى مشاهدة الشقة ومحتوياتها ، وأخذت تنتقل بها من غرفة إلى أخرى ، وهى ترنو إليها ، وتضحك ضحكات ناعمة وتقول : —

— لازم تشوفى هذه الشقة الجميلة ومافيها ياحبيبتى فستصبح شقتك!

وكانت شقة جميلة حقا ، وكان أثاثها فاخرا جدا ، وفرشها أنيقة ، ومحتوياتها منسقة تنسيقا بديعاً ، ينم عن سعة وترف .

وعندما رجعت إلى غرفتها ، خيل إليها - لأول مرة - أنها ضيقة كل الضيق ، وأنها لم تعد تليق بها ! وأخذت تتصور نفسها وقد انتقلت إلى تلك الشقة الفاخرة ، التى كانت فيها منذ لحظات ، وتحلم باليوم السعيد الذى تصبح فيه ربتها ! ، وحلق بها الخيال فى آفاق بعيدة من السعادة والجمال ، وفتح لها حديث والدة فؤاد باب الأمل الحلو الذى سوف تدخل منه إلى الفردوس الدائم ! .

ولم تعد تهتم بدروسها ، أوتبالى بكثرة غيابها عن المدرسة ، وعندما كانت تتحدث إلى فؤاد فى ذلك ، وتظهر له خوفها من الرسوب فى آخر العام ، كان يهون عليها الأمر ، ويطمئنها ، ثم يحدثها عن حبه للزوجة التى تقيم فى البيت ، وتهتم بشئونه ، ولا يشغلها عن زوجها وأولادها شىء ! .

وكان هذا الكلام يزيدها تعلقا به ، وثقة فيه ، ويدفعها إلى الاندفاع فى حبه ، وتلبية جميع رغباته ، وهى مطمئنة كل الاطمئنان إلى أن كل

ماتقدمه له من تضحيات قليل . . إذا قيس بما يعده لها فى المستقبل من سعادة وهناء ! .

وتكررت دعواته لها لزيارة أمه ، ولم تكن تجد فى هذه الزيارات مايجعلها تنفر منها . بل على العكس كانت ترحب بها ! فقد كانت أمه تستقبلها فى كل مرة بأعظم مظاهر الحب والحنان ، وتقدم لها من عطفها مايؤكد لها أنها لم تخطىء حين وثقت بهذه الأسرة الشريفة ، وأنها لم تبعد عن الحقيقة حين اعتقدت أنها وجدت أما أخرى ، لاتقل حباً وحناناً عن أمها الأولى ! .

ومرت أيام كثيرة وسعيدة ، ولم يكن يمر يوم دون أن تلتقى به . حتى أيام العطلة . . لم تكن تمنعها من لقائه ، وكانت تحتال بكل وسيلة حتى تتمكن من الوصول إليه !

ولم يكن عجيبا ـ عندما طلب منها فى ذلك اليوم النحس أن تذهب معه إلى منزله ـ أن لا ترفض ، وأن تذهب معه وهى متلهفة لرؤية والدته والاستمتاع بحلو حديثها ! واستقبلتها الأم بما اعتادت أن تستقبلها به من حفاوة وترحاب . ولكنها لم تكد تجلس قليلا حتى استأذنتها الأم فى الخروج لتغيب لحظات قصيرة ، ثم تعود إليها بسرعة لتكمل حديثهما ! .

وفوجئت هى بهذا الطلب ، وظهر على وجهها الخوف والدهشة ، وهمت بأن تقوم لتخرج ، ولكن الأم الكريمة أسرعت إليها وحالت

بينها وبين ماتريد ، وأخذت تطمئنها ، وتؤكد لها أنها لن تتأخر ، وأنها سوف تعود بأسرع مما تتصور ، ثم تقسم لها على أنها لولم تكن مضطرة لما تركتها وخرجت ، وما زالت بها حتى أقنعتها بالبقاء ، وانتظارها إلى أن تعود ! .

ولكنها لم تعد . . وخرجت هي قبل أن تعود ! خرجت تجرر ذيول الخيبة ، وتنوء بحمل أثقل خطيئة ! خرجت بعد أن ضاع منها كل شيء ، وفقدت أثمن ماتملكه ! وهبطت السلم وهي ذاهبة العقل ، شاخصة البصر ، كأنها تخرج من قبر ! وأخذت تضرب فى الطريق على غير هدى ، وتتوارى بالجدران وهي تتمنى لوأن واحدا منها سقط عليها وخلصها من الحياة ! .

وظلت تمشي متعثرة الخطى ، مبلبلة الفكر ، لاتدرى ماذا تفعل فى هذا المصيبة التي حلت بها ، ولاتعرف كيف تواجه والديها العجوزين ، وهي تحمل كل هذا العار ؟ .

وفكرت لكى - تجنبهما هذه الكارثة التي قد لاتحتملها شيخوختهما - فى أن تقذف بنفسها فى النيل ، أو أن تلقى بجسمها تحت عجلات إحدى السيارات !، ولكنها لم تجد فى نفسها الشجاعة الكافية لتنفيذ مافكرت فيه ، عند ما أدركت أن انتحارها سوف يقضى عليهما ! .

ووجدت نفسها - فى النهاية - تصعد سلم بيتها ، وماتكاد أمها تفتح الباب حتى تهرع إلى غرفتها ، وترتمى على فراشها ، ثم تخفى وجهها فى

الوسادة لتكتم صوت بكائها ونشيجها ، وأمها التى أذهلتها المفاجأة ، تقف بالقرب منها حائرة ، لا تعرف ماذا تفعل !

ولم تدر بنفسها بعد ذلك إلاعندما شعرت بوخز شديد فى ذراعها اليمنى ، وفتحت عينيها ، فإذا بها ترى الطبيب وهو يحقنها فى وريدها ، وبجواره أمها تمسك بيدها برفق ، وتنظر إليها فى خوف وحنان ! فلم تقو على مواجهة نظراتها ، وأغمضت عينيها مرة أخرى ، ثم راحت فى سبات عميق !

ولبثت فى الفراش بضعة أيام . . وهى تعيش فى غيبوبة متقطعة ، ما تكاد تفيق منها حتى تعود إليها ، والأم الحنون لا تفارق سريرها وتكاد تذوب حزنا وهما كلما سمعتها تئن وتتألم ، ورأت جسمها يذوى ويذبل ، دون أن تعرف لما أصابها سبباً ! .

وعندما رأتها وقد بدأت تسترد عافيتها، وتستعيد مافقدته من قوتها ، حاولت أن تعرف منها سر تلك الأزمة التى انتابتها ، ولكنها لم تكن ترد على أسئلتها الكثيرة بغير الصمت والدموع !

ولم تكد هى تحس بالقدرة على الحركة حتى ذهبت إلى المدرسة ، وكانت دهشتها كبيرة عندما رأته يقف فى انتظارها وهى خارجة منها - كعادته - فغلى الدم فى عروقها ، وحولت عنه نظرها ، وأسرعت الخطى لتبتعد عن طريقه ، ولكنه لم يعبأ بإعراضها عنه ، ولم يدعها تهرب منه ، وأخذ يلاحقها وهو يعتذر إليها عما حدث ، ويزعم لها

أنه حدث على الرغم منهما ، وأنه هو النتيجة الطبيعية لحبهما ! وإنه — فضلا عما لحقه من تأنيب ضميره — لن يتخلى عنها ، أو يتأخر عن إصلاح الخطأ بالزواج العاجل منها !

وعجبت من نفسها وهى تصغى إليه ، ولم تدر لماذا لم تنهره ، أو تحاول البعد منه .. كانت ما تزال تحبه ! . واستطاع صوته الباكى ، وهو يعتذر لها عما حدث ، وبلهجته الرقيقة وهو يحدثها عن إخلاصه وحبه ، وبالتصميم الذى بدا فى نبراته وهو يعدها بالزواج لإصلاح خطئه .. أن يسكن غضبها ، وأن يخفف من سخطها ! ولم تلبث أن هدأت من سرعتها ، وقد بدأت علامات الطمأنينة تظهر على وجهها العابس ، وبوادر الرضا تبدو فى عينيها الذابلتين ! .

وعندما رجعت إلى منزلها ، كانت واثقة تماما من وعده ، ولم يكن لديها أدنى شك فى أن ماحدث لن يكون له أى أثر على حياتها ، وأنه لن يعوق سبيل سعادتها وهناءها .

وصدق حدسها ، وبر فؤاد بوعده ، فلم تمض أيام حتى كان هو وأمه فى منزلها يطلبان يدها من والدها . وحين أقبلت والدتها لتنبئها بالخبر وتستطلع رأيها ، انهمرت الدموع من عينيها بغزارة ، وألقت بنفسها بين أحضانها ، وهى تنظر إليها نظرات مليئة بالحزن ، مشبعة بالأسى .

ودهشت الأم لما بدا على بنتها من حزن ، ولما رأته فى عينيها من دموع ! فلم تكن — قطعاً — دموع الفرح أو السرور كما كانت تنتظر ! وساورها الشك ، وانتابها القلق ، وأخذت تنظر إليها بإشفاق. ثم ضمتها بحرارة ، وربتت على ظهرها بحنان ، وهى تقول :

— لاتبك ياحبيبتى . . وإذا لم تكونى راضية عن هذه الخطبة فلن نوافق عليها .

فأجفلت من قولها ، وأفلتت من حضنها بحركة عصبية شديدة ، ونظرت إليها نظرة تدل على الذعر ، ثم صرخت صرخة أليمة وهى تقول بلهفة :

— لا يا ماما . . لا ! إعملوا معروف وافقوا . . لازم توافقوا . . لازم يا ماما — بأى شكل وبأسرع وقت — وإلا فسوف أقتل نفسى !

وسكتت - فجأة - كأنما أصابها عى ! ثم أسرعت إلى غرفتها لتختفى فيها ، وتركت أمها واقفة مشدوهة لا تصدق أنها تسمع هذا الكلام من وحيدتها !

ومرت لحظات طويلة ثقيلة . . كانت ترهف فيها السمع لكل كلمة ، وتترقب كل حركة ! ، وكان قلبها يخفق بشدة وهى تحدق فى باب غرفة الاستقبال ، وتنتظر بقلق ما يسفر عنه الاجتماع ، وتضرع إلى الله بكل ما فيها من يأس أن لا يعترض والدها على طلبه .

وعند مافتح باب الغرفة وخرج من فيها ، كاد قلبها يثب من صدرها فرحا ، وهى تسمع زغرودة طويلة تنطلق من حنجرة أم فؤاد ، وترن فى أنحاء الشقة ، ثم ترى والديها يودعان فؤادا وأمه بعبارات جميلة ، بعثت فى نفسها الأمل ، وفتحت باب الرجاء !

وما يكاد الباب يغلق حتى تسرع إليها أمها لتبشرها بأن أمنيتها تحققت ، وأن والدها لم يرفض الخطبة ، وإن كان قد أجلها إلى أن تنتهى من الامتحان وتظهر نتيجته .

ومرت الأيام بعد ذلك سريعة،وظهرت النتيجة ،وكانت الرسوب — طبعاً — وخشيت من أن يعدل والدها عن الخطبة ، أو أن يؤجلها إلى العام التالى . وكاد يحدث ما كانت تخشاه ، لولا أن أمها — وقد رأت ، ماانتابها من خوف وقلق ، وما بدا فى وجهها من شحوب ووجوم — ألحت عليه ، ومازالت به حتى أقنعته بالموافقة على أن يعجل بالزواج !

ولم تكن لتصدق وهى تدخل إلى تلك الشقة الرائعة ، التى كانت تحلم بالإقامة فيها ، وهى فى ثياب الزفاف البيضاء ، محمولة على ذراعى عريسها القويين ـ أنها تدخلها ، وأنها سوف تصبح من تلك الليلة ربتها ـ ولم تر بعينى رأسها بابها وهو يغلق عليهما ، ويصبحا فيها وحدهما ، ولو لم تسمع زوجها الظريف ، وهو يقبل عليها ، والفرحة تغمر وجهه ، والبهجة تملأ عينيه ، ليعانقها بقوة ، ويقبلها بلهفة ، ويقول لها :

— مبروك . . مبروك ياحبيبتى ، شرفت بيتك !.

وعندما رفعت إليه رأسها ، ونظرت إليه ، وأرادت أن تبادله التهنئة ، لم تستطع ، فقد طغت عليها الفرحة ، ومنعتها من النطق ، وأنستها الكلام ! .

ومضى أسبوع ، وهما يعيشان وحدهما فى ذلك العش الأنيق ، يمرحان فى جنة الحب ، ويشربان من رحيق الهوى ، ويسكران من خمر الغرام !. وقد حسبت أن الدنيا ليس فيها سوى الحب ، وأن الحياة فارغة بغير الزواج !.

وفى ختام الأسبوع ، أقيم حفل عظيم حضره عدد كبير من الرجال والنساء ، قضوا الليل فى مرح وطرب ، وكانت نغمات الموسيقى الصاخبة وكؤوس الخمر الدائرة ، تغريهم بالرقص وتشجعهم على المجون والعبث .

وامتدت السهرة إلى الفجر ، وكانت كلما أحست بالتعب ، أو بدا عليها الإعياء ، يشجعها فؤاد على الاحتمال ، زاعما أن الحفل حفلها ، وأن المدعوين ضيوفها ، وما كادت ترى آخر واحد منهم وهو يغادر الشقة حتى ارتمت على سريرها ، وراحت فى نوم عميق .

وعندما استيقظت من نومها قبيل ظهر اليوم التالى ، شعرت بأنها لم تكن وحدها فى الشقة ، فقد رأت .. وهى تخرج من غرفتها ، والدة فؤاد ، تجلس فى الردهة ، وبجوارها ثلاث سيدات جميلات ، يبدو

على وجوههن آثار السهر والإرهاق ، ولم تكد تقترب منهن حتى سمعتها تدعوها إلى الجلوس معهن ، وهى تقول :

— تعالى ياعروس ، تعالى سلمى على ضيوفك ، آمال ، وكوثر ، ونعمات .. وتعرفى عليهن ، فسيمكثن معنا بضعة أيام !

ولم تكن تتوقع أن يزورهم أحد فى مساء ذلك اليوم . ولكن الليل ما كاد يجن ، حتى رأت — وهى فى غرفتها — الباب يفتح ثم يغلق عدة مرات ، وكان فى كل مرة يفتح يدخل رجل غريب لم تره من قبل . وكان فؤاد وأمه يستقبلانهم جميعاً بحفاوة عظيمة ، ويقدمان لهم أصنافاً عديدة من الأشربة ، لم يكن من بينها القهوة أو الشاى ! .

وعندما همت بأن تغلق الباب على نفسها ، أسرعت إليها السيدة الكبيرة ومنعتها ، زاعمة لها أنه لايليق بها أن تغلق الباب فى وجوه الضيوف ، وأن الأحرى بها أن تخرج للقائهم ، وأن ترحب بهم ! وما تزال تلح عليها فى الخروج حتى خرجت . وقدمتهم إليها بأسمائهم ، واحداً بعد الآخر ، وكان كل واحد منهم يحاول وهو يسلم عليها ، — وعيناه تكادان تلتهمانها — ، أن يجلسها إلى جانبه ، وأن يظهر لها إعجابه بجمالها ! .

وجلست على مقربة منهم وهى كارهة . . وعجبت كثيراً حين رأت النساء الثلاث يخرجن من إحدى الغرف وهن متبرجات ، وقد لبسن

ثياباً رقيقة ، تكشف كثيراً من مفاتن أجسامهن ! . وزاد عجبها حين رأتهن يجلسن بجوار أولئك الرجال ، ويشربن معهم الخمر بشراهة ، وهن يضحكن ضحكات ماجنة ، ويأتين من الحركات مالا يتفق مع ماتعرفه من آداب اللياقة وأصول الضيافة ! فلم تطق البقاء ، وقامت بهدوء وذهبت إلى غرفتها فدخلتها وأغلقت خلفها الباب ! ولكنها لم تكد تدخل حتى دخل وراءها زوجها ، وأخذ يلومها على مافعلته ، ويظهر لها عجبه من إيثارها الوحدة على ماهم فيه من لهو ومرح ، ثم يدعوها للعودة إلى الجلوس معهم ، فترضخ لطلبه مرغمة ، وتجلس معهم صامتة ! .

ولكن صمتها لايعجبهم ، فيبدأون في مداعبتها ، ويحاولون إغراءها بمشاركتهم في مجونهم ، ويتسابقون في تقديم كؤوسهم إليها ، وهم يلحون عليها لتشربها ، ولكنها تأبى وترفض ، وتظهر لهم كراهيتها للخمر ، واشمئزازها من رائحتها ، فلا يبالون برفضها ، ولا ييأسون من إقناعها بحلاوة مذاقها ، وبما تتيحه لشاربها من بهجة وانشراح ! فتضطر - بعد أن كثر إلحاحهم ، وبعد أن رأت زوجها ينضم إليهم - إلى أن تشرب ! . وظلوا يقدمون لها كأساً وراء كأس ، وصيحاتهم تملأ المكان ، حتى تثمل ، وتشاركهم فيما كانت تستنكره من عبث ومجون ! .

وتعودت بعد ذلك على أن ترى رجالا مختلفين يأتون كل ليلة لقضاء سهراتهم الحمراء في ذلك البيت الموبوء ، وبدأت الأمور تتكشف لها ، فعرفت أن هؤلاء الرجال ليسوا أصدقاء كما توهمت ، ولكنهم طلاب متعة رخيصة ، يشترونها بنقودهم ! وأدركت أن أولئك النسوة لسن

ضيوفا كما كانت تعتقد ، ولكنهن زوجات مخدوعات ، وضحايا مثلها ، اضطرتهن الظروف للوقوع فى حبائل تلك المرأة الماكرة ، وذلك الزوج الخبيث ، ليجعلا منهن بائعات هوى وفجور !.

وكانت تحس بالرعدة تسرى فى جسدها كلما تصورت نفسها وقد بدأت تسير فى نفس الطريق الذى سرن فيه ـ طريق الغواية ـ وتنحدر شيئاً فشيئاً إلى الهاوية ، لكى تصبح فى النهاية واحدة مثلهن !.

وجن جنونها ، وقررت الثورة على هذا الوضع المهين ، والفرار من ذلك الجحيم ! وجمعت ثيابها ، ثم لزمت غرفتها إلى أن جاء زوجها ، وفاجأته بما اكتشفته من حقيقة هذا البيت ، وبما عزمت عليه من الخروج منه ، والعودة إلى منزل والديها .

وأذهلته المفاجأة بداءة ذى بدء ، وظهر عليه الاضطراب ، ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، وضحك ضحكة طويلة مصطنعة ، وأخذ يهون عليها الأمر ، ويتهمها بالمبالغة ، ويحاول أن يوهمها بأنها مخطئة فى تصورته ، وأن من تراهم من الرجال ليسوا إلا مجموعة من أصدقائه يجتمعون فى بيته ، ليستمتعوا بوقتهم فى شيء من الحرية ، وإنها إذا كانت لاتستسيغ تصرفاتهم ، ولا يعجبها مجونهم ، فإن ذلك لا يجب أن يحملها تضيق بوجودهم ، أو يدفعها إلى إساءة الظن بهم ، والتفكير فى هجر بيتها من أجلهم !.

وكان يظن - وهو يراها تنصت إليه - أنه استطاع أن يغير رأيها ، وأن يقنعها بالعدول عن تنفيذ عزمها على مغادرة البيت . ولكنه حين مد يده ليداعبها . لم يرعه إلا أن يراها تبعد يده عنها بشدة ، ثم تقوم من مكانها ، وتحمل حقيبتها ، وقد بدأ عليها الإصرار ، وتتجه إلى باب الشقة لتخرج ! .

وما يكاد يراها تفعل ذلك ، حتى ينقلب وحشا ، ويسرع إلى اعتراض سبيلها ، ثم يقبض على ذراعها بقوة ، ويقودها إلى الغرفة بقسوة ، وهو يصرخ فى وجهها قائلا :

— لن تخرجى من هذا البيت أبداً . . وستعيشين فيه . . رضيت أم كرهت ! .

وحاولت أن تخلص ذراعها من قبضته المتشنجة ، وهى تنظر إليه نظرة مليئة بالازدراء والمقت ، ثم قالت له هازئة .

— أتسمى هذا الماخور بيتا ؟ ! إن الكلاب تأنف من أن تعيش فيه ! .

وجاءت أمه على صراخهما ، وتظاهرت بالدهشة مما سمعته ، ثم قالت لابنها مستنكرة وهى تتكلف الغضب :

— لا . . لا يافؤاد ياابنى . . إن مافعلته لايليق بك ! وفوزية لاتستحق أن تعاملها بمثل هذه القسوة ! .

وأمسكت بيدها برفق ، وابتعدت بها عن زوجها قليلا ، وأخذت تربت على ظهرها ، متظاهرة بالعطف عليها . ثم بدأت تنصحها بالامتثال لأمر زوجها وعدم مخالفته ، وتؤكد لها أن ماحدث منه ، لم يدفعه إليه إلا شدة حبه لها ، وخوفه من فراقها ! ولكنها لم تنخدع بكلامها المعسول ، ولم تستمع لنصحها الكاذب ، وقالت لها ساخرة :

— لقد كرهت هذا البيت ولم أعد أطيق البقاء فيه ، ولا بد لى من أن أعود إلى والدى .

وانفجر فؤاد يضحك ضحكة عالية بدت لها نواجذه ، وبان الخبث على صفحة وجهه المحتقن ، وظهر لؤمه الذى كان يحاول أن يخفيه فنمت عليه نبرات صوته وهو يقول :

— إنك لن تستطيعى العودة إليهما ، أو الإقامـــة بينهما بعد الذى حدث ! .

ولم تفهم هى مايرمى إليه بهذا الكلام الغريب ، وحاولت أن تخفى عنه دهشتها ، وأن تتظاهر بعدم المبالاة وهى تقول :

ـ دعك من هذه الألاعيب ، فلم تعد تنطلى على ، ولن يمنعنى من العودة إليهما شىء ! .

ولمعت عيناه ـ فجأة ـ لمعانا غريبا ، وأخذ يحملق فيها باستخفاف ، دار ليخرج من الغرفة بسرعة وهو يقول :

ـ ستری ! .

ولم يغب سوى لحظات قصيرة ، عاد بعدها وفى يده رزمة صغيرة من الورق ، قدمها إليها وعيناه لاتزالان تلمعان وتومضان ومضات مخيفة ، كأنهما عينا ذئب خبيث ينظر إلى فريسته ، وقال :

— إذن خذى هذه الصور وأمعنى النظر فيها . . وسوف ترى بعد ذلك هل ستظلين مصرة على الخروج أم ستعدلين ؟ .

وأمسكت بالصور وهى مترددة ، وما كادت تلقى النظر على بعضها، حتى ذعرت ، وبهت وجهها ، ثم هبت واقفة وقد غلى الدم فى عروقها، وألقت بها فى وجهه وهى تصرخ بكل مافيها من حقد ، صراخا مدويا ، كأنه طلقات مدفع :

ـ ياجبان . . يانذل . . لقد قضيت على ! .

ولم تستطع أن تقول أكثر من ذلك ، فقد شعرت ـ بعد أن رأت تلك الصور التى أخذت لها خلسة ، لتظهرها ـ عن قصد ـ فى أوضاع مخجلة مع بعض الرجال ـ باحتقار شديد لنفسها ، وبكره عظيم لحياتها، وأحست بساقيها تتخاذلان ولا تقويان على حملها ، فسقطت على المقعد كالمغشى عليها . وأخفت وجهها الشاحب بين ذراعيها ، لكيلا ترى ذلك المجرم السافل الذى كان يقف بالقرب منها ، ينظر إليها والشماتة تطل من عينيه ، وابتسامة الفوز الرخيص تعلو شفتيه ! .

وقضت ليلة سوداء رهيبة ، وكان سوادها يزداد رهبة كلما تصورت نفسها وهى تقضى لياليها القادمة فى هذه البؤرة القذرة ، متنقلة بين أحضان مجموعة من السكارى ، كما يتنقل الثوب الخلق بين بائعى الثياب البالية ، أو مرغمة على تلقى لمساتهم الوقحة ، كما يتلقى الفارس الصريع طعنات عدوه الجبان !.

ومات منذ ذلك اليوم قلبها ، وماتت بموته أحاسيسها الرقيقة ، ومشاعرها النبيلة وجرفها التيار ، فانغمست فى أدران الرذيلة حتى أذنيها ! ولم تعد تؤمن بطهارة الحب أو بقدسية الزواج ! وأصبحت هذه المعانى فى نظرها وهم خادع وسراب ! ولم تعد ترى فى نفسها شيئا سوى أنها امرأة فقط . . امرأة جميلة وجسد مثير ! وأن هذا الجسد لم يخلق إلا لشىء واحد . . هو أن يلبس ، ويتزين ، ويفتن الرجال !

ومضت شهور عديدة ، وهى تعيش فى ذلك المستنقع ، ميتة ، أو شبه ميتة ! تسهر الليل كله مع زميلاتها البائسات فى خدمة الشيطان وتنام فى الصباح وهى منهوكة القوى ، مصفرة الوجه ، ذابلة العينين .

ولم يكن يساعدها على احتمال حياتها الجديدة سوى الخمر والدخان ، فأدمنتهما ! وكانت الخمر فى نظرها نوع من السم البطىء يساعدها على التخلص من هذه الحياة التى تمقتها . وكان يخيل إليها وهى تنفث الدخان من فمها بكثرة . . أنها تنسج من خيوطه الرمادية الكثيفة ستارا تغطى به ما يحيط بها من أقذار !

ولم تستطع صحتها الرقيقة أن تحتمل مافرضته عليها حياتها الصاخبة – من كثرة الشرب وطول السهر – فأصابها الإعياء، وظهر عليها الضعف. وكان من الممكن أن يزول مابها سريعا ، لو أنها نالت شيئا من الراحة ، أو لزمت الفراش بضعة أيام، ولكن جشع صاحبة البيت كان يضطرها إلى مغادرة الفراش – كلما جاء زائر .. ولم تجد من تقدمها له من الزميلات ! .

ولكنها عندما رأت مابدا على وجهها من ذبول ، وما ظهر على جسمها من هزال ، لم تجد بدا من أن تشير عليها باستشارة طبيب ، ولم تكن تصدر فى ذلك عن حب لها ، أو شفقة عليها ، وإنما كان الدافع إليه هو خوفها من أن يثقل عليها المرض ، وأن يتمكن منها الداء ، فتفقد موردآ هاما من موارد كسبها الحرام ! .

وذهبت إلى عيادة الدكتور حسام إسماعيل ، بناء على نصيحة زميلتها كوثر ولم تكن تعرف مايخبئه لها القدر ، ولم تكن تظن أن هذه الزيارة ستكون بداية مرحلة جديدة من مراحل حياتها ! فمنذ اللحظة الاولى التى قابلته فيها ، أحست من دقته الشديدة وهو يفحص جسمها ، ومن لهجته الرقيقة وهو يحدثها عن مرضها ، ومن تواضعه وهو يصف علاجها ، أنه ليس طبيبا بارعا فقط ، ولكنه إنسان قبل كل شىء ، إنسان نبيل بكل مافى هذه الكلمة من معنى ! .

وزارته بعد ذلك عدة مرات ، وكانت فى كل مرة تزداد إيمانا

نبل نفسه ، ورقة إحساسه ، وكان يداخلها — أحيانا — شعور خفي — كلما رأته — بأن شيئاً ما غير براعته فى الطب ، ومهارته فى العلاج ، يجذبها إليه ، ويحاول أن يربطها به ! ولكنها — مع ذلك — لم تكن تتوقع أن تقابله فى غير عيادته ، أو أن تجلس معه فى مكان عام ، ثم تواعده على اللقاء ! .

وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة عندما وصلت إلى المنزل ، وبدأت تضع قدمها على سلمه الأبيض لتصعد إلى مأواها ، وحين وضعت المفتاح فى ثقب الباب ، كان قد استقر رأيها على أن لاتذهب إلى ذلك الميعاد ، وعلى أن لاتحاول رؤيته بعد اليوم ! .

ولكنها كانت ماتكاد تجد نفسها وحدها فى الغرفة - بعد أن يخرج آخر زائر من زائرى الليل - وتلقى بنفسها متهالكة على الفراش ، لتريح جسمها المكدود ، حتى تذكر الدكتور حسام ، وتذكر لقاءها به ، والموعد الذى ضربته له ، ثم تأخذ فى المقارنة بينه وبين أولئك الذئاب الذى يسعون كل ليلة إلى هذا البيت ، يفقدون فيه آدميتهم ، ويمتهنون إنسانيتهم ، ولايفارقونه إلا عند طلوع النهار ، وأكتافهم مثقلة بالذنوب والأوزار ! فتحس بالفارق الكبير بينه وبينهم ، وتسعد كل السعادة .. وهى تتخيله أمامها ، يحدثها ، ويبتسم لها ، ويلح فى طلب لقائها ! ثم تغمض عينيها على صورته ، وتنام لتحلم به ، كما تفعل الفتيات المتعطشات للحب ، وهن فى بداية عهد الشباب ! .

ولم تعرف وهى تستيقظ من نومها ظهر يوم الجمعة ، من أين جاءتها كل تلك البهجة التى تحس بها ؟ ولكنها أدركت وهى تدلف إلى الحمام بنشاط لم تعهده فى نفسها من قبل لتغتسل ، ثم وهى تستمع إلى صوتها يتردد صداه فى أنحائه وهى تترنم بتلك الأغنية العاطفية التى تتحدث عن حلاوة اللقاء ، أن تلك البهجة التى تملأ نفسها وتشيع فى أرجاء جسمها . . مبعثها ذلك الوعد التى كانت تظن أنها لن تفى به ، وأن ذلك النشاط لم يكن إلا لأنها تود أن لا تقابله إلا وهى نقية ، وبعد أن تزيل عن جسمها كل ماعلق به فى الليالى الماضية من أدران !

ولم تحاول ـ وهى تتزين ـ أن تبالغ فى وضع ما تعودت أن تضعه على وجهها من مساحيق ومعاجين، بل تعمدت أن لا تضع منها إلا القليل وأن لا تلبس من الثياب إلا أبسطها ، حتى لقد عجبت حين التفتت إلى المرآة ، وهى تهم بالخروج ، حين شاهدت نفسها تبدو فيها ـ لأول مرة منذ وطئت قدمها ذلك البيت — فى صورة امرأة فاضلة ، وليست غانية من الغانيات ! .

وشعرت بقلبها يخفق بشدة عندما وقع نظرها عليه وهى تدخل من باب المحل الكبير ، ووقفت لحظة وقد بدا عليها التردد ، ولكنها لم تلبث أن تقدمت ، حين رأته ينظر إليها من مكانه — وعلى وجهه ابتسامة وضاءة ، وفى عينيه عتاب رقيق ! .

وأحست من يده وهو يصافحها بحرارة ، ومن عينيه وهما

يحدقان فيها بشوق ، كأنه يود أن يعانقها ، أو أن يحملها بين ذراعيه ويطير ! .

وحدثها فى هذه المرة كثيراً عن نفسه ، فعرفت منه أنه — على الرغم من شهرته ، ونجاحه فى عمله — لا يشعر بالسعادة ، ولا يحس بالاستقرار ! خصوصا بعد أن ماتت زوجته — منذ عامين — وتركت له طفلة وحيدة فى الخامسة من عمرها . . وأن هذه الطفلة الصغيرة أصبحت منذ رحلت أمها سلواه الوحيدة التى تملأ بوجودها فراغ حياته ، وأمله الكبير الذى يعيش من أجله ، وأن اللحظات القليلة التى يختلسها من عمله ليقضيها معها هى وحدها التى تنسيه ما يحسه فى عمله من تعب ، وما يشعر به فى وحدته من تعاسة ! .

وراعها ما بدا على وجهه من حزن وهو يفضى إليها بدخيلة نفسه ، وما شعرت به فى حديثه من شجن وهو يبثها شكواه ! ولم تدر بنفسها وهى تمد يدها لتربت على يده مواسية فى حنان بالغ ! ولكنها أحست بالحرج عندما شعرت بيده وهى تمسك بيدها ، وتضغط عليها برفق ، ليعبر لها عن شكره وتقديره لعطفها . وحاولت أن تسحب يدها بلطف ، ولكنه لم يمكنها من ذلك ، وظل ممسكا بها ، وعيناه تحدقان فيها ، وترجوانها أن لا تحرمه من هذه السعادة !

ولم تدر بالوقت الذى مر سريعاً ، إلا عندما رأت الموائد المحيطة

بها تكاد تخلو من الجالسين حولها، فأدركت أن الوقت سرقها. ونظرت إلى الساعة فإذا بها قد تجاوزت العاشرة ! وظهر على وجهها القلق وهى تتأهب للرواح ، وآلمه مارآه فى حركاتها من اضطراب ، وأدرك ماهى فيه من حرج ، وبدا فى صوته الأسف وهو يحاول أن يعتذر لها ، وأن يؤكد لها أنه لم يتعمد تأخيرها ، وإنه لذلك يرجوها أن تسمح له بأن يوصلها إلى البيت بسيارته ، لكى يعوض بعض ماضاع من وقتها بسببه ! ولكنها اعتذرت بلطف ، وأصرت على أن تعود وحدها إلى المنزل ، بعد أن وعدته باللقاء فى الجمعة التالية .

ولما وصلت إلى البيت كانت السهرة فى بدايتها ، وكان الزوار قد بدأوا يفدون !. وبادرتها حماتها وهى متجهمة الوجه ، بالسؤال عن سبب تأخرها ؟ فادعت أنها كانت تشاهد المعروضات فى بعض المحلات وأنها شعرت بالتعب فاضطرت إلى دخول أحد المشارب لتستريح . ثم تركتها ودخلت مسرعة إلى غرفتها وهى تتظاهر بالتعب ، وبالحاجة إلى الراحة . . وقد عزمت على أن تحتفظ بطهارتها هذه الليلة . . فلا تقابل ضيفاً ، ولا تشرب خمراً ، ولا يدنس جسمها إنسان ! .

ولم يعد يوم الجمعة يوما عادياً كغيره من الأيام ، بل أصبح يوماً جميلا تنتظره بشوق ، وعيداً سعيداً تتمنى معه لو أن أيام الأسبوع أصبحت كلها يوم جمعة ! !

وكانت كثيراً ما تسأل نفسها كلما ذهبت للقائه . . عن جدوى

ذلك اللقاء الذى تكرر حتى أصبح ضرورة لايمكنها الاستغناء عنها ! وعن مدى تلك العلاقة التى لاتستطيع أن تتنبأ بنهايتها ؟ إنها تحبه مافى ذلك شك ، بل إنها تحس ـ كلما لقيته ـ أن ذلك الحب يزداد قوة يوما بعد يوم ! .

وهى لاتشك أيضا فى أنه يحبها ، بل إنها واثقة من أنه يحبها بوله ، وأنه يريد الزواج منها ! وهو ـ وإن لم يطلب ذلك منها بصراحة ، لكنه كان كثيرا مايشير إلى تلك الرغبة ـ وهو يحدثها عن الفراغ المخيف الذى يحس به ، وعن الحسرة الشديدة التى تعصر قلبه كلما رأى زوجين سعيدين ! وعن الشقاء الذى يطالعه كلما عاد إلى بيته فلا يجد من يهتم به أو يحنو عليه ! ولكنه ـ مع شدة حبه ـ كان نبيلا كل النبل ، بل كان خياليا فى حبه ، أفلاطونيا فى هواه ! فلم يطلب منها متعة كما يفعل كل الرجال ، ولم يسألها شيئا مما يسأله المحبون ! بل إنه لم يكن يعرف سوى إسمها ، ولم يحاول قط أن يعرف طرفا من حياتها ، أو يدفعه الفضول إلى سؤالها عن أسرتها ! كانت هى كل مايهمه ، وكان حبها هو كل مايشغل باله . . ويريد أن يتأكد منه ! ويوم سمحت له بأن يمشى معها إثر كل لقاء ، ليوصلها إلى أول الطريق الذى تقطن فيه ، عد ذلك مكرمة منها . . وفوزا أى فوز !!

ولم تكن تجد لهذه الأسئلة التى تدور فى رأسها جوابا ، أو تعرف لها من هذه المشكلة مخرجا ! وقد فكرت مرارا فى أن تقطع علاقتها به ، وأن تهجره ! ولكن هذه الفكرة كانت تبعث الرعب فى نفسها ،

وترى أن من المستحيل عليها تنفيذها . . بعد أن تغلغل حبه فى قلبها !
وفكرت كذلك فى أن تدفعه هو إلى الابتعاد عنها . ونبذها . . بأن تواجهه بحقيقتها المرة ، وأن تعترف له بسرها الرهيب وبما يكتنف حياتها من دنس وفجور ! ولكنها أشفقت عليه من هذه النهاية المؤلمة ، ولم يطاوعها قلبها على أن تحطم قلبه بهذه الطريقة البشعة !! .

وأعياها الأمر ، فاضطرت إلى الاكتفاء من التفكير بالرضا بما هى فيه ! وتركت للمقادير وحدها إيجاد المخرج من هذه المشكلة ، وحلها كما تشاء !

وكانت قد نسيت فى غمار هذا الحب أشياء كثيرة ما كان يجب عليها أن تنساها ، وغفلت عن أمور خطيرة كان من الخطأ أن تغفل عنها . نسيت أن لها . . زوجا ! وأن هذا الزوج - وإن كانت لا تعترف به - يعيش على ما تكسبه من بيع جسدها ، وهو لذلك يعد خطاها ، ويراقب حركاتها ! ونسيت أن وراء هذا الزوج أما أشد منه فسادا ، وأن هذه الأم جعلت من ابنها .. ديوثا ! ومن بيتها سوقا للرذيلة ! وهى لن تدعها تمشى على هواها ، أو تسمح لها بالخروج على النظام الذى تسير عليه ! خصوصا وهى تراها تعتذر عقب عودتها - كلما خرجت - عن مقابلة الزائرين ، وعن ممارسة عملها المشين ! كما غاب عنها أن هذين المجرمين لن يتركاها تهنأ بحبها ، وأنهما سوف يحولا بينها وبين الاستمرار فى هذا الحب الذى قد يفقدهما السيطرة عليها ! .

لذلك لم يكن عجيبا أن تفاجأ - في يوم من الأيام - وهى تدخل إلى البيت . . برؤية زوجها وهو يعترض سبيلها ، ليسألها وعلامات السخرية ظاهرة على وجهه : أين كانت ؟ وما سبب تأخرها ؟ وحين حاولت أن تختلق له عذرا - كما تعودت - رأته يضحك ضحكة صفراء ، وهو يقاطعها قائلا :

— لالا يازوجتى العزيزة . . لاتكذبى !، فقد انكشف سترك ، وعرفنا سر خروجك،ورأيتك بعينى رأسى وأنت تسيرين مع عشيقك الجديد . ثم قهقهة بصوت ضخم وقال لها ساخرا :

— لماذا لا تأتين به إلى هنا ؟ فينعم هو بغرامه ، ونستفيد نحن بماله بدلا من السير فى الطرقات كما يفعل السذج من العشاق !

وثار غضبها وهى تسمع هذا الكلام ، ولم تتمالك نفسها ، فصاحت فيه ، وهى تنظر إليه باحتقار شديد :

— ياقذر .. إن هذا الإنسان أشرف مما تظن ، وهو ليس حيوانا مثل تلك الحيوانات التى تعرفها ويهدرون كرامتك بمالهم !

ثم دفعته بيدها دفعة قوية لتبعده عن طريقها ، وأسرعت إلى غرفتها فدخلتها واغلقت الباب خلفها ، وصيحات السخرية ، وضحكات الاستهزاء من فؤاد وأمه ، ماتزال تلاحقها ، وتزيد من غضبها !

وعلى الرغم من أن الهدوء قد ساد بينهم فى الأيام التالية ، إلا أنها

كانت تحس من خلال النظرات الساخرة التى كانا يوجهانها إليها ، والعبارات اللاذعة التى كانت تسمعها . . أن هذا الهدوء هو الذى يسبق العاصفة ! .

وعندما استيقظت قبيل الظهر كالمعتاد فى يوم الجمعة ، وخرجت من غرفتها ، رأت الأم وابنها يجلسان جنباً إلى جنب ، والسكون يخيم عليهما ، وعيونهما متجهة إلى باب غرفتها . . أدركت أن العاصفة على وشك أن تهب ، وأنهما يتحفزان للمعركة !

وتكلفت الهدوء وهى تلقى إليهما التحية ، ولم تنتظر إلى أن تسمع الرد ، بل تركتهما ودخلت لتغتسل ، غير آبهة بما بدا فى عيونهما من تحفز ، ولا مبالية بما سوف يحدث ! .

وما كادت تنتهى من لبسها ، وتتم زينتها ، حتى سارعت إلى باب الشقة لتخرج ، ولكنها وجدت زوجها يقف بالقرب منه ، ويحول بينها وبينه ، وهو عابس الوجه ، مقطب الجبين ! .

ولم تدهش لوقوفه ، ولا لما رأته من عبوسه ، ولم تتراجع ، بل تقدمت حتى أصبحت فى مواجهته ، وطلبت منه أن يتنحى عن الباب لكى تخرج ، ولكنه رفض أن يتزحزح عن مكانه ، وهددها بالإيذاء إذا لم تعد إلى غرفتها . فلم تهتم بتهديده ، واندفعت إلى الباب بسرعة لم يكن يتوقعها ، وفتحته وخرجت ، وهو يجرى وراءها ، ويحاول أن يردها . ولكنها كانت أسرع منه ، ونزلت السلم قفزا ، دون أن

تلتفت إليه ، أو يرهبها ماسمعته من تهديده لها بالضرب ، ولخيبها بالذبح والقتل .

وسارت فى الطريق وهى فى أقصى حالات الضيق ، وكان دمها يفور كلما فكرت فيما حدث بينها وبين زوجها ، وفيما سوف يحدث !. فقد كانت على يقين من أن ماحدث اليوم هو البداية ، وأن زوجها وأمه لن يقفا عند هذا الحد ، بل سوف ينغصان حياتها ، ويضيقان عليها الخناق ! ولكنها لم تكن تعرف ماذا تفعل . . أفتراها تفضى إلى الدكتور حسام بما حدث ، وبما تتوقع أن يحدث . ولكنها تعرف - مقدما - أنه لن يتركها فريسة لهذين الفاجرين ، وسيدفعه حبه العظيم إلى منعها من العودة إلى ذلك البيت الملعون ، وهى بذلك تعرضه للخطر ، وتجعله هدفا لانتقامهما ، خصوصا بعد أن عرف فؤاد بحبها له ، وبعد أن سمعت بأذنيها تهديده بقتله أو ذبحه ، وهى تفضل أن تموت ولا يمس شعرة واحدة من جسمه ! .

أم تراها تذهب إلى والديها ، وتدعى أنه قد حدث بينها وبين زوجها خلاف اضطرها إلى الالتجاء إليهما . ولكنها تعرف أيضا نذالة زوجها ، وتعرف أنه لن يعف عن أن يطاردها إلى هناك ، وأنه لن يتورع عن أن يكشف لهما السر الذى حرصت طوال تلك المدة على أن تخفيه عنهما إذا هى لم تخضع لإرادته ! .

وفكرت - أخيرا - فى أن تقصد أحد الفنادق البعيدة ، لتقيم فيه

بضعة أيام تختفى خلالها عن عيونهما إلى أن تجد لها حلا . ولكنها كانت تشعر بأنها ـ على الرغم من قذارة الحياة التى تعيش فيها ، وعلى الرغم من كثرة اختلاطها بأصناف مختلفة من الرجال ـ لن تجد فى نفسها الجرأة التى تجعلها تقدم على مثل هذه الخطوة ! .

كانت كل هذه الأفكار وغيرها تدور فى رأسها ، وتشغلها على طول الطريق ، حتى كاد رأسها أن ينفجر ! . ولكنها لم تكد تدخل إلى البهو الذى ينتظرها فيه حسام ، وترى وجهه السمح يطالعها من بعيد ، حتى نسيت كل شىء ، نسيت العاصفة التى هبت ، أو توشك أن تهب ، ونسيت الأفكار الكثيرة التى حيرتها ، والمخاطر العديدة التى كانت تخشاها . نسيت كل ذلك . ولم تعد تذكر سوى أنها ستلقى حساما وأن من حقه أن لا يعكر صفو لقائهما شىء مهما كان ! .

ونجحت فى إخفاء كل ما كان يعتمل فى نفسها من هموم ، وما كان يبدو على وجهها من حزن ، ولم يشعر ـ وهو إلى جانبها ـ بشىء غير ما تعود أن يشعر به فى كل لقاء ، من حرارة الشوق ، وروعة الحب ، وسحر المناجاة ! .

وكان يخالجها أحيانا . . وهى تراه يحدق فيها بشغف ، ويحدثها بهيام . . شعور قوى بأن تفتح له قلبها ، وتبثه خوالج نفسها ، وتطلعه على كل ماتخفيه فى صدرها من مخاوف . ولكن هذا الشعور كان يختفى بسرعة ، كلما نظرت إلى عينيه العميقتين ، ورأت بريق السعادة وهو

يطل منهما ، أو سمعت عبارات الحنان وهى تتدفق من بين شفتيه !» .

ولأول مرة تحس وهى تمشى حالمة إلى جانبه . . بعد أن خرجا إلى الطريق ، وقد تعلقت بذراعه ، وتشابكت أصابعهما .. أنها تود أن تعانقه ، ولا تريد أن تفارقه ! حتى بعد أن وصلا إلى المكان الذى تعودت أن تتركه فيه ! . فلم تستأذنه لكى تسير وحدها كما كانت تفعل ، - خوفا من أن يعرف محل إقامتها - بل تركته يواصل السير معها ، وهى تتمنى لو أن الطريق امتد بهما إلى آخر الدنيا !.

وعندما اقتربا من البيت ، وقفت ، ووقف معها ، وأخذت تنظر على ضوء المصباح القريب الخافت ، إلى ذلك البيت البغيض الذى ستأوى إليه ، نظرات مقت وازدراء شديدين ، وكأنها تنظر إلى الجحيم !.

ومضت لحظات طويلة ، ويدها فى يديه ، تحس بدفئهما ولا تشعر بالرغبة فى تركهما ، ولسانها مغلول لا يريد أن ينطق بكلمة الوداع بل - على العكس - كانت تتشبث ببقائه ، وترغب فى أن يظل بجوارها إلى الأبد .

وحانت منها التفاتة ، فرأت زوجها يخرج من باب البيت فجأة ، ويندفع إلى حيث يقفا !، فامتقع وجهها ،واضطرب كيانها ، ووجدت نفسها تجذب يدها بسرعة من يدى حسام ، وتدفعه بشدة طالبة منه الابتعاد ! .

وما كاد يبتعد عنها ، حتى كان فؤاد قد اقترب منها وهو فى أقصى حالات الغضب ، وصفعها صفعة قوية كادت أن تقع من قوتها ، ثم أمسك بها ، وأخذ يكيل لها الضربات وهو يصرخ قائلا :

— يافاجرة . . لقد تركته يهرب ! ولكنه لن يفلت من يدى وسوف ألحق به لأقتله وأحرمك منه ! .

ثم تركها ، وهرول ليلحق بحسام ، قبل أن يواريه ظلام الطريق ويخفيه عن عينيه !! .

وكانت هى فى أشد حالات الذهول من وقع المفاجأة وشدة الضرب . ولكنها حين سمعته يهدد بقتل حسام ، ورأته يجرى ليلحق به ، أفاقت من ذهولها ، واستعادت صوابها ، وأسرعت تعدو خلفه بكل قوتها حتى لحقت به ، وأمسكته ، محاولة منعه من مطاردة حسام ، ثم أخذت تستعطفه ـ وهى تبكى ـ وتتوسل إليه ، وقد بدأ عليها الذعر والفزع :

— دعه يذهب يافؤاد . . واقتلنى أنا . دعه يذهب فليس الذنب ذنبه وإنما هو ذنبى أنا ! دعه يذهب ، وافعل بى ماشئت ! .

ولكنه لم يستمع إليها ، ولم تزده توسلاتها إلا شراسة وإصرارا ، وأخذ يدفعها بشدة ، ويحاول أن يتخلص من يديها بعنف وهو يصيح فيها :

— دعيني يافاجرة ، سوف أقتله ، ولن تريه بعد اليوم !.

وزادها هذا الكلام حقداً عليه ، واستماتة في التعلق به والحيلولة دون ما يريد . كما استمدت من حبها الحسام ، ومن خوفها عليه قوة ، تدفع بها عن نفسها ، وتمنعه من الوصول إليه .

وعندما رأته لايكف عن تهديده ، ويكاد يفلت منها ـ بعد أن أشبعها ضرباً وركلا ـ انتابتها ثورة طاغية ، وأصابها جنون طارىء ، وأصبحت كاللبؤة التي تدافع عن أشبالها ضد عدو مغير ، ولم تدر بنفسها .. ولم تعرف من أين جاءتها تلك القوة الرهيبة التي جعلتها تطبق على عنقه بيديها المتوترتين ، وتنشب أظافرها في عروقه ، ثم تضغط عليه بقوة ، وهو يحاول بكل جهده أن يفلت من قبضتها ، ولكن يداها كانتا قد تحولتا إلى طوق حديدي ، كان يضيق على رقبته شيئاً فشيئاً ، حتى خمد نفسه ، وسكنت حركته ، وهوى إلى الأرض !

وظلت برهة طويلة ، وهي واقفة ، تحدق بذهول في جسمه الممدد عند قدميها . . وكأنها لاتصدق أن هذا الجسم الهامد هو الذي كان صاحبه منذ لحظة يهدد ويتوعد ! . ولم تكن تحس بشيء من الندم أو الأسف ، بل ـ على العكس ـ كادت أن تبصق عليه ! . وكان يداخلها شعور يشبه الراحة أو الغبطة لأنها استطاعت أن تنقذ حبيبها من شره ، وأن تطهر بقتله المجتمع من حشرة حقيرة كانت تعيث فيه فساداً !.

وكان بعض المارة قد بدأوا يتجمعون حولها ، ويحيطون بالجثة ،

وقد استولت عليهم الدهشة ، وبدا عليهم كأنهم يشكون فى أن تلك المرأة الصغيرة ، التى تشبه الحمامة الوديعة ، تستطيع أن تقتل ! .

ولم تحس بالرهبة أو الخوف ورجال الشرطة يقودونها إلى التحقيق ولم تحاول الإنكار عندما سألها المحقق عما إذا كانت هى التى قتلت زوجها ، كما لم تتلعثم أو تضطرب وهى ترد على أسئلته الكثيرة حول الدوافع والأسباب التى دفعتها إلى قتله ، بل كانت رابطة الجأش ، ثابتة الجنان ، وكانت إجابتها واحدة ، ومقتضبة ، على الرغم من تنوع الأسئلة : —

إنها هى التى قتلت زوجها . . لأنها ضاقت به وبالحياة معه ! وإنها وحدها المسؤولة عن قتله ، وإنه لم يشاركها فى قتله أحد أو يحرضها عليه إنسان ! .

وظلت محتفظة بثباتها أثناء نظر القضية ، وعندما انتهت محاكمتها ونطق القاضى بالحكم عليها بالسجن خمسة عشر عاماً ، لم تجزع ، ولم تفزع بل استقبلته بالهدوء والسكينة .. فقد كانت تنتظر ذلك الحكم ! وكانت تحس فى قرارة نفسها بأن هذا السجن لن يكون أسوأ من ذلك البيت الفاسد الذى كانت تعيش فيه ! وأن السجن هو المكان الوحيد الذى تستطيع جدرانه السوداء العالية أن تباعد بينها وبين ذلك العالم الملىء بالشرور ! وأنها ربما استطاعت فى وحدتها أن تجد نفسها ، وأن تعود إلى ربها .. وقد تساعدها خشونة السجن ، وحرارة العبادة ، على تطهير

روحها من دنس الماضى ، وعلى أن تظفر بعفو الله عن كل ما ارتكبته فى حياتها من خطايا ، وما أكرهت عليه من الإثم ! .

وعندما همت بركوب السيارة التى ستحملها إلى السجن ، وقع نظرها فجأة على وجوه ثلاثة ، كانت تتحرق شوقا إلى رؤيتهم ، وكان الألم الشديد يكسو تلك الوجوه الشاحبة ، والحسرة الكاوية تطل من عيونهم التى ملأتها الدموع ! .

ولم تستطع أن تطيل النظر فى هذه الوجوه الحبيبة ، وأغمضت عينيها وهى تجلس على مقعد السيارة الخشبى ، حتى لا ترى تلك الدموع الغالية ، التى كانت فى نظرها أشبه بحبات ثمينة من اللؤلؤ ، فى عيون أولئك الثلاثة الذين أحبتهم ولم يعد يربطها بالحياة سوى حبهم ، الأم ، والأب ، والحبيب ! .



ضحية

كان القطار الأسود الكثيب ، القادم من أقصى الصعيد ، يجرى فوق قضبانه الحديدية الصلبة ، والأرض تهتز من تحته ، وتئن من شدة وطئه ، وكانت عجلاته الكبيرة ، تطوى الأرض طيا ، وكأنها أقدام ضخمة لوحش خرافى رهيب ! . وكان دخانه القاتم الكثيف ، يتصاعد فى الهواء ، ويصل إلى عنان السماء ، كأنه أنفاس لاهثة ، من طول الرحلة التى يقطعها كل يوم ، فى ذلك الطريق الموحش الطويل ، دون كلل أو ملل ! . وكان صفيره المزعج يزمجر فى الفضاء ، ويمزق سكون الليل ، كأنه صرخات استغاثة ، من ثقل ما كان يحمله فى جوفه من أمتعة وركاب ! .

وكان متولى حسنين ، وشقيقته حميدة ، بعض من يحملهم هذا القطار وتزدحم بهم مقاعده الكثيرة ، وطرقاته الضيقة . . وكان هو يجلس القرفصاء ، وإلى جانبه أخته - وبجوارهما القفتين الكبيرتين ، المملوءتين بالزاد الذى أعدته لهما أمه - فى ركن مظلم من أركان العربة ، التى شاء له القدر أن يلحق بها ! . وعلى الرغم من ظلام العربة ، وضيق المكان - فقد كان يحس بالغبطة والسرور - لأنه استطاع أن يجد

لأخته ذلك المكان الصغير الذى يأمن عليها فيه ، بعد أن كادت تزهق روحه ، وهو يحاول الوصول إليه ، من شدة الضغط وهول الزحام!.

وكان الضجيج من حوله شديدا ، والناس يدفع بعضهم بعضا ، وهم يبذلون أقصى جهدهم للوصول إلى العربة ، والحصول على مكان يضعون فيه أقدامهم ! . وكان هذا الضجيج ، وذلك التزاحم ، يزيدان من إحساسه بالغبطة ، ويجعلانه يشعر بأنه كان أسعد حظا ، وأكثر توفيقا من كثير من أهل بلدته الذين فاتهم القطار ، أولم يستطيعوا أن يفوزوا مثله ، بمكان يجلسون فيه ، ويضعون فيه أمتعتهم الثقيلة ، وماأعدوه لهذه الرحلة الطويلة من زاد ! .

وشاعت فى وجهه ابتسامة عريضة من الرضا ، عند ماسمع جرس المحطة يرن إيذانا ببدء الرحلة ، وأحس بالقطار وهو يتحرك استعدادا للرحيل ! وتذكر فى هذه اللحظة يوم أن سافر هو إلى القاهرة - لأول مرة - وتذكر زميله - يومئذ - قرنى ، قرنى عبدالعليم .. ابن خالته ، الذى كان أول من أوحى إليه بفكرة السفر والنزوح من قريته الصغيرة ، الزاوية مركز أبوتيج ، حيث ولد وعاش ، طوال الثمانية عشر عاما التى مضت من عمره إلى القاهرة . . القاهرة الكبيرة التى كان يحدثه عنها قرنى كثيرا ، كلما عاد إلى القرية وجاء لزيارة خالته - أمه - والذى كان يستمع إليه حين يخلو به - فى الليل - بعد أن ينفض الزائرون ، وينام أهل الدار ، فيسحر عقله الصغير بما كان يصفه له من شوارعها الكبيرة ، وميادينها الفسيحة ، ومبانيها الشاهقة ، وأنوارها الساطعة ! ويلهب خياله الشاب ،

بما كان يحدثه به عن نسائها الفاتنات ، اللائى يسلبن عقول الرجال بجمالهن السافر ، وبما يضعنه على وجوههن الجميلة من مساحيق وأصباغ تزيدهن فتنة وجمالا ! ويثير أحاسيسه المتوترة بما كان يتفنن فيه من وصف بناتها الأنيقات ، اللاتى يجذبن أنظار الشباب بما ترتدينه من الملابس القصيرة الضيقة ، ذات الألوان البديعة ، التى تحدد معالم أجسامهن ، وتكشف الكثير من مفاتنها ، وتضفى على قدودهن رشاقة وخفة ، وتملأ أعطافهن تيها ودلالا ! .

وكان هو يصغى إليه وقد تعلقت عيناه بشفتيه المكتنزتين ، وفمه الواسع ، وتحولت كل حواسه إلى آذان مفتوحة ، تلتهم كل كلمة يقولها ، وكأنه يستمع إلى قصة لذيذة من قصص أبى زيد الهلالى أو الزناتى خليفة وغيرها من القصص التى طالما استمع إليها بشغف حين كان يرويها الشـــاعر العجوز ، على ربابته القديمة ، كلما قدم إلى القرية فى الموالد والأعياد ، وهو ملتف حوله مع أصحابه فى ذلك السامر الكبير ، الذى كان يقيمه صاحب المقهى الصغير القريب من الترعة ! أو فى دار العمدة الواسعة ، كلما استدعاه للاحتفال بزواج أحد أفراد أسرته الكبيرة ! حتى إذا تعب قرنى من طول الحديث وشعر بالحاجة إلى النوم ، وأوى إلى فراشه البسيط ، ظل هو يقظان ، يفكر فيما رواه له ، ويتخيل نفسه وقد سافر هو أيضا إلى القاهرة وعاش فيها ، ولبس الجلابيب الجديدة المختلفة الألوان والأحذية اللامعة

التى كان يحسد عليها ابن خالته قرنى كلما رآه يخب فيها ، ويختال بها بين أهل القرية ، وهو يسير مزهوا فى أزقتها الضيقة ! . ثم يمتد به الخيال . . فيرى نفسه يعمل مع أحد المقاولين المشهورين ، أو خفيرا فى مخزن كبير ، ويأخذ أجره نقودا كثيرة ، ينفق بعضها ، ويدخر بعضها الآخر ، ليشترى به لأخته الملابس الزاهية التى كانت تحلم بها ، وليحمل لأمه الهدايا المختلفة والحلوى اللذيذة كانت تتوق إليها ، وليوزع القروش الصغيرة على أطفال أسرته الذين يلتفون حوله ، ويتسابقون لاستقباله كلما عاد ، وعيونهم البريئة تفيض بشرا وسعادة كما كان يفعل قرنى ! .

وكان هذا الحلم يراوده كثيرا فى منامه ، خصوصا فى الأيام التى يكون فيها قرنى فى القرية ، وعقب أحاديثه التى لا تنتهى ، ولا يشبع هو منها عن القاهرة ومباهجها ، وعما فيها من دور السينما والمسارح ، وعن سهراتها الصاخبة ، ولياليها التى تمتد حتى الصباح ! .

تذكر ابن خالته قرنى . . زميله فى سفرته الأولى ، بعد أن استجاب لرجائه ، ورضى ـ بعد إلحاح شديد ـ أن يرافقه إليها ، وأن يساعده فى البحث عن عمل فيها ! وتذكر نفسه ـ بعد أن ركب وحده القطار واستقر فيه ـ وهو يبحث عنه بعينيه فيمن حوله من المسافرين ، ولكن الضوء الأصفر الخافت الذى كان ينبعث من المصابيح القليلة المتناثرة فى سقف العربة ، وزحمة الركاب ، وشدة التصاقهم ببعضهم ، وكأنهم أسماك كثيرة فى علبة ضيقة من الصفيح . . لم يمكنه من رؤيته !

وأخذ يوم ذاك يسأل نفسه . . ترى أين هو الآن ؟ واقشعر بدنه من الخوف . . حين خطر بباله أنه ربما لم يستطع الركوب فى ذلك القطار أو اللحاق به ! وهز رأسه - كأنما يريد أن يبعد عنه ذلك الخاطر المخيف - ولكنه لم يستطع ، وعاد يسأل نفسه مرة أخرى : ترى ماذا يفعل لو أن ابن خالته لم يركب معه فى هذا القطار ؟ وندم فى تلك اللحظة على أنه افترق عنه ، وعلى أنه عمل بنصيحته عندما طلب منه أن يعتمد على نفسه ، وأن لا ينتظر مساعدته ، وأن يركب القطار من أى باب ، وبأية وسيلة ! وها هو ذا قد أفلح فى ركوب القطار ، واستطاع أن يحتل مكاناً فيه ، ولكنه لا يرى قريبه قرنى ، فأين هو الآن ؟ إن القطار يجرى بسرعة فى طريقه إلى القاهرة ، فماذا يحدث له لو أنه وصل إلى القاهرة ، ونزل من القطار ، وبحث عنه فلم يجده ؟ ماذا يفعل — حينئذ — وهو لا يعرف عن تلك المدينة الكبيرة شيئاً سوى ما سمعه من قرنى ؟ وكيف يتصرف فى هـــذه الدنيا الجديدة الزاخرة بالناس ، وهو القروى الساذج ، الذى لم يسبق له الخروج من قريته ، ولا عهد له بمثل تلك المدن العظيمة؟ وإلى أين يذهب .. وهو لا يعرف فيها طريقاً يسلكه ؟ ولمن يلجأ . . وهو لا يعرف من أهلها أحداً يستضيفه ؟

وظل يومها يفكر كثيراً فى هذه المشكلة ، ويحاول أن يجد لها حلا ، والقطار الكبير ينهب به الأرض نهبا ، وأنفاس الناس المختلطة بدخان سجائرهم تملأ جو العربة ، ورائحة الأطعمة المخزونة التى يحملونها

فى أمتعتهم تمتزج برائحة العرق الذى يسيل من أجسادهم المرهقة تملأ خياشيمه ، وتحد من تنفسه حتى توترت أعصابه من كثرة التفكير ، وضاق صدره من عفونة الرائحة ، فهم بالنزول من القطار ، والعودة من حيث أتى ! ولكنه لم يستطع التحرك من مكانه ، وأرغمته شدة الزحام على أن يظل كما هو ، وعلى أن يستسلم لأفكاره ، وأن تلازمه هذه الأفكار فلا تفارقه إلا عندما يشفق عليه ملك النوم ، فتمتد أصابعه الرفيقة ، لتغلق عينيه ، وتلقى به فى سبات عميق !

ولم يستيقظ من هذه الغفوة إلا على صياح الباعة ، وهم يتادون على بضائعهم المختلفة ، بأصواتهم المزعجة ، التى كانت تصل إلى أذنيه من خلال نوافذ العربة المفتوحة عندما وقف القطار فى إحدى المحطات .

ودق قلبه ، وأسرع نبضه ، وهو يسأل أحد جيرانه عن إسم هذه المحطة ؟ ولم يهدأ أو يطمئن إلا عندما تأكد أنها ليست القاهرة ! . وعندما تحرك القطار أغمض عينيه ، وعاد إلى النوم من جديد ! ونام فى هذه المرة نوما عميقاً ، ولم تعد توقظه أصوات الباعة المزعجة ، وهم ينادون على بضائعهم كلما وقف القطار ! . لم يستيقظ إلا عندما أحس بشىء ثقيل يقع على كتفه ، ويكاد يقصم ظهره ! وخرجت من فمه آهة خفيفة وهو يمد يده ليتحسس موضع الإصابة ، وفتح عينيه ليرى ذلك الشىء الذى كاد أن يرديه ، فإذا بها قفة كبيرة سقطت

من بين يدى صاحبها ، وهو يحاول أن يرفعها ليخرجها من النافذة ! ورأى هرجا ومرجاً من حوله ، وعدداً كبيراً من الركاب يحملون أمتعتهم على أكتافهم ، ويسرعون بها إلى باب العربة لينزلوا منه قبل أن يتحرك القطار ! وعجب لذلك ، ولكنه لم يجرؤ على أن يسأل جاره فى هذه المرة عن إسم هذه المحطة التى يتسابق الناس إلى النزول فيها . . فقد كان يخشىء أن يقول له : إنها محطة القاهرة !

وظل برهة يتأمل فى الركاب الذين يغادرون القطار وهو لا يدرى إن كان لا بد له أن ينزل هو الآخر . . أم يظل جالسا حيث هو إلى أن يخرج جميع من فيه ! ولم تطل مدة حيرته هذه المرة فقد سمع أحد الركاب وهو يودع زميله ويقول له إنه لن ينزل فى محطة الجيزة هذه ، وإنما سوف ينزل فى المحطة القادمة .. فى القاهرة . واطمأن باله قليلا ، وهدأت نفسه لهذا الخبر الذى سمعه ولم يسع إليه !

وعندما بارح القطار المحطة ، كان الزحام قد خف كثيراً ، بعد أن نزل كثير من ركابه ، واستطاع متولى — عندئذ — أن يتحرك قليلا فى مكانه الضيق ، وأن يمد رجليه ، ويحرك ذراعية ، وأن يخرج من القفة قطعة كبيرة من الجبن القديم ، ورغيفاً سميكا من الخبز الجاف ، ويلتهمهما بسرعة ، ليسكت صوت الجوع الذى كان قد بدأ يحس به يعوى فى معدته الجافة الخاوية بعد أن قطع تلك المسافة الطويلة ، دون طعام أو شراب !

حتى إذا ما انتهى من طعامه ، حمد الله ، ومسح فمه بكمه الكبير ،

ثم أسند ظهره إلى أحد المقاعد ، وبدأ يفكر من جديد في ابن خالته قرني الذي اختفى عن ناظريه ، ولم يره طوال هذه الرحلة ! . وخطر على باله أن يقوم من من مكانه ، وأن يجوس خلال العربة ، لعله يعثر عليه ، ولكنه لم يكد يهم بذلك حتى عدل عنه ، فقد تذكر توصية ابن خالته له وهو يهم بركوب القطار ، ويشدد عليه في أن يحرص على أمتعته ، وأن لا يفارقها . واكتفى بأن يقف فقط ، وأن يمد عنقه ليحدق بعينيه في كل مكان يصل إليه نظره ، وفي كل شخص يقع عليه بصره ، ولكن نظره كان يرتد إليه في كل مرة وهو حسير ! . ومكث في وقفته هذه مدة طويلة ، وهو يدور بعينيه التائهتين في جميع أنحاء العربة ، بحثا عن قرني ، إلى أن أحس بالقطار وهو يهدىء من سرعته ، ورأى جميع من فيه وهم يقومون من مقاعدهم ، ويجمعون أمتعتهم ويستعدون للنزول ، وأدرك ـ عندئذ ـ أن القطار يدخل إلى محطة القاهرة .. المحطة الأخيرة في هذه الرحلة ! وعرف أن اللحظة الرهيبة التي كان يخشاها قد حانت ، وأنه لامفر له من النزول من القطار ، ومواجهة المشكلة وحده إذا لم يرحمه القدر ـ ويدركه قريبه قرني ـ لينقذه من هذه الورطة ! .

ووقف القطار ، ونزل جميع من فيه ، وهو يتابعهم بنظره الذي تعب من كثرة البحث والتحديق ، ولم يبق فيه إلا هو ! واقترب من باب العربة ، وأطل منه على ساحة المحطة ، فهاله مارآه من سعتها

وضخامتها ، وأدهشه ما تعج به من القطارات ، وما تزدحم به من أصناف الناس ، وتردد قليلا قبل أن يضع قدمه على سلم العربة ، ولكن تردده لم يطل . . حين وقع نظره على العربة الخالية . ونزل وهو يحمل قفته الثقيلة وحده ، ودون أن يستعين بأحد من الحمالين ، ووضع القفة على الرصيف الكبير ، ووقف بجانبها دون حراك ، وجعل ينظر إلى المحطة ، وإلى الناس وهم يروحون ويجيئون ، بعينين تكادان تخرجان من محجريهما ، وقد ارتسمت على وجهه الأسمر علامات القلق الممزوج بالدهشة والإعجاب ! . وأنسته الحركة العظيمة التى رآها فى المحطة قريبه الذى يبحث عنه ، والخوف الذى كان يسيطر عليه ، حتى إنه لم يشعر به وهو ينادى عليه ، لم يشعر به إلا وهو يضع يده على كتفه ، ويهزه ليلفت نظره إليه ! وكانت مفاجأة عظيمة ، لم يكن يتوقعها ، فأقبل عليه يضمه ، ويقبله بلهفة ، وكأنه لم يره منذ سنوات ! .

ولم يخب ظنه فى ابن خالته ، فقد اهتم به كل الاهتمام ، ولم يفارقه بعد ذلك لحظة ؛ ونام معه فى بيته تلك الليلة ، وفى الصباح الباكر أخذه معه إلى حيث يعمل ، وقدمه إلى صاحب العمل ، وزكاه لديه ، فرحب به الرجل ، وضمه إلى عماله .

وأقبل على العمل - على الرغم من خشونته - بهمة ، وساعده شبابه ، وحسن خلقه ، وما يراوده من أمل ، على الفوز بإعجاب رب العمل ، وحب زملائه ! وكان فرحه عظيما عندما تناول أجره

الاول ، وأحس وهو يضمه فى منديله ، ويطويه عليه بحرص شديد ، كأنه يضع حجر الأساس فى مستقبله السعيد ! .

وعاش مع ابن خالته فى غرفته البسيطة ، وقاسمه طعامه وفراشه ، وكان يعطيه من أجره ما فرضه عليه ، ويدخر الباقى ، وكان حريصاً على أن لا تمتد يده إلى مايدخره . ولم تمض شهور حتى كان قد تجمع لديه مبلغ كبير . وعندما عرض عليه قرنى فكرة السفر لزيارة أمه ، وافق وهو يكاد يطير من شدة الفرح ! وأسرع إلى السوق ، واشترى لأمه وأخته من الهدايا والثياب ما كان يحلم بشرائه لهما،وما كان يتصور أنه سيدخل السرور عليهما.وركب القطار وقلبه يكاد أن يقفز من بين ضلوعه شوقا لرؤية أهله وبلده ، وعلى الرغم من أن القطار كان يجرى بأقصى سرعته ، فقد كان يخيل إليه أنه لا يسير ! . وكان يتمنى لو أنه أغمض عينيه وفتحهما ، فيرى القطار واقفا فى محطة القرية الوادعة ، ويرى نفسه بين أحضان أمه ، ومن حوله أفراد أسرته يتنافسون على رؤيته ، ويتأملون فى ملابسه الجديدة ، ويدهشون لما طرأ عليه من تغيير ! .

وصدق حدسه،فلم يكد يقف القطار ،ويراه من فى المحطة من أهل البلدة حتى أقبلوا عليه ، وأحاطوا به ،ولم يتركوه إلا فى الدار . وحين رأته أمه أسرعت إليه ـ وهى تبكى من كثرة الفرح ـ وأخذت تضمه إلى صدرها بقوة ، وتغمره بقبلاتها الحارة ، ولم تتركه إلا عندما انتزعته منها أخته حميدة ، لتتأمل فيه لحظة ، من قمة رأسه إلى

إخمص قدميه – وكأنها لا تصدق أنه هو متولى شقيقها – ثم تلقى بنفسها عليه ، وتقبله ، وهى تهنئه بسلامة الوصول !.

ولم تخل داره من الزائرين طوال المدة التى قضاها فيها ، ولم تنقطع أحاديثهم عن الإعجاب به ، وتقديرهم له ، وكانت عيون أصدقائه ولداته تطل منها الغيرة والحسد – على الرغم منهم – كلما رأوا ما حمله معه من الهدايا ، وما كان يلبسه من الثياب !.

ولم تطل مدة إقامته فى البلدة ، فقد كان لابد له من أن يعود إلى القاهرة ، ليعمل ، وليكسب نقوداً كثيرة يستطيع أن يحقق بها آماله العريضة ، ويشترى بها هدايا أكثر لأمه وأخته !.

وتكررت بعد ذلك زياراته لقريته ، وتعددت هداياه وتنوعت.. وكان فى كل مرة يذهب فيها إليها يكون موضع الإعجاب، ومحط الأنظار!.

وهاهو ذا اليوم يعود إلى القاهرة.. وفى نفس القطار ، بعد أن قضى عدة أيام بين أهله وصحبه . ولكنه لا يعود إليها فى هذه المرة قلقاً خائفاً ، كما كان يفعل، بل يعود إليها اليوم وهو مطمئن كل الاطمئنان.. واثق من نفسه غاية الثقة ، لا يحس بالخوف من الضياع .. ولا يجزع لأنه قد لا يجد قرنى معه فى القطار ! وهو اليوم لا يهاب القاهرة – بعد أن قضى فيها قرابة السنتين – ولا يخشى من أن يضل فيها . إنه الآن يعرف القاهرة حق المعرفة ، ويعرف الكثير من أحيائها وطرقاتها .. وله فيها أصدقاء كثيرون ! بل إنه لا يعود إليها اليوم وحده .. وإنما يعود ومعه أخته ، أخته حميده .. حميدة الصغيرة التى لم تبلغ بعد



يعود ومعه أخته، أخته .. حميدة حميدة الصغيرة ..

السابعة عشر من عمرها ، جاءت معه والدنيا لا تكاد تسعها من شدة الفرح ، وهي — حتى الآن — لاتكاد تصدق أن أمها قد وافقت على سفرها ، وعلى أن تعيش معه في القاهرة ، بعد أن كانت تعارض أشد المعارضة ، خوفاً عليها من القاهرة وعما فيها من شرور ! . وهو أيضاً جد سعيد لوجود أخته معه ، فهو لن يتعب — منذ اليوم — في إعداد طعامه ، ولن يضنيه البحث عمن يغسل له ثيابه ، ولن يعود إلى غرفته الصغيرة — بعد انتهاء عمله — فيجد التراب يغطى أرضها ، والفوضى تعم أثاثها ، والظلام الحالك يخيم على أرجائها ! ولكنه — بفضل أخته — سوف يعود فيجد طعامه جاهزاً ولذيذاً ، وفراشه مرتبا ونظيفاً ، وملابسه مغسولة ومطوية ، وحجرته منظمة ومنسقة ، وسيجد النور يضيء غرفته . . الغرفة الصغيرة التي عثر عليها بعد جهد كبير — منذ ترك السكنى مع قرنى — فوق سطح منزل قديم في حارة الجمال بحى الشرابية . وستملأ أخته هذه الغرفة حياة وبهجة ، ولن يشعر معها بالوحشة التي كان يضيق بها ، وتضطره إلى الخروج . ولن تحس هي بالغربة ، فسوف يعنى بها ويحرص على راحتها ، ويبذل أقصى جهده لكي يسعدها ويوفر لها كل ما تحتاجه ، بل إنه سوف يخصص لها يوم عطلته ، ليخرجا معاً إلى الحدائق والمتنزهات ، وليريها من معالم القاهرة ما لم تكن تحلم برؤيته ، وهو يرجو أن يكون لها أكثر من أخ ، ليعوضها من عطف أبيها الذى فقدته باليتم ، وحنان أمها الذى حرمته بالبعد ! بل إنه ليطمع في أكثر من هذا ، يطمع في أن يراها . . في يوم قريب — عروسا جميلة في ليلة

زفافها ، وفى أن يرى نفسه وكيلا عنها ، أو شاهداً فى عقد زواجها من ذلك الشاب الذى سوف يهتم بأختياره لها ، ليكون جديراً بها ، قادراً على إسعادها ! .

وهنا خطر على باله قرنى ابن خالته ، وصديق طفولته ، وتذكر كلماته الغريبة ، ووميض عينيه ، كلما تحدث عن حميدة ، أو جاء ذكرها فى حديثهما !

تذكر تلك الكلمات التى لم يكن يدرك لها معنى ، وذلك الوميض الذى لم يكن يلتفت إليه ! ، ولكنه الآن فقط ـ وحميدة بجانبه ، ينظر إليها بعمق ، ويراها ، وقد أصبحت شابة ناضجة ، ممتلئة أنوثة وحيوية ـ يدرك معنى تلك الكلمات ، ويعرف سر ذلك الوميض ! وانفرجت شفتاه عن ابتسامة صغيرة ، وهو يسأل نفسه : ترى هل يستحق قرنى هذه الدرة الثمينة ؟ وهل يعرف قدرها ويستطيع إسعادها ؟ .

ولمعت عيناه ، واتسعت الابتسامة الصغيرة حتى غطت وجهه ، حين وجد نفسه يجيب على ذلك السؤال الغريب بسؤال آخر أغرب : وهل هناك فيمن يعرفه من أصدقائه ، أو من شباب القرية ، من هو أحق بزواج حميدة ، وأقدر على إسعادها من ابن خالته قرنى ؟ !

وعندئذ قفزت إلى عينيه صورة سعدية ، سعدية أخت قرنى .. بنت خالته الجميلة التى لم يرها منذ وقت بعيد ـ منذ اليوم الذى حجبها

فيه أهلها ، وبعد أن بدأت تظهر على جسمها علامات الأنوثة ـ حسب تقاليد الصعيد ! وعاد بخياله إلى الماضى البعيد ، عندما كان يلعب مع سعدية ـ عروس أحلامه ـ أثناء الطفولة فى فناء داريهما ، كلما جاءت لزيارته ، أو ذهب هو لرؤيتها ! . لقد كبرت سعدية الآن وأصبحت عروسا ـ ولا شك ـ فهى فى مثل سن أخته حميدة . فلماذا لا يحقق الآن حلمه القديم ، فيطلب يدها من أخيها قرنى ، ولا يوافق على زواجه من أخته حميدة ، إلا إذا وافق هو أيضا على زواجه من سعدية ، وبذلك تتم سعادتهم جميعا !

وشعر بكثير من الاطمئنان لهذا القرار ، ورضى عن نفسه لأنها انتهت إلى هذا الرأى ، وأحس بعينيه وهما تتجهان ـ بلا إرادة ـ إلى حيث تجلس حميدة وقد استغرقت فى نوم عميق ، وتنظران إليها نظرات مليئة بالحب والحنان . ومكث لحظات طويلة وهو ينظر إليها ، حتى تراخت جفونه ، وثقلت رأسه ، وشعر بالنوم يدب إلى عينيه ، وكأنما انتقلت إليهما عدواه من أخته ، فاستسلم له ، ونام نوماً هنيئا !

وعندما استيقظ من نومه ، كان القطار يزحف ببطء شديد وهو يدخل إلى محطة القاهرة ، وقد علت أصوات الركاب ، واشتد ضجيجهم ، وأخذ كل واحد منهم ينادى على زميله ، وهو يجمع أمتعته ليستعد للنزول . والتفت هو إلى أخته فوجدها ما تزال نائمة وأسارير وجهها تنطق بالبشر ، وكأنها تحلم حلما سعيدا ! وتردد قليلا قبل أن يوقظها ـ شفقة عليها ـ ولكنه لم يجد مفرا من ذلك ، فدنا منه وربت عليها برفق ،

فتحت عينيها ونظرت إليه ، وقد أطلت منهما ابتسامة عتاب رقيقة ، كأنما تلومه على أنه أيقظها من حلمها السعيد ! . ولكنها لم تكد تسمعه يقول لها : إنهما قد وصلا إلى القاهرة ، وإنه أيقظها استعدادا للنزول من القطار ، حتى بدت على وجهها علامات الدهشة ، وندت من فمها صرخة تدل على الفرح العظيم ، ثم هبت من مكانها واقفة ، وهي تقول وكأنها لم تصدق ماسمعته :

— صحيح والنبي ياخوي .. صحيح وصلنا إلى مصر ؟! .

فلما أكد لها أن ماقاله صحيح ، كادت أن ترقص من شدة الطرب ، وأسرعت إلى النافذة لتطل منها ، وتمتع عينيها برؤية المحطة ومن فيها ، ولكن شدة الزحام حالت دون وصولها إليها ، فأخذت تتململ في وقفتها . وقد ظهر الضيق على محياها الجميل ! .

وحين نزلا من القطار ، وخرجت من فناء المحطة الكبيرة إلى ميدانها الفسيح ، ليركبا الترام الذي سيحملهما إلى البيت ، ورأت الناس وهم يموجون فيه كأنه خلية نحل ، وقد تعددت أشكالهم ، وتنوعت ملابسهم .. ظهرت على وجهها أمارات الدهشة . وعندما لمحت السيارات الفاخرة ، والأتوبيسات الضخمة ، وقطارات المترو الكبيرة ، وعربات الترام المليئة بالركاب ، وهي تدور وتلف حول الميدان ، وتخترق طرقاته العديدة ، بدت وكأنها طفلة صغيرة ترى – لأول مرة – لعبة جميلة لم تكن تحلم برؤيتها أو الحصول عليها ، وأخذت تهتف بحماس عظيم كلما مرت أمامها سيارة مسرعة ، أو اقترب منها أوتوبيس كبير ، تتوهم

أنه سوف يدهمها ، فتقفز كالعصفور المذعور ، وتتعلق بذراع أخيها ، وتشده بقوة ، لتنبهه أو تحذره ، وهى تقول بلهفة :

— شوف ياخوى . . حاسب ياخوى ! .

وكان هو يمشى إلى جوارها ساكتا ، ويراقب حركاتها بهدوء ، ولم يكن يحس بغرابة أو يشعر بضيق ، بل كان على العكس يحس بالسعادة ، ويشعر بالبهجة ، ويضحك بملء شدقيه . ويرى فيما تفعله حميدة الآن ، وما تشعر به . . صورة صادقة لما فعله هو وأحس به ، عندما رأى القاهرة لأول مرة ! .

ولكنه — مع ذلك — لم يستطع أن يمنع نفسه من الإحساس بالشفقة عليها ، عندما رأى شدة انفعالها ، وكثرة اضطرابها . ولا أن يبعد عن روحه الشعور بالخوف ، وهو يرى القفة التى تحملها توشك أن تقع من فوق رأسها ، من عنف اهتزارها ، فعدل عن فكرة ركوب الترام ، واستوقف سيارة أجرة (تاكسى) وضع فيها مايحملانه من زاد ومتاع ، ثم ساعدها على الركوب وهى تكاد تعثر ! .

وانطلقت بهما السيارة الصغيرة كالريح ، وهى تطل من نافذتها الزجاجية من حين لآخر ، لترى المحال الكبيرة التى تملأ جانبى الطريق التى تسير فيه ، فيأخذها العجب لكثرة هذه المحال وضخامتها ، وتستولى عليها الدهشة لما تشاهده فى واجهاتها من المعروضات الفاخرة ، التى رصت فيها بعناية تلفت الأنظار ، بل وتكاد تذهل من كثرة الأنوار التى تحيط بها ، وتعشى الأبصار بألوانها المتعددة ! .

وما كادت السيارة الصغيرة تصل إلى المنزل الذى يقطن فيه متولى ، فى ذلك الحى الشعبى المزدحم ، حتى نزلا منها ، وحميدة تعتمد على ذراع أخيها ، وصعد بها السلم ـ وهى على تلك الحالة ـ حتى وصلا إلى السطح ، ووقفا أمام الغرفة .

وعندما فتح متولى باب الغرفة الصغيرة التى يعيش فيها ، وأشعل المصباح الغازى القديم الذى يتدلى من سقفها ، ورأت محتوياتها البسيطة المتناثرة فى أنحائها ، أخذت تحدق فيها بشدة ، وكأنها لا تصدق أن هذه الغرفة ستكون مقرها الجديد ، وأنها سوف تتحول فيها من فتاة ساذجة من فتيات الصعيد ، إلى فتاة أخرى جديدة ، تشبه فتيات مصر اللاتى كانت تحلم برؤيتهن منذ أمد بعيد ! .

وشغلتها هذه الأفكار لحظة عن أخيها ، ولم تلتفت إليه إلا حين سمعته يقول لها بصوت ضاحك :

— واجفة ليه كده ياحميدة ؟ ماتجعدى . . الدار دارك .

ثم رأته يقترب منها ، ويمسك بيدها ، ليذهب بها إلى المقعد الخشبى الوحيد الموجود فى الغرفة ، وهو يقول :

— حمدالله على سلامتك يااختى . . الدار نورت بجدومك !

فضحكت ضحكة حلوة ، وقالت له وهى تنحى الكرسى ، ثم تجلس على الأرض وقد غضت بصرها حياء :

— الله يسلمك ياخوى . . النور نورك انت !

وجلس بجانبها . واستراحا قليلا ، ثم أكلا شيئا بسيطا مما زودتهما به أمهما من طعام . وعندما شعرا بالتعب يحل بهما ، إستلقيا على الفراش ، وأخذت عيونهما تحملق فى سقف الغرفة ، كأنما تريد أن تخترقه ، وبدأت أفكارهما تحلق فى سماء الخيال كأنما تريد أن تكشف الحجب لترى ما كتب لهما فى المستقبل من سعادة وهناء ، ولبثا على ذلك مدة طويلة حتى غلبهما النوم فناما إلى الصباح ! .

ولم يفارق متولى أخته طوال الأيام الثلاثة التالية ، وكانا يخرجان أحيانا لشراء طعامهما ومايلزم لحياتهما الجديده من أدوات ، ولكنه اضطر فى اليوم الرابع إلى الخروج وحده ، ليذهب إلى عمله الذى غاب عنه كثيرا ، ووصاها ـ وهو يخرج ـ بالمحافظة على نفسها ، وحذرها من الخروج وحدها ، أو الاتصال بأحد ! .

ومرت أيام كثيرة . . وبر متولى بالوعد الذى قطعه على نفسه ، فكان يأخذ أخته فى كل يوم من أيام عطلته للتنزه فى الحدائق والمتنزهات ، أو لزيارة الأضرحة والمساجد الكبيرة ، أو لمشاهدة معالم القاهرة وضواحيها ، ثم يعود بعد انتهاء اليوم وهى سعيدة كل السعادة ، مبتهجة أشد الابتهاج ! .

وانقضت شهور طويلة ، وحميدة لاتحس بانقضائها ، ولم يكن ينقصها فى حياتها الجديدة شىء سوى رؤية أمها ، ولم تكن الرسائل التى تصلها منها أو التى ترسلها هى إليها ، والتى كان يكتبها لها ابن خالتها

تقرنى كلما جاء لزيارتهما — وكثيرا ما كان يفعل — لتخفف من حدة الشوق ، أو تقلل من حاجتها إلى رؤيتها ! ولم يكن ذلك الإحساس غريبا ، فقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تفارق فيها أمها فراقا طويلا على هذا النحو . كما كان يضايقها أن ترى نفسها وحيدة فى غرفتها طوال النهار ، وأحيانا طول الليل — عندما يكون متولى غائبا فى عمله أثناء نوبة سهره — دون أن تزور أو تزار ! حتى جيرانها الأدنين ، لم تكن صلتها بهن تسمح لها بزيارتهن ، ولم تكن تزيد على تحية بسيطة كلما صعدت إحداهن إلى السطح ، أو ابتسامة عابرة كلما صادفتها على السلم ! .

ولم يكن متولى غافلا عما كانت تعانيه أخته من الوحدة . لذلك كان حريصا على أن لا يتأخر عن موعد عودته إلى البيت ، وعلى أن لا يلهيه عن سرعة رجوعه إليه شىء ، وكان إذا عاد وجد أخته فى انتظاره ، فتستقبله متهللة الوجه ، منشرحة الصدر ، وقد أعدت له طعامه وشرابه ، فيأكلان معا ، ويسمران قليلا ، حتى يحس بالحاجة إلى النوم فينام قرير العين ! .

ولكنه عجب ذات ليلة حين عاد إلى البيت ، فلم تلقه أخته بما اعتادت أن تلقاه به من البشر والابتسام ، ولم تنشط لخدمته كما كانت تفعل من قبل ، بل رآها مقطبة الوجه ، ثقيلة الخطو ! ولم يستطع السكوت ، وسألها عما لاحظه ، فاعتذرت بأنها تحس بشىء خفيف من الدوار ، وبقدر قليل من التعب لا تدرى سببهما ! فهون عليها الأمر ،

وأكد لها أن ما بها لايعدو أن يكون نزلة خفيفة من نزلات البرد . ونام في تلك الليلة وهو مطمئن إلى أن ما بها لاخطر فيه ، وأنه لن يلبث أن يزول خلال يوم أو يومين ! .

ولكن أياما عديدة مضت ، دون أن يزول ماتشكو منه أخته . أو يخف . . على الرغم من تناولها بعض الأدوية المسكنة والأشربة الساخنة ! وزاد عجبه ، وثار قلقه ، عندما عرف أنها لم تعد تشكو من الدوار والتعب فقط ، بل أصبحت تحس بالغثيان في أوقات كثيرة . وأنها قد فقدت شهيتها إلى الطعام ! .

واضطر إلى أن يخبر قرني بما تعانيه أخته ، فطمأنه قرني ، وزعم له أن ما بها شيء بسيط . وأشار عليه بأن يعرضها على طبيب المستوصف القريب من منزله . فاستنكر متولى أن يطلب منه ابن خالته - وهو صعيدى مثله - أن يعرضها على طبيب ، وعاتبه على ذلك ، فاعتذر له قرني ، وأخبره بأن في المستوصف طبيبة أيضا ، وأنه لاحرج عليه في أن يعرض أخته عليها . فسر من قوله ، وعمل بنصيحته ، وذهب في نفس الليلة بأخته - على الرغم منها - إلى المستوصف ! وعندما رآها تخرج - بعد قليل - ببطء من غرفة الفحص ، يبدو عليها الذهول والفزع ، أسرع إليها ليسألها عن نتيجة الفحص ؟ فنظرت إليه بعينين تائهتين ، وقالت له مستنكرة :

— مفيش حاجة ياخوى . . الدكتورة دى باين عليها مجنونة ! .

ولما سألها عن السبب الذى يدعوها لوصفها بهذا الوصف ، قالت له وعلى وجهها ابتسامة شاحبة :

— دى بتجول كلام مش معجول أبدا ! .

فعجب لذلك ، وحاول أن يعرف سر سخطها ، ولكنها تهربت من الإجابة ، وزعمت له وهى ترجوه أن يعود بها إلى البيت ، أن مابها — كما سبق أن قالت له — تعب بسيط لايحتاج إلى علاج ، ولا يستحق العرض على طبيب !

ومضى أسبوع كامل دون أن يبدو على أخته شىء من التحسن ، على الرغم من أنها كانت تحاول إخفاء مابهامن آلام ! وكانت محاولاتها هذه تضايقه ، وتثير مخاوفه ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يتصرف ، وهو لاخبرة له بأمراض النساء ، ولا بما يصلح لعلاجهن !

وأسعده الحظ ذا صباح ، وهو ينزل السلم ، بمقابلة جارته الحاجة نعيمة ، صاحبة البيت ، وحدثته نفسه بأن يخبرها بما تشكو منه شقيقته ، لعلها تصف لها علاجا ، أو ترشده إلى مايجب عمله . وتردد قليلا قبل أن يقترب منها ويلقى عليها تحية الصباح ، ولكن ماسمعه منها من عبارات الترحيب ، شجعه على أن يصارحها بما يريد ، فبدا على وجهها العجب ، وعاتبته على أنه أخفى عنها هذا الخبر حتى الآن ، ثم أسرعت بالصعود معه إلى غرفته . ولم تكد تدخل ، وتحس بها حميدة حتى حاولت القيام من فراشها لاستقبالها ، ولكن الإعياء

الذى كان يظهر على حركاتها بوضوح ، والاصفرار الذى كان يبدو جليا على وجهها ، جعل الحاجة نعيمة تسرع إليها ، وتمنعها من مغادرة الفراش ، ثم جلست بجانبها ، وأخذت تربت على صدرها وخدها ، وهى تقول لها عاتبة :

ـ إخص عليكى ياحميدة ! بق كده تبقى عيانه ولا تقوليش ؟ ليه يابنتى ؟ . هو احنا مش جيران . . وانتى مش زى بنتى ؟

وحاولت حميدة أن تعتذر للحاجة نعيمة ، ولكنها لم تجد ماتعتذر به ، فاكتفت بأن تنظر إليها نظرات تدل على خجلها منها ، وتقديرها لها ، واعترافها بجميلها ! وسألتها الحاجة نعيمة ـ بعد لحظة ـ عما بها من مرض ؟ وكيف بدأ ؟ ومتى ؟ وعما اتخذته من وسائل العلاج ؟ فأجابتها حميدة إجابات مقتضبة ، وكأنما تضيق بمثل هذه الأسئلة ! وأشفقت عليها الحاجة نعيمة فلم تلح عليها . ثم استاذنتها فى الخروج معتذرة بموعد هام ، وسلمت عليها وهى تقول لها مشجعة :

ـ شدى حيلك ياحميدة . . دى حاجه بسيطة وبكرة تخفى منها .

ثم التفتت ـ وهى تغادر الغرفة ـ إلى متولى الذى كان يقف بالقرب منها ، منتظرا رأيها فيما تعانيه أخته وعلى وجهه علامات الاستفهام ، وقالت له بصوت تتجلى فيها رنة العجب :

ـ ياابنى والله ما أنا عارفة أقول لك إيه ؟ الحاله اللى بتشكى منها

أختك .. أنا عارفاها كويس . لكن أقول لك إيه ؟ أنا ياابنى عندى ولايا .. وربنا يستر عليهم ! أحسن شيء توديها للدكتورة منيرة اللى عيادتها فى الميدان ، دى دكتورة شاطره ، وإيدها فيها الشفا بإذن الله ، ويمكن ياابنى أكون أنا غلطانة ! .

وعارضت حميدة فى الذهاب إلى الطبيبة مرة أخرى ، بحجة أنها لم تر فائدة من ذهابها فى المرة الأولى . ولكن متولى ألح عليها كثيرا .. وما زال بها حتى قبلت ! .

وجلس متولى فى قاعة الانتظار فى العيادة ، وهو مضطرب النفس ينتظر خروج أخته من غرفة الفحص ، ولم يكد يراها تخرج ومن خلفها الطبيبة تودعها - وقد بدا عليها الاضطراب والفزع - حتى هب من مقعده ، وأسرع إلى الطبيبة يسألها بلهفة عما بها ؟ فتبسمت الطبيبة فى وجهه ، وقالت له مداعبة :

— عاوز ولد والا بنت ؟ !

فلم يجب ، وبدا عليه كأنه لم يفهم ! فأعادت السؤال عليه ، ولكنه ظل ساكتا .. ينظر إليها ببلاهة .. وكأنما اجتمعت فى وجهه كل صنوف الغباء ! فقالت له بلهجة حادة كأنما تؤنبه :

- ياأخى ماترد .. وتقول عاوز إيه ؟ مراتك حامل .. وفى شهرها الثالث . مبروك ! .

ونزلت هذه العبارات على رأسه كالصاعقة ، ولكن الذى خففه

من وقعها أنه لم يكن يتصور أنها تعنيه بها ، والتفت حوله لعله يجد أحداً غيره توجه إليه الطبيبة ذلك الكلام .. فلم يجد غير أخته ! ورجت يصره ليواجه الطبيبة بخطئها ، ولكنه لم يجدها ! فقد تركته فى دهشته وعادت إلى غرفة الفحص . ولم يدر بنفسه وهو يسرع خلفها ، ويستوقفها ، ثم يسألها ، ووجهه شديد الاصفرار ، عن معنى ذلك الكلام ؟ فعجبت الطبيبة لسؤاله ولما بدا عليه من اصفرار ، وراعها مارأته فى عينيه من رعب ! وعافت على نفسها ، فأسرعت بالوقوف وراء مكتبها ، كأنما تحتمى به من شره ، وهى تقول :

— قلت لك مراتك حامل . . وفى الشهر التالت . . إنت مابتسمعش ؟ !

فحملق فى وجهها بذهول وهو يقول :

— كلام إيه ده يادكتوره اللى عاتجوليه ؟ حميدة مش مراتى . . حميدة تبجى أختى . . ومش متجوزه كمان ! .

فدهشت الطبيبة من قوله ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى أن تقول له بلهجة لاتخلو من الخوف منه ، والشفقة عليه :

— طب وأنا أعمل لك إيه . . اللى شفته قلت لك عليه . وإن كنت بتشك فى كلامى . . تقدر تعرضها على طبيب تانى .

وأحس من قولها أنها تريد أن تتخلص منه ، ودار ليخرج

وهو يضرب كفاً بكف ويقول هامسا :

— الدكاترة دول مجانين .. صحيح مجانين يابوى ؟ .

وعندما وصل إلى باب الغرفة وجد أخته فى انتظاره ؟ فأمسك بيدها بشدة ، وجرها ـ وهى ترتعد ـ بعنف ، وخرج من العيادة وهو يردد بصوت مسموع :

— مش معجول الكلام ده ؟ الدكتوره دى بتخرف .. بتخرف !

وسارا فى الطريق ساكتين ، وكأنهما يسيران فى جنازة ، وصعدا السلم ببطء وكأنهما ينتزعان أقدامهما انتزاعا ! ودخلا الغرفة فى صمت وكأنما يدخلان مقبرة ! وجلست حميدة على الأرض ، وظل هو واقفاً يذرع الغرفة جيئة وذهوبا ، وهو يزفر زفرات حادة ، كأنها تخرج من أتون مشتعل ! .

كان يفكر فيما سمعه من الطبيبة ، ويكاد أن يجن من غرابة كلامها ، كان يحس به وكأنه ألسنة من اللهب تكوى نفسه ، أو مقامع من حديد تدق يافوخه ! وكان يسأل نفسه : هل كان كلامها صحيحا ؟ وهل أخته حميدة حامل كما تقول ؟ ووقف قليلا عند هذه الكلمة ، وجحظت عيناه وهو ينظر إلى أخته من بعد نظرات قاسية ، ثم تابع حديثه مع نفسه متعجباً : لقد سمع الطبيبة بأذنيه وهى تقول له : إن حميدة حامل .. حميدة الصغيرة ،أخته التى لم تتم عامها السابع عشر إلا منذ أيام .. فكيف حدث هذا ؟ وأين ؟ ومتى ؟ أجل كيف حدث لها

هذا ؟ وكيف طاوعتها نفسها ـ وهى بنت الصعيد ـ على أن ترتكب هذه الغلطة ؟ وهز رأسه بعنف ، كأنما يريد أن يبعد عنها ذلك الاتهام الرهيب ، ولكنه لم يكد يفعل ، حتى برزت أمام عينيه صورة أخته . وهى تخرج من غرفة الفحص فى المستوصف الصغير ، وقد بدا عليها الذهول وهى تقول :

« الدكتورة دى باين عليها مجنونة ياخوى . . دى عتجول كلام مش معجول أبداً ! » .

كما تذكر قول جارته الحاجة نعيمة وهى تبادر الغرفة ، والعجب يغطى صفحة وجهها المغضن :

« ياابنى الحاله اللى بتشتكى منها أختك دى أنا عارفاها كويس . . لكن أقول لك إيه . . أنا ياابنى عندى ولايا . . وربنا يستر عليهم ! » .

وعاد يسأل نفسه مرة أخرى . . إن كان كلام الطبيبة ـ صحيحاً ـ وهو لابد أن يكون صحيحاً ، بعد أن رأى هذه الصورة . وسمع تلك الأقوال ـ فمن ياترى يكون ذلك المجرم الذى استغل سذاجة أخته وأوقعها فى حبائله ؟ إن حميدة لاتعرف من أهل القاهرة أحداً . . وهما لايزوران أحداً ، ولا يزورهما أحد ، سوى قرنى . . ابن خالته . . وهنا وقف مرة أخرى ، وراح الشيطان يوسوس له ، ويغريه بالشك فى ابن خالته ، وأخذ يتساءل . . أيكون قرنى هو ذلك الجبان الذى

ارتكب ذلك الجرم الخطير ؟ أيكون هو الشيطان الذى خدع أخته وسلبها أعز ما تملك ؟ ووجد نفسه الجريحة تجيبه على أسئلته بقولها : ولم لا . . لم لا يكون هو ؟ أليس هو الشخص الوحيد الذى كان يزورهما ، ويسهر معهما فى كثير من الليالى ؟ أليس هو الرجل الوحيد الذى يعرف مواعيد عمله ونوبات سهره ؟ أفلا يكون من السهل عليه - إذن - أن يأتى لزيارة أخته ، وهو مطمئن إلى غيابه ؟ وسكت لحظة ، عاد بعدها إلى سؤال نفسه - مرة ثالثة - ولكن . . هل بلغت السفالة بقرنى إلى هذا الحد الذى يسمح له بأن يخون قريبه وصديقه فيسطو كاللص على بيته ، ويلغ كالكلب فى عرضه ؟ ! .

وإذا كان يحب حميدة حقاً — وما فعله ليس حباً — فلماذا لم يأت إليه من الطريق المشروع ؟ لماذا لم يطلبها منه ، وهو يعرف حق المعرفة أنه لن يرفض طلبه ، بل سيرحب به ويساعده على تحقيقه ! لماذا يجىء من وراء ظهره ؟ ولماذا تسول له نفسه الدنيئة أن يعتدى على بنت خالته ؟ وهل خلت الدنيا من النساء ، فلم يعد فيها سوى حميدة فيعتدى عليها . . دون أن يرحم ضعفها أو يشفق على أمها ؟ أمها المسكينة - خالته - وهو يعلم أنها لم ترض بسفرها إلا مكرهة ، ولم توافق على وجودها فى القاهرة إلا بعد أن تعهد لها بالمحافظة عليها ، وأقسم على أن يصونها بحياته ؟ ترى ماذا تفعل تلك البائسة لو عرفت ما حدث لوحيدتها ؟ إن هذا الخبر سوف يقضى عليها دون شك ! ، إن قرنى لم يكن بهذه الدرجة من الخسة . . فما الذى غيره ؟ هل غيرته القاهرة . . وجردته

معيشته فيها من إنسانيته ؟ فلم يعد يعرف لعائلته كرامة ، ولم يعد يحفظ لأصدقائه عهداً ! وإلا . . فكيف لم يفكر فيه ؟ هو . . متولى . . صديق عمره . . وزميل طفولته . كيف لم يفكر فى العار الذى لطخه به ، وفى الوحل الذى مرغه فيه ! كيف لم يتصوره — قبل أن يقدم على ارتكاب جريمته البشعة — وهو يمشى بين أهل قريته مطأطىء الرأس ، خافض الجبين ؟ وهم ينظرون إليه ساخرين ، ويشيرون إليه مستهزئين ، وقد بدت الشماتة فى عيونهم : هذا هو متولى .. الأخ الذى لم يستطع المحافظة على شرف أخته ! . وبرقت عيناه عندما تخيل ذلك المشهد بريقاً مخيفاً ، وصاح قائلا وقد نسى نفسه : لا .. لن أطأطىء رأسى ، ولن أخفض جبينى ، ولن أسمح لأحد بأن يسخر منى . بل سأرفع رأسى ، وأغسل عارى ، وانتقم لشرفى . ولن نكون وحدنا ضحية هذا القريب العاق . لسوف يدفع قرنى الثمن ، وسيكون هذا الثمن باهظاً ، سيدفع حياته ثمناً لهذه الجريمة المنكرة ، وسيغسل دمه العار الذى لحقنا ! .

وكانت حميدة تنظر إليه ، وهو يروح ويجىء ، والرعب يملأ نفسها ، وقد خيل إليها أنها ترى سجاناً غليظ القلب ، يحرس مجرما عاتيا حكم عليه بالإعدام ، ويخشى أن يفلت من العقاب ! وكانت تحس برهبة شديدة وهى تستمع لوقع خطواته الثقيلة على أديم الغرفة الساكنة كالقبر ، وكأنها طرقات مطرقة ضخمة تقرع رأسها الصغير ، ويكاد يتصدع من هول ضرباتها كيانها الضعيف ! .

وطال مشيه ، وطال سكوتها .. حتى ضاقت به ، ولم تعد تقوى على احتماله ، أو تطيق الكتمان . فانفجرت تبكى بصوت عال ، وهى تنظر إلى أخيها من خلال دموعها المنسكبة ، وهو يبدو كالأسد الحبيس ، نظرات كلها توسل ورجاء ثم قالت :

ـــ كفاية بجى ياخوى .. أنا مش جادرة أصبر أكتر من كده .. ماتجول الدكتورة جالت لك إيه وتخلص ! جول ياخوى . . أنا خلاص مش طايجة أشوفك تعبان كده ! إتكلم ياخوى . . إتكلم يامتولى وريح نفسك ! .

فنظر إليها متولى نظرة اقشعر من هولها جلدها ، ثم اقترب منها وهو يحدق فيها بعينين ملتهبتين كأنهما جمرتان ، وقال :

ـــ وليكى عين تتكلمى يافاجرة ! ليكى عين تجولى إنى صعبت عليكى ! . ماصعبتش عليكى ليه امال وانتى بتضيعى شرفك الغالى وتلطخينى بالعار ؟ !

وأمسك بها بقوة ، وأخذ يضربها بيديه ، ويركلها بقدميه .. فى كل مكان يصل إليه من جسمها ، وهو يصرخ فيها ، والزبد يعلو شفتيه ، والشر يطل من عينيه ، ويقول .

ـــ لكن .. لع . أنا مش حاسكت على كده . . أنا لازم أغسل عارى واجتلك . . لكن جبل ما اجتلك لازم أعرف مين النذل اللى

عمل فيكى كده ؟ ولازم اجتله راخر واشرب من دمه عشان أشفى غليلى . مين هو ؟ جولى ياجرمة مين هو . . اتكلمى ؟ !

وكانت التعسة تتلقى الضربات العنيفة من يديه القويتين ، والركلات الشديدة من قدميه الضخمتين ، وهى تئن أنينا خافتا ، وتمسح بيديها الدماء الغزيرة التى كانت تسيل من فمها ، ومن أنفها على وجهها وتختلط بدموعها .. دون أن تحاول الدفاع عن نفسها ، أو تتحرك من مكانها ! ولم تكن تزيد على أن تقول له بصوت يذيب أقسى القلوب :

— حرام عليك ياخوى تعمل فى نفسك وفى كده . ماتظلمنيش ياخوى ! والنبى أنا ماعملت حاجة تغضب ربنا .. والا تزعلك !

ولكنه لم يكن يسمع قولها ، فقد أصم الغضب أذنيه ، وجعله كالوحش الضارى الذى يزداد ضراوة وبطشا ، كلما رأى دماء الفريسة وهى تسيل ، ويمتلىء شراسة وعنفا ، كلما زاد ضعفها ! ولم يكف عن ضربها إلا عندما أحس بالتعب ، وكلت قدماه ويداه من كثرة الضرب والركل ! وعندئذ نظر إليها بعينين مملوءتين بالتهديد والوعيد وقال لها وهو يبتعد عنها ، ويوليها ظهره :

— مش عاوزه تتكلمى يافاجره .. مش عاوزة تجولى على اسمه ؟ لكن أنا عارف . . أنا عارفه ! هو متولى . . الكلب متولى مفيش غيره ! ولد خالتك . . مش كدة ؟ خايفة عليه منى يافاسجة ، ومش عاوزة تجولى عليه ! . لكن أنا حاجتله ، حا اجتلكم انتم الاتنين —

حاجتلكم واخلص من عاركم ! وحاجته هو الأول .. حاجته جدام عنيكي . لاجل ماتشوفيه وهو بيتخبط فى دمه !

وتركها ـ قبل أن يسمع جوابها ـ وأسرع إلى باب الغرفة ، وخرج منه بعد أن أغلقه بالمفتاح ، واندفع يجرى كالسهم إلى السلم ، ونزل وهو كالثور الهائج ليبحث عن متولى ! وبحث عنه كثيرا ، بحث عنه فى كل مكان يظنه فيه .. ذهب إلى البيت الذى يسكنه ، وإلى المقهى الذى يسهر فيه ، وإلى أصدقائه الذين يجتمع بهم . ولكنه لم يعثر عليه !

وعاد خائبا . والحقد يملأ قلبه ، والدماء تغلى فى عروقه .. وصعد إلى غرفته ، وكانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، وفتح باب الغرفة بيدين مرتعشتين ، وأسرع إلى فراش أخته ، فوجدها ممددة فيه ، ففار دمه وهجم عليها كالمجنون ، ثم أطبق بيديه على عنقها ، وأخذ يضغط عليه بقوة ، ويضغط ، ويضغط دون أن يجد منها مقاومة ، أو يحس بحركة ! حتى اطمأن إلى أنها قد ماتت ، فترك عنقها ، وأخذ يقهقه بصوت عال ، وهو يحدق فيها بوحشية ، وهى مسجاة على الفراش . والقمر الحزين يغطيها بنوره الشاحب ، كأنما يصنع لها كفنا ويقول :

ـ تمتى يافاجرة ؟ تمتى وسايبة النار ترعى فى ضلوعى . . مش كده ؟ نامى دلوكيتى على طول ! .

وظل يضحك ويقهقه ، وقد انتابته حالة عصبية حادة ، ثم لم يلبث

أن خرج من الغرفة مسرعا ، ونزل على السلم ، وهو يصرخ بأعلا صوته ، ويشير بيديه :

— جتلتها .. جتلتها بيدى دول ! جتلتها وخلصت من عارها .. وحاجتله هو راخر ، حاجتل جرنى الندل .. وانتجم منه !.

واستيقظ سكان المنزل على صراخه ، وعلى وقع قدميه ، وهو ينزل السلم جريا ، فرأوه فى حالة شديدة من الهياج ، فلم يحاولوا اعتراضه ، أو القبض عليه ، وأسرع واحد منهم فأبلغ الشرطة .

وعندما حضر رجال الشرطة ، كان متولى لايزال واقفا فى فناء المنزل وهو على هذه الحالة من الهياج ، فألقوا القبض عليه ، وهو لايمانع ، ولا يحاول الاعتراض . بل كان مستمرا فى قهقهته وصراخه ، وهو يردد قوله ، ويشير إلى يديه :

— أنا اللى جتلتها . جتلتها خلاص بصوابعى دول . ولازم اجتله هو راخر .. حتروح منى وين ياجرنى .. ياولد خالتى ؟ أنا حاجتلك واشرب من دمك .. ولو كنت فى حضن أمك .. حاجتلك ولو كنت متشعلج فى السحاب !.

ولم يتعب النائب فى تحقيق هذه القضية ، ولم يضيع وقتا فى البحث عن القرائن والأدلة ، أو استدعاء الشهود ، فقد أغناه اعتراف المتهم الصريح بأنه هو الذى قتل أخته بيديه ، انتقاما لشرفه ، بعد أن فرطت

فى عرضها ، وإصراره على هذا الاعتراف - حتى بعد أن سكنت نفسه، وهدأت أعصابه - عن البحث والتحرى ، كما جاء تقرير الطبيب الشرعى مؤكدا صحة هذا الاعتراف ، بما ذكره من أن المجنى عليها ماتت خنقا ، وأن الوفاة حدثت نتيجة للضغط بقوه على عنقها ، بوساطة يدين قويتين . كما أثبت أنها كانت حاملا - فعلا - وفى الشهر الثالث كما ذكر القاتل ! .

وكذلك لم يستغرق نظرها فى المحكمة وقتا طويلا - فعلى الرغم من أن المحكمة قد انتدبت أحد المحامين للدفاع عن المتهم - كما يقضى بذلك القانون - وعلى الرغم مما بذله المحامى من جهد كبير ، وهو يحاول إقناعه بالعدول عن اعترافه ، أو بتغيير أقواله ، ليساعده بذلك على أداء واجبه ، ويسهل له طريق الدفاع عنه ، ويمكنه من إيجاد مبرر يتقدم به إلى هيئة المحكمة طالبا تبرئته ، أو تخفيف الحكم عليه ! - فقد أصر المتهم على أن كل ماقاله صحيح ، وأنه وحده الذى قتل أخته بيديه انتقاما لعرضه السليب ، وشرف أسرته الضائع ! مما جعل المحكمة تنتهى بسرعة من محاكمته ، وتقضى عليه - بعد أن استعرضت ظروف المتهم الخاصة من صغر السن ، واندفاع الشباب ، وبعد أن وضعت فى اعتبارها تقاليد أهل الصعيد ، وأهمية العرض بالنسبة لهم - بالسجن لمدة خمس عشرة سنة مع الشغل والنفاذ ! .

ودخل متولى السجن راضيا .. ودون أن يفكر فى استعمال حقه الذى كفله له القانون فى استئناف الحكم كما نصحه المحامى . ومضت

بضع سنين ، لم يقابل خلالها أحداً من أهله وذويه ، وكان يرفض طلب كل من يريد زيارته منهم ، حتى أمه ـ أمه المسكينة التى أصيبت بالشلل من شدة الحزن ، وابيضت عيناها من كثرة البكاء ـ كان يرفض زيارتها . . على الرغم من شدة شوقه لرؤيتها ! فقد كان يعد نفسه مسؤولا عن تلك الكارثة التى حلت بها ، ويرى نفسه ـ وقد فرط فى المحافظة على الوديعة التى ائتمنته عليها ـ غير جدير بحبها وعطفها ! .

وكانت الأيام تمر به وهو فى السجن ، بطيئة ، ثقيلة ، وكأنها سنوات طويلة ! ولم يكن يضايقه شىء مما يلاقيه فى السجن من قسوة السجان وخشونة المعاملة ، أو مما كان يحس به من مرارة الحرمان من الحرية ومتع الحياة ! لم يكن يضايقه شىء من ذلك ، ولكن الذى كان يضايقه كل الضيق . بل ويحرمه من النوم ، ويجعله يضيق بالسجن وبالحياة . . هو أنه لم يستطع أن يثأر لشرفه المثلوم من ابن خالته قرنى . . ذلك الوغد الذى أفلت من عقابه . . ولا يزال يعيش ـ على الرغم من خسته ـ طليقا ينعم بالحياة ! . وكان لذلك يتعجل مجىء اليوم الذى تنتهى فيه مدة العقوبة ، والساعة التى يخرج فيها من السجن ، لا حبا فى الحرية أو رغبة فى الحياة . . ولكن لكى يقتص منه ويقضى عليه ! .

ويومئذ فقط سوف يحس بالراحة ، ويشعر بالهدوء ، ويستطيع أن يقابل أمه ، وأن يسافر إلى بلده ، وهو مرفوع الرأس ، عالى الجبين ! .

وكانت هذه الفكرة تملأ رأسه ، وتسيطر عليه ، وتشغل باله فى جميع الأوقات ! ولم يكن عمله الشاق ، ولا وجود زملائه المساجين الثلاثة الذين يشاركونه فى الغرفة الضيقة ، ولا أحاديثهم الكثيرة التافهة تمنعه من التفكير فيها ، والاشتغال بها ! .

وعاد إلى الغرفة فى غروب أحد الأيام ـ بعد انتهاء العمل ـ ليجد فيها ضيفا جديدا ! وكان هذا الضيف الجديد ـ هو إبراهيم شعبان ـ شابا فى حوالى الثلاثين من عمره ، قصير القامة يبدو عليه الميل للمرح والذكاء الحاد ، وخفة الظل ! ـ ورحب به هو وزملاؤه ، عندما عرفوا من السجان أنه زميل جديد ، سوف يحل محل زميلهم محمود ، الذى نقل إلى مكان آخر ، تمهيدا للإفراج عنه ، بعد أن انتهت مدة سجنه .

وتغيرت حياتهم فى الغرفة الضيقة بعد أن حل بها إبراهيم شعبان ، وتغير نظام معيشتهم الرتيب ، فلم يعودوا يأوون إلى فراشهم مبكرين ، عقب عودتهم من العمل كما كانوا يفعلون ، ولم تعد أحاديثهم المتكررة تسبب لهم الضيق والسأم ، وتدفعهم إلى التثاؤب والنوم كما كانوا يشعرون ! بل أصبحوا يحبون السهر ، ويستهويهم الحديث . وأخذت الأحاديث تختلف وتتنوع ، وتقصر وتطول ، وتصبح وسيلتهم الوحيدة للتسلية والترويح ! وكان الفضل فى ذلك للضيف الجديد إبراهيم ، فقد كانت نكاته اللطيفة ، ومداعباته الظريفة ، وطريقته العجيبة فى إدارة الحـــديث ، وخلق الموضوعات ، تثير إعجابهم ، وتغريهم بالسهر وبالسمر ! .

وفى ليلة باردة من ليالى الشتاء الطويلة ، تجمع المساجين الأربعة حول إبراهيم ، وجلسوا على فراشه وبالقرب منه ، وأخذوا يتناقلون الحديث ، ويتبادلون النكات .. كالمعتاد ، وتطرق بهم الحديث إلى ذكر بعض الحوادث الغريبة التى كانت تصادفهم أثناء مغامراتهم الكثيرة ، والتى تدل على البراعة والدهاء . فروى لهم يوسف الفيومى « النشال الماهر » كيف إنه استطاع بمهارته ، وبخفة أصابعه - وعلى الرغم من القيد الحديدى الذى يغل يديه ، وعيون الحراس المحدقة به - أن ينشل ساعة الضابط اليقظ الذى كان يحقق معه ، بعد أن قبض عليه ، دون أن يشعر .. إنتقاما منه لكثرة ما كان يلقاه منه من مضايقات ! .

وروى زكى رجب « الفتوة العملاق » كيف إنه - وهو وحده - فى معركة كبيرة من معاركه الكثيرة ، استطاع أن ينتصر على خصومه ، وأن يبطش بهم ، بل وأن يقضى على أحدهم - على الرغم من إصابته بجروح كثيرة من مديهم الحادة ، وعصيهم الغليظة - وإنه استطاع - على الرغم من كثرة الدماء التى كانت تسيل من جميع أنحاء جسمه - أن يهرب ، قبل أن يتمكن رجال الشرطة من القبض عليه ! .

وكان متولى يستمع إلى زميليه القديمين وهما يرويان قصتهما دون مبالاة .. وهو مضطجع على جنبه ، وعيناه نصف مغمضتين . ولكنه اعتدل بسرعة فى جلسته ، وأصاخ سمعه ، وفتح عينيه ، عندما سمع زميله الجديد إبراهيم شعبان يبدأ فى الحديث . ولم يكن هو وحده الذى أبدى ذلك الاهتمام ، بل شاركه فيه باقى الزملاء وحذوا حذوه ! .

وبدأ إبراهيم قصته فقال : أما أنا فقد حدث لى حادث غريب ، لا يمت إلى المهارة أو القوة بسبب ، ولا يتصل بالبراعة أو الجرأة بنسب ، وإنما هو حادث فريد ، بل هو أقرب إلى الخيال ، وإلى ما نراه على شاشة (السينما) منه إلى الحقيقة والواقع ! .

وكان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات ، وفى ليلة شديدة الحر من ليالى شهر يوليو ، وكنت قد قررت أن أقوم فيها بسرقة امرأة ثرية ، تقيم فى شقة من بيت تملكه فى حى الشرابية ، وكانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل هى التى حددتها للقيام بتنفيذ السرقة ، وفى الموعد المحدود ، دخلت - خلسة منتهزا فرصة الليل والسكون إلى المنزل القديم - وصعدت السلم بخفة ، حتى وصلت إلى الشقة المقصودة وأخذت أعالج بابها بكثير من الحذر ، مستعينا على فتحه بما أحمله من مفاتيح وأدوات . ولكنى لم أكد أبدأ .. حتى أحسست بحركة داخل الشقة ، ورأيت نورها يضاء ، وسمعت أصواتا تدل على أن صاحبها يستعد للخروج لصلاة الفجر ، وكانت مفاجأة لم تكن فى الحسبان ! فكففت عن محاولة فتح الباب ، وهممت بالنزول ، والعدول عن إتمام السرقة فى هذه الليلة . ولكنى تذكرت أن الزوج الصالح لن يلبث أن يخرج ، وأن خروجه سوف يتيح لى فرصة أحسن للقيام بمهمتى ! وفكرت بسرعة فيما يجب عمله ، فهدانى تفكيرى إلى أن السطح القريب هو أنسب مكان أختفى فيه إلى أن يخرج صاحب الشقة ! . وصعدت مسرعا إلى السطح ، وتواريت بجانب جدار الغرفة الوحيدة التى كانت فيه ومرت

دقائق رهيبة ، كانت فيها أذناى المرهفتان تنصتان إلى كل حركة ، وعيناى التائهتان تحدقان فى كل مكان من السطح الذى غمره القمر بنوره الساطع .. خوفا من ظهور أحد ، أو حدوث مفاجأة ، قد تفسد خطتى أو تؤدى بى إلى الهلاك ! .

وحانت منى التفاتة فرأيت بالقرب منى نافذة مفتوحة ، فاسترقت الخطى حتى وصلت إليها ، ودفعنى الفضول إلى أن أنظر إلى داخلها بحذر شديد ! فوقع نظرى على منظر فريد ، أثار دهشتى ، وأشعل النار فى عروقى ، وجعلنى ألتصق بالنافذة ، وأطيل النظر .. وقد نسيت حذرى وما كنت قد جئت لأجله ! رأيت على ضوء البدر الذى كان يملأ الغرفة بنوره الهادىء ، امرأة صغيرة السن ، جميلة الوجه ، ريانة الجسم ، ترقد وحدها فى الغرفة ، على فراش بسيط ، وقد استسلمت لنوم عميق ، لم تحس معه بأن ساقيها قد تعريا ، وأن ثوبها الطويل قد انحسر عنهما إلى مافوق وسطها . . ليكشف عن فخذين لفاوين . كأنهما قد صنعا من الزبد الخالص ، ووضعا فى قالب دقيق ، ثم صقلا بعناية كبيرة ، حتى أصبحا فتنة تتوه فيها العيون ، وتثور لرؤيتها الغرائز ! وكان ضوء القمر ينسكب عليهما لجينا ، فيزيدهما فتنة ، ويزيدهما إغراء ! وطاش صوابى ، وذهب عقلى لهذا المنظر المثير . ولم أدر بنفسى وأنا أقفز بسرعة إلى داخل الغرفة كالصقر ، واقترب من النائمة الحسناء ، ثم أخرج من جيبى زجاجة المخدر الصغيرة التى كنت

أحملها معى دائما ، وأدنيها من أنفها الصغير . . ولم تمض لحظات حتى كان قد سكن كل شىء فيها ! وانتهزت فرصة خلو الغرفة إلا منى ومن الشيطان وشرعت فى إتمام مابدأت به . . ولم يمنعنى اكتشافى أن هذه الضحية كانت عذراء . . من أن أقضى وطرى ، ومن أن أمضى لحظات .. كانت من أمتع لحظات حياتى ! . ثم خرجت بعد ذلك من النافذة كما دخلت ، وأسرعت فى النزول إلى السلم ، دون أن أفكر قط فى المرأة الثرية ، أو فى مشروع السرقة ، مكتفياً بما نلته من لذة ، وما أصبته من متاع ! .

وظلت ذكرى تلك الليلة تلاحقنى بعد ذلك أياما طويلة ، وظل منظر تلك الجميلة النائمة وهى نصف عارية ، والبدر يلفها بغلالة رقيقة من نوره الفضى . . يشغل فكرى ، ويملأ أحلامى ، ويؤرقنى ليالى عديدة ، حتى لقد هممت مرات كثيرة — لولا غياب القمر — بإعادة الكرة ، وتكرار المغامرة ! .

وصبرت على مضض ! ولم تكد تحل مثل تلك الليلة من الشهر التالى حوارى القمر بدرا .. حتى أسرعت إلى هناك ! وكان عجبى كبيراً عندما وجدت النافذة مفتوحة كما كانت ، والفتاة مستغرقة فى النوم كما كنت أرجو ! وكررت ما فعلته فى المرة السابقة ، وخرجت مطمئنا دون أن يحس بى أحد ! .

ومضى شهر آخر ، وذهبت فى نفس الموعد ، ولكننى لم أكد أقفز

من النافذة ، وأسير فى الغرفة بضع خطوات ، حتى سمعت المرأة التى كنت أظنها نائمة ، تقول بصوت واهن ، وهى لا تزال مغمضة العينين :

— أنت جيت ياخوى !.

فأجفلت من صوتها ، ووقفت فى مكانى لحظة ، عزمت بعدها على الهرب . ولكنى لم ألبث أن عدلت عن ذلك ، وأغرانى ما أحسست به فى صوتها من الوهن ، وما يحيط بنا من سكون ، وما يهيج فى عروقى من دم .. على تنفيذ ما جئت من أجله !.

واقتربت منها فى صمت وتصميم ، ولم أكد ألمس جسدها ، حتى فتحت عينيها .. ورأتنى ! وكادت تموت من الرعب ، وهمت بالقيام ، وهى تصرخ فى وجهى بفزع :

— إنت مين .. مين أنت ؟

فأسرعت بوضع إحــــدى يدى على فمها ، والأخرى على صدرها ، لكى أمنعها من الصراخ ومن الحركة .. ولكنها لم تسكت ، ولم تهدأ ، وأخذت تقاومنى بشدة ، وتحاول أن تتخلص منى ، وأن ترفع يدى عن فمها .. ولما لم تفلح عضت يدى عضة قوية أدمتها ! وكدت أصرخ من شدة الألم ، وأثار فعلها حنقى ، وزاد من سخطى ، فتركت فمها ، وأمسكت رقبتها بيدى الاثنتين ، وجعلت أضغط عليها بأصابعى المتشنجة ، وقد أصبحت كالذئب الجائع ! ولم أترك رقبتها إلا عندما رأيت عينيها وقد جحظتا ، ولسانها وقد تدلى ، ويديها وقد تراختا ، وجسمها الفتى وقد همد ! فأسرعت بالقفز من النافذة ، والهروب من المنزل .. وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة !.

ولم أنم فى تلك الليلة ، ولا فيما أعقبها من ليال ! وظل شبح تلك المرأة يتراءى لى سنوات طويلة ! ولا يزال منظرها وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة .. يقض مضجعى كلما تذكرته حتى الآن ! .

وكان متولى يستمع إلى ابراهيم شعبان وهو يروى مغامرته الغريبة بكل حواسه . ولم يكد يرى ابراهيم ينتهى منها حتى هب واقفاً من مجلسه ، واقترب منه وهو يحدق فيه بعينين تقدحان شرراً ، وقال له :

— لكن أنت ماجلتلناش على اسم الحارة اللى كانت ساكنة فيها الشابة دى ؟ .

فتبسم ابراهيم شعبان وهو يلتفت إلى متولى ، ويقول له ساخراً :

— ياخويا ده اللى يشوفك وأنت واقف كده . . ومهتم قوى بمعرفة اسم الحارة اللى كانت ساكنة فيها الشابة دى ، يقول إنها أختك والا قريبتك ؟ طب ياسيدى أنا حريحك وأقول لك عليه ! الحارة على ماأفتكر اسمها حارة الجمال ، ونمرة البيت كانت ١٩ كمان ، ارتحت بقى ياخويا ؟ .

ثم انفجر ضاحكا من قلبه ، ولكنه لم يستمر فى ضحكه ، بل قطعه فجأة وقد بدا على وجهه الفزع الشديد . . حين رأى متولى يهجم عليه وبيده الدلو الكبير الموجود فى الغرفة ، وهو كالنمر المفترس ، ويضربه به فوق رأسه - وبلا وعى - ضربات شديدة وسريعة ، وهو يصرخ كالمجنون :

— يجى انت يامجرم . . إنت الكلب اللى اعتدى على أختى

وضيع شرفها ! إنت اللى جابت لنا العار ، وخليتنى اجتلها وهى بجتولة ! يبجى لازم دلوكيتى تاخد جزاك ، وتموت زى ما ماتت !

وكان مافعله متولى ـ مفاجأة مذهلة ـ لم يكن يتوقعها أحد من زملائه . ومضت لحظات رهيبة قبل أن يفيقوا من ذهولهم ، وقبل أن يتحركوا من أماكنهم . وعندما هرعوا إلى متولى ليمنعوه من القضاء على زميلهم .. كان الأوان قد فات ! وكان ابراهيم ممدداً على أرض الغرفة السوداء وهو يتخبط فى دمه ، وقد تناثرت أجزاء كثيرة من مخه بجوار رأسه المهشمة ! فلم يجدوا شيئاً يفعلونه سوى أن يسرعوا إلى باب الغرفة الصغير يدقونه بعنف ، وإلى نافذتها الحديدية الضيقة ، يصرخون منها بأعلا أصواتهم ، وينادون على الحراس ، ويحثونهم على سرعة الحضور ، لإغاثة الجريح !.

ولبى الحراس النداء ، وجاءوا على عجل . وعندما فتحوا الباب ودخلوا إلى الغرفة . فوجئوا برؤية ذلك المنظر البشع الذى لم يألفوه !! فأسرعوا بإبلاغ النبأ إلى رؤسائهم . وقاموا باستدعاء الطبيب وإخطار النيابة بالحادث .

ولم يمض وقت طويل حتى حضر الطبيب ، وفى إثره النائب المحقق . وبذل الطبيب جهداً عظيما ، وهو يحاول إسعاف الجريح ، وإيقاف النزيف ، ولكن خطورة الإصابة ، وكثرة النزف ، لم تنفع معهما محاولاته ! فاضطر إلى أن يأمر بنقله إلى المستشفى فى الحال !

وبدأ النائب التحقيق — بعد نقل الجريح إلى المستشفى — بمعاينة مكان الجريمة ، وبسؤال المتهم عن الأسباب التى دعته إلى الاعتداء على المجنى عليه بمثل هذه الوحشية ، ومحاولة قتله ؟ فقص عليه متولى كل ماسمعه من ابراهيم شعبان وهو يروى مغامرته ، وأخبره بأن تلك الشابة الصغيرة التى اعتدى ابراهيم شعبان على عرضها فى تلك الليلة المشئومة ، ثم قتلها — باعترافه — هى بعينها أخته حميدة حسنين ، التى توهم أنه قتلها .. مع أنها كانت مقتولة - فعلا - بيد إبراهيم شعبان ! .

وختم حديثه بقوله : إنه لم يستطع — وهو يستمع لاعتراف المجرم الحقيقى ، الذى سلب أخته المسكينة شرفها ، ولم يكتف بذلك ، بل قتلها لأنها لم تمكنه — وهى فى وعيها — من تكرار الجريمة ، التى راحت هى ضحيتها ، ودخل هو السجن من أجلها .. ليقضى فيه خمسة عشر عاماً — عقاباً على جرم لم يرتكبه — لم يستطع أن يمنع نفسه من الثورة ، ولا أن يمسك يده عن قتله .. انتقاما لعرضه ، وأخذاً بثأره ، ومحو العاره ! .

وكان الشك يبدو واضحا فى عينى المحقق ، وهو يسجل أقوال متولى الغريبة ، ولكن هذا الشك لم يلبث أن تحول إلى عجب شديد من غرابة المصادفة وعدالة القدر .. حين سأل شهود الحادث - المساجين الثلاثة — عن رأيهم فيما قاله زميلهم .. فأكدوا له صدقه ، وأعادوا عليه ما سمعوه بآذانهم من كلام ابراهيم شعبان ، وماشاهدوه بأعينهم من اعتداء متولى عليه ! .

ولم يكد ينتهي من استجواب المتهم وسؤال الشهود ، حتى جاءه بلاغ من المستشفى ، يطلب منه الحضور بسرعة ، ويخطره بأن حالة المجني عليه تزداد سوءا ، وأنه يعاني من سكرات الموت ! لحمل أوراقه وأسرع إلى المستشفى .

وحين دخل الغرفة التي يرقد فيها إبراهيم شعبان ، وجد الطبيب والممرضات يحيطون بسريره ، ورآه في حالة يرثى لها .. كانت الأربطة البيضاء تغطي رأسه ووجهه ! ولم يكن يظهر من هذا الوجه سوى عينيه الذابلتين ، وأنفه الكبير ، وشفتيه الشاحبتين ! وكان يئن أنينا خافتا ، ويتنفس بصعوبة كبيرة ، وصدره يعلو ويهبط ، وهو يردد ببطء شديد ، وبصوت ضعيف - يكاد أن يكون همساً - بضع كلمات متقطعة ، كانت هي اعترافه الأخير :

— متولي قتلني .. لكن أنا قتلت أخته قبل كده ! . متولي خد تاره ، وربنا انتقم لهم مني !

وظل يردد هذه الكلمات ، وصوته يزداد ضعفا ، وأنينه يزداد خفوتا ، وشفتاه تزدادان شحوبا ، ثم سكت فجأة ، ومالت رأسه على الوسادة البيضاء ! . فأسرع إليه الطبيب .. وأمسك بيده ، وجس نبضه ، فإذا به قد توقف ! فحاول إسعافه ببعض المنبهات ، ولكنه كان قد فارق الحياة ! فأسبل جفنيه ، وأسبغ على جسده الغطاء .

وخرج المحقق من المستشفى - بعد أن أذن بدفن الجثة - ليذهب

إلى مكتبه ، وهناك أتم التحقيق ، بعد أن أثبت فيه أقوال المجنى عليه الأخيرة ، ووفاته متأثرا بجراحه ، ثم أصدر قراره بإحالة المتهم متولى حسنين إلى محكمة الجنايات ، مستنداً إلى إقرار المتهم نفسه بالقتل ، واعترافه بالشروع فيه ! .

ولم يتعد نظر القضية فى المحكمة بضع جلسات ، اطلعت فيها هيئة المحكمة على أوراق التحقيق ، واستمعت فيها إلى أقوال الشهود ومرافعة النيابة والدفاع ، ثم رجعت إلى (ملف) القضية الأولى ، التى اتهم فيها المتهم ـ خطأ ـ بقتل أخته حميدة حسنين ، واطلعت على ماجاء فيها من تحقيقات ، وماذكر فى الحكم من حيثيات ، ثم خلت إلى المداولة ، وأصدرت حكمها بتبرئته من تهمة قتل أخته حميدة حسنين ، واعتباره غير مسؤول عنها ، وإلغاء الحكم الذى صدر فيها . وقررت ـ بعد أن أدانته فى جريمة قتل إبراهيم شعبان ـ « استعمال منتهى الرأفة .. نظرا لما وقع على المتهم من ظلم كبير وما أصابه بسبب اعتداء المجنى عليه على عرض أخته وقتلها من فضيحة وتشهير ، وتحقيقاً لما تقتضيه العدالة من رفع الظلم عمن ظلم ومنع ازدواج الحكم فى قضية تعتبر واحدة ، وذلك بالحكم عليه بالسجن — مع الشغل — لمدة عشر سنوات » .

وخرج متولى حسنين من السجن .. ولم تستغرق الإجراءات التى اتخذت للإفراج عنه وقتاً طويلا .. لأنه كان قد قضى فى السجن أكثر من المدة المحكوم عليه بها فى القضية الأولى .

وعندما خرج من الباب الكبير ، ورأى نور الشمس ، واستنشق نسيم الحرية . . خيل إليه كأنه يخرج من قبر عميق ! وتنفس الصعداء وهو يرفع رأسه إلى السماء كأنما يشكر الله على نعمة الحرية ! وتلفت حوله . . كأنما يريد أن يتحقق من أنه مطلق السراح فعلا ، ومن أنه لا يحلم ! فإذا به يرى قرنى . قرنى ابن خالته ، يهجم عليه ، ويضمه إلى صدره بقوة ، ويعانقه وهو يقول له والفرحة تطفر من عينيه :

— حمد الله على السلامة يامتولى ، حمدالله على السلامة ياولد خالتى ! شدة وزالت ياخوى . . والحمد لله اللى ربنا جبر بخاطرك ، ونصرك على عدوك ! .

وعجب متولى أشد العجب لوجود قرنى فى استقباله على باب السجن ، فلم يكن يتصور - بعد أن قطع صلته بأهله وبالعالم - أنه سوف يجد من ينتظره عند خروجه ؟ واغرورقت عيناه بالدموع وهو يضمه إليه ، ويقبله ! ولم تكن هذه الدموع دموع الفرح بلقائه ، وإنما كانت دموع الندم على أنه ظلم هذا القريب البار وأساء الظن به ، وكاد - لولا لطف الله - أن يقتله ! وأحس بالخجل من نفسه - وهو يسمع كلامه ، ويرى فرحته - لأنه فكر فى يوم من الأيام فى أن يفتك بهذا الإنسان الطيب المخلص ! .

وركبا معا سيارة أجرة صغيرة ، حملتهما إلى منزل قرنى . وهناك أحسن قرنى استقباله ، وزاد فى إكرامه والترحيب به ، وكان وجهه

المتهلل يترجم عما كان يحس به لوجوده من البهجة والفرح ! .

ولم يناما فى هذه الليلة ، فقد أنستهما الفرحة النوم ، وشغلهما الحديث الطويل الذى لم ينقطع عن التفكير فيه . تحدثا فى كل شيء .. وأفضى كل منهما إلى الآخر بما كان فى نفسه . تحدث متولى عن السجن وعن أيامه ولياليه ، وعما لقيه فيه من ذلة ومهانة .. وتحدث عن الحقد الذى كان يأكل قلبه كلما فكر فى المجرم الذى لوث شرفه ولم يستطع الانتقام منه . والقضاء عليه . وتحدث عن ثورته المكبوتة ، التى - انفجرت عندما سمع غريمه الذى اعتدى على أخته وقتلها - يفخر بما فعل ! وتحدث عن فرحته عندما رآه يتخبط فى دمه بعد أن اعترف بطهارة أخته وبراءتها من الدنس ! .

وحدثه قرنى عن حزنه العظيم لما لحق به من كوارث . وعن اهتمامه الكبير بتتبع أخباره - على الرغم من رفضه مقابلته - ثم حدثه عن أمه التى عانت كثيراً - فى وحدتها - من نكبته ، وعن أسرته التى كانت تشفق على شبابه ، وتخشى على حيويته من أن يقضى عليهما السجن ! وحدثه عن أهل قريته ، وعما كانوا يتحدثون به عنه - كلما جاء ذكره - من الثناء عليه ، والإعجاب به ! ثم حدثه - أخيرا - عن الفرحة التى عمتهم جميعاً عندما تأكدوا من طهارة أخته ، وعن السعادة التى غمرت قلوبهم عندما عرفوا بما أصاب المجرم اللئيم على يديه من قصاص !

وفى الصباح الباكر ، ذهبا إلى محطة القاهرة ، وركب متولى وحده القطار ، ووقف قرنى بالقرب من النافذة ، يودعه بحرارة . ويوصيه

بالمحافظة على نفسه ، ويحمله السلام إلى أمه وخالته وأهل بلدته .

وعندما تحرك القطار ، أسرع قرنى ليلحق به ، وهو ينادى على متولى ، ويصيح به .. كمن يذكره بشىء نسيه :

— مع السلامة يامتولى ، حترجع ميتى ياولد خالتى .. ماجلتش ؟
فتبسم متولى ابتسامة عريضة ، وقال له ساخراً ، وهو يطل من نافذة القطار ، ويشير إليه بيديه مودعا :

— لع .. أنا مش راجع تانى ياجرنى .. أنا مش راجع أبدا ياولد خالتى ! أنا حاجعد فى البلد على طول .. حاجعد جنب أمى .. أمى محتاجة لى ياجرنى .. وكفايه اللى جرى لى فى مصر .. واللى نابنى من ناسها وأهليها ! .



نسوانهم

عندما وقع نظر المعلم مرسى الغندور صاحب مقهى الوردة الحمراء بدرب البرقى المتفرع من شارع السيدة عائشة بحى الخليفة .. على تلك الفتاة الجميلة الوجه ، الممتلئة الجسم ، المتوسطة القامة ، التى تتمايل فى الملاءة الحريرية السوداء التى أحكمت لفها حول جسمها . . حتى تبدو وكأنها ملتصقة به ، متعمدة أن تبرز كل مفاتنه ، وأن تكشف عن مواضع الإثارة فيه . .

عندما وقع عليها نظره .. وهى تسير على مهل ، وتقترب ببطء من المقهى الذى كان يجلس بالقرب من بابه الواسع ، على كرسيه الكبير ، خلف المنضدة الرخامية التى وضع فوقها صندوق النقود النحاسى الصغير الذى يضع فيه إيراد المقهى (الغلة) .. وبالقرب منه النارجيلة (الشيشة) الفاخرة ، وقد أمسك بيده خرطومها الطويل ، الذى ينتهى بمبسم أنيق المنظر ، مخروطى الشكل ، مصنوع من الكهرمان الأصفر اللامع .. وجعل يجذب منه ـ وهو يضمه بين شفتيه الغليظتين ـ أنفاسا انتفخت منها أوداجه . وسحب الدخان الخفيفة تخرج من أنفه الكبير ، ومن فمه الواسع ، متجاوزة شاربه الأسود المفتول ،



حتى إذا أصبحت على مقربة منه ، قالت له بصوت عذب رقيق .. صباح الخير .. يامعلم !.

لتنتشر من حوله حلقا . . وهو ينظر إليها ، ويتأمل فيها ، ويتابع حلقاتها الملتوية المتصاعدة التى سرعان ماتتبدد فى الهواء ! .

عندما وقع نظر المعلم مرسى على تلك الشابة الجميلة التى تختال فى مشيتها ، وتثير انتباه كل من يراها بخطواتها المتزنة التى يهتز من وقعها جسمها اللدن . . لم يمكن يتصور أنها تقصد مقهاه ، لذلك كان عجبه كبيرا حين رآها تقف بجوار المقهى ، وتحدق النظر فيمن يجلسون على المقاعد المتناثرة أمامه ، ثم تمد بصرها إلى داخله ، كأنما تبحث عن شخص بعينه ! ثم يبدو عليها كأنما يئست من العثور على ضالتها ، فتكف عن التحديق فى داخل المقهى وخارجه ، وتقترب بحذر من أحد الزبائن ، وتهمس فى أذنه ببضع كلمات لا يلبث الرجل بعدها أن يشير إلى حيث يجلس هو .. ويوجه نظرها إليه ! .

وزاد عجبه حين رأى تلك الشابة تتجه إليه.. وهى تمشى على استحياء وقد صبغ الخجل وجهها الجميل بلون الورد، حتى إذا أصبحت على مقربة منه ، قالت له بصوت عذب رقيق ، وهى تحاول أن تغطى وجهها الباسم بطرف ملاءتها الأملس ، فى حركة كلها إثارة وإغراء :

ـ صباح الخير . . . يامعلم ! . .

ولم يرد المعلم على تحيتها ، فقد ألهته المفاجأة عن الرد ، وشغله النظر إليها عن الكلام ! فأدنت رأسها منه ، ومالت بجسمها قليلا عليه وقد انحسرت الملاءة الحريرية عن رأسها الصغير ، الذى تدلت منه

خصلة كبيرة من شعرها الأسود الفاحم ، تداعب خدها الأملس الناعم وانكشف صدرها المرتفع الملىء ، وقد برز منه ثديان كبيران، يكادان يطفران من فتحة ثوبها الأحمر الضيق .. وقالت له وقد زاد خجلها ، واتسعت ابتسامتها ، وبدا له وجهها الخمرى المستدير ، وكأنه صحفة منتقاه من الفواكه الناضرة :

ـ أنا بقول صباح الخير يامعلم مرسى . . هوه عليوة مش هنا ؟ .

وانتبه المعلم مرسى من دهشته على صوتها العذب ، ونظر إليها نظرة طويلة قبل أن يجيب على سؤالها ، وشعر بشىء من الارتباك حاول أن يخفيه فلم يستطع ، وتلعثم لسانه وهو يقول :

ـ ع ع . . عليوه ؟ أيوه هنا . . لا مش هنا دلوقتى . . ده راح يشترى بن من عند الحاج مصطفى البنان وحيرجع حالا . هو حضرتك ولا مؤاخده عاوزاه ؟ .

فندت من فمها الشتيت ضحكة قصيرة ، ونظرت إليه متعجبة وهى ترى ماظهر عليه من ارتباك ، وماأصابه من تلعثم ! ثم قالت له وهى تغمز له بعينها غمزة طار لها صوابه :

ـ يوه . . يامعلم ! هو أنت ماتعرفنيش ؟ ده أنا نواعم . . نواعم مراته ! .

ووجد المعلم مرسى نفسه يقوم من على مقعده دون إرادة ، وهو

لايزال متأثرا بضحكتها الناعمة ، وغمزة عينها الساحرة ، ويقدم لها كرسيا ، وقد احمر وجهه ، وارتعشت يده ، وهو يمدها بسرعة ليصافحها ويقول :

ـ أهلا وسهلا . . أهلا وسهلا . . يا ألف مرحب . . اتفضلى . . اتفضلى استريحى . . زمانه جى .

وجلست نواعم والابتسامة الحلوة لاتزال تعلو فمها ، وجلس المعلم مرسى ، وهو لايزال مضطربا ، وسكت لحظة استطاع فيها أن يستعيد هدوءه ، ثم قال :

ـ خطوة عزيزة .. القهوة نورت .. تشربى إيه ؟ .

وغضت نواعم طرفها بعد أن نظرت إليه بدلال وقالت له :

ـ ولا حاجة يامعلم . . أنا متشكرة خالص . . أصل أنا جاية من البيت على طول ! .

فتبسم المعلم مرسى وقال لها وهو يحدق فى وجهها بشراهة :

ـ لأ . . لازم تشربى حاجة . . مايصحش . . تشربى كازوزة . . أنا حاجيب لك كازوزة . . أصل النهارده حر شوية ! .

والتفت إلى أقصى المقهى حيث يقف العامل المكلف بإعداد المشروبات ، وصاح فيه بأعلا صوته :

ـ واد ياعباس .. هات قزازة كازوزة للست .. بس نقيها سافعة سـاقعة قوى !.

ومضت لحظة قبل أن يحضر العامل الزجاجة ويضعها أمام نواعم لم يكف فيها المعلم مرسى عن النظر إليها، ثم قال :

ـ ياترى بقى إيه الصدفة السعيدة اللى خلتك تيجى القهوة النهارده؟ هو بلا قافية مش عليوة كان معاكى الصبح ؟.

وضحكت نواعم ضحكة طويلة رنانة اهتزت لها أركان المعلم مرسى وجوارحه، وجعلت تعبث بطرف الملاءة، وتتظاهر بالخجل، وهى تحاول أن تغطى النهدين الكبيرين الرابضين على صدرها الجميل.. كأنهما قالبين من الزبد النقى، وقالت :

ـ ولا حاجة يامعلم.. بس أصل عليوة نسى يفوت لى أجرة الاودة، ولما جه صاحب البيت وزعق.. قلت اخطف رجلى أجيب من عليوة الفلوس.. وارجع على بال مايلم من الجيران..

وافتر ثغر المعلم مرسى عن ابتسامة كبيرة وهو يقول :

ـ دى فرصة سعيدة قوى، ده احنا زارنا النبى.. حالا.. زمان عليوة جاى.. ده مش حيغيب.

ولم يكد يتم كلامه حتى ظهر عليوة، وأبدى دهشته لوجود

زوجته فى المقهى بجوار المعلم . وطمأنته زوجته بقولها إنها لم تحضر إلا لتأخذ أجرة الغرفة ، بعد أن حضر صاحب المنزل وألح فى طلبها .

وبان الضيق على وجه عليوة لهذا الطلب ، ولاحظ المعلم مرسى هذا الضيق ، وأدرك أنه لايملك المبلغ المطلوب ، فصاح فيه قائلا وقد انتابته نوبة كرم طارئة :

ـ زعلان ليه ياعليوة ؟ إن ماكانش معاك فلوس ياخويا . . أنا معايا ! هى الناس مش لبعضيها والا إيه ؟ عاوز كام . . قول . . إتكلم . . عاوز كام ؟ .

وكان عليوة ينظر إلى المعلم مرسى وهو يقول ذلك الكلام ، والدهشة تملأ وجهه ، فهو يعرف بخل المعلم ، ويعرف حرصه وحبه الشديد للمال ، وتذكر المشاجرات الحادة التى كانت تحدث بينهما دائما أو بينه وبين بعض الزبائن إذا حدث خطأ فى الحساب . . ولو كان المبلغ تافها . . لايعدو القرش الواحد ، أو إذا أخر له أحدهم ثمن المشروب . وزاد من دهشته أن رأى المعلم يمد يده إلى جيبه فيخرج حافظة النقود الضخمة ، ثم يخرج منها عددا كثيرا من الأوراق المالية ذات العشرة جنيهات والخمسة ، ويعبث بها ، ثم يقوم من مكانه ، ويقترب منه وهو يقول :

ـ ماتقول ياعليوة عاوز كام ؟ أنا تحت أمرك . . وأنا سداد من جنيه لعشرة ! . قول ياأخى . . وماتخليش مراتك واقفة كده . .

وتفرج الناس عليها وتكسفها مع صاحب البيت ؟ .

وكانت نواعم تستمع إلى ذلك الحوار الذى يدور بين زوجها وبين المعلم مرسى وهى صامتة ، ووجهها يفيض بشرا وحيوية ، ولكنها عندما رأت المعلم مرسى يعرض النقود على زوجها ويلح عليه ، لم تستطع السكوت ، ونظرت إلى زوجها نظرة عجب وقالت له مشجعة :

— ماتتكلم ياعليوة وتقول عاوز كام .. وبلاش تتعب المعلم معاك ؟ هو انت مش بتاعه يا أخى ؟ وإن ماكنتش تاخد من المعلم حتاخد من مين ؟ والنبى ده كتر خيره اللى عمال يلح عليك بالشكل ده .. وبنا طايحرمناش منه ! .

ولم يجد عليوه بدا من أن يمد يده ويأخذ من المعلم مرسى المبلغ المطلوب ويعطيه لزوجته . ولم تترك له زوجته فرصة شكر المعلم ، فقد قامت هى بهذه المهمة التى ارتاح لها المعلم ! . وبدت علامات هذه الراحة ظاهرة على وجهه وهو يودعها بحرارة عندما استأذنت منه فى الانصراف ، وعيناه تكادان تلحقان بها ، ولا تكفان عن التحديق فى جسدها الرخص ، وهى تمشى ببطء ، وتتلوى فى مشيتها ، كأنها راقصة بارعة ترقص على نغمات موسيقى هادئة !

وتغيرت معاملة المعلم مرسى لعامله عليوة منذ ذلك اليوم ، ولم تعد الخلافات الكثيرة التى تحدث بينهما دائماً ، تثور ، ولم تعد كلمات السباب ونظرات الغضب ، وإشارات التهديد ، تخرج من فم المعلم ، أو تبدو

على وجهه الضخم أو يهتز لها شاربه الغزير .. كما كان يفعل معه كلما تأخر في تلبية ندائه ، أو أخطأ في عدد الطلبات ، أو توانى في خدمة الزبائن.. بل حل محلها نوع غريب من الظرف المتكلف ، والرقة المصطنعة ، وتحولت النداءات الغاضبة التي اعتاد أن يسمعها .. وكأنها رصاصات تخترق أذنيه . وتلهب رأسه . . إلى كلمات هادئة ، ونداءات مهذبة .. كان أحيانا يشك في أنها صادرة من المعلم مرسى ، فتوة الحى ، وصاحب السلطان العريض ! .

ولم يستطع عليوة أن يعلل ذلك التغير الذى طرأ على المعلم مرسى .. ولا أن يعرف الأسباب التى دفعته إلى اتخاذ ذلك الأسلوب المهذب.. الذى يحاول أن يجعله وسيلة للتفاهم بينهما ؟..

وبلغ عجبه أقصاه ، حين رأى المعلم مرسى يزوره فى بيته عندما اضطره المرض إلى أن يلازم فراشه أياما ثلاثة ! وكان فى كل مرة يدخل عليه ويده محملة بأنواع الفاكهة ، أو الحلوى ، وهو الذى لم يكن يترك مكانه من المقهى إلا حين يغلق أبوابه ، ولم يكن يأبه لمرض أى عامل ، أو يفكر فى زيارته مهما كانت درجة مرضه من الخطورة .. بل إن عجبه تحول إلى دهشة عظيمة ، حين أحس به وهو يضع بجواره أجره اليومى دون أن ينقص منه شيئا !..

وعندما عاد عليوة إلى عمله ، بعد أن شفى من مرضه ، لاحظ أن المعلم كان يرفق به كثيرا ، ويطلب منه أن لا يجهد نفسه ، ويحثه على الجلوس كلما بدا عليه شىء من التعب !..

وتطورت العلاقة بينهما بعد ذلك ، فلم تعد مجرد علاقة بين عامل وصاحب عمل ، بل أصبحت أشبه بعلاقة بين صديقين حميمين ، أو بين أخوين شقيقين ! ، إذ لم يكتف المعلم مرسى بإبداء عطفه على عليوة ، بل زاد فرفع أجره اليومى من أربعين قرشا إلى خمسين . وكان كثيراً مايدعوه بعد انتهاء نوبته إلى الجلوس معه ، وتناول بعض المشروبات ، أو يشاركه فى تدخين النارجيلة أو (الجوزة) ، ثم يتبادلان الحديث فى شتى الموضوعات ، ولا ينسى خلال ذلك أن يسأله عن زوجته نواعم ، وأن يصفها بأنها بنت حلال !. ثم يوصيه بها ، وهو يتظاهر بحرصه على سعادته وهنائه ، ويخفى نظرات الحسد التى تومض فى عينيه ! .

وكان عليوة من السذاجة بحيث لم يفطن لما يجول فى نفس المعلم من نوايا خبيثة ، وأفكار شيطانية . وكان إذا عاد إلى بيته ، أخذ يحدث زوجته نواعم بما طرأ على المعلم من تغير ، وبما يحسه منه من عطف ، وبما يسمعه منه من تقريظ لها ومديح ، وبما يوصيه بها من خير ورعاية ، ثم يختم حديثه بقوله :

— أنا مش مصدق يا نواعم إن ده يحصل من المعلم مرسى ؟ بقى ده معقول .. لكن ربنا قادر على كل شىء . . وسبحان مغير الأحوال ! .

ولم يكن يلاحظ وهو يحدثها مايظهر فى عينيها من لمعان وبريق ، أو يرى مايبدو على وجهها من علامات الزهو والخيلاء ! .

وازدادت العلاقة بين المعلم وعامله على مدى الزمن توثقا ، ولم تعد تقتصر على جلوس عليوة مع المعلم فى المقهى بعد انتهاء عمله ، يتبادلان الحديث ، أو يتناقلان (الجوزة) ، بل تعدتها إلى أن أصبح عليوة يدعو المعلم ـ وبتشجيع منه ـ إلى بيته ، ليتعما فيه ـ بعيدا عن أنظار الناس ـ بما يعدل مزاجهما ، ويزيدهما انسجاما ! وكان المعلم يرحب بهذه الدعوات ، ويذهب معه إلى البيت ، ويقضى فيه سهرات ممتعة ، تمتد أحيانا حتى الصباح !

وكثرت زيارات المعلم لعليوة فى منزله ، وكان فى كل مرة يحمل معه من المآكل والمشرب مايلذ ويطيب ، وينفق على ذلك بسخاء ! .

وكانت نواعم تستقبل المعلم مرسى كلما جاء .. بما يليق به ـ باعتباره المعلم والضيف ـ من حفاوة وترحاب . وكانت الفرحة تغمرها كلما رأته مقبلا .. يحمل بين يديه ماينوء بحمله ـ وكانت فى بادىء الأمر تتظاهر بالحياء كلما وجه إليها نظراته النهمة ، أو تملقها بعبارات المديح والثناء ، فتطأطىء رأسها ، وتغمض عينيها ، ويشرق وجهها بابتسامة رقيقة ، وكانت هذه الحركات تزيده تقربا منها ، وتملقا لها . ولم تلبث ـ بعد أن تطورت عباراته وإشاراته إلى غزل صريح ، ورغبة مكشوفة ـ أن أصبحت تحس لها بنشوة ، وتشعر معها بالغرور ! ودفعها ذلك إلى أن تتمادى فى إثارة مشاعره بدلالها ، وأن تتعمد إيقاظ غرائزه بما كانت

مرتدية من ملابس ضيقة ، تكشف عن جمال جسمها ، وفتنة صدرها ، وبما كانت تزين به وجهها الجميل من مساحيق . وكانت ضحكاتها الناعمة ونظراتها الحالمة تجعله كالنائم أو المسحور ! .

ولم يكن عجيباً بعد أن وصلت العلاقة بين المعلم مرسى وعامله عليوة إلى هذا الحد .. أن يوهمه بأنه أصبح موضع ثقته ، وأن يؤكد له ذلك بأن يجعله رسوله الأمين إلى تاجر المخدرات الكبير الذى يشترى منه هذه السموم ، ويحمله من المال مالم يكن يحلم برؤيته ! .

ولكى يثبت عليوة للمعلم أنه أهل لهذه الثقة ، كان يقوم بما يعهد به إليه خير قيام ، فيحمل تلك المبالغ الكبيرة إلى التاجر دون أن يفكر فى عدها ، أو اختلاس بعضها ، ثم يعود بالبضاعة المحرمة إلى المعلم دون أن تمتد يده إلى شىء ولو ضئيل منها .

وكان المعلم يظهر له فى كل مرة يعود فيها بالبضاعة رضاه عنه ، وإعجابه به ، ثم يمنحه بضع قطع صغيرة من النقود .. كان عليوة يأخذها شاكراً .. وعلامات السرور تملأ وجهه وتطل من عينيه ! .

وتعاقبت الأيام .. وتتابعت السهرات . حتى أصبحت نواعم تهتم بها ، وتتأنق فى ترتيبها ، وتعد لها من أول النهار ! ، وكانت الإشارات المختلسة ، والغمزات الخفية ، والهمسات الناعمة . لا تنقطع بينها وبين المعلم مرسى ! . حتى اللمسات المحمومة لم يكونا ليعفا عنها .. كلما أتيحت لهما الفرصة ، أو غفلت عنهما عينا عليوة ! .

ولم يكن عليوة يطلب من دنياه أكثر مما أعطته له . وكان يدعو من صميم قلبه أن يدوم هذا الحال ، وأن تستمر هذه الصحبة . . حتى لا يحرم من عطف المعلم وخيره الكثير ! .

ولكن الدنيا لم تستمر فى العطاء كما طلب ، ودعوته لم تجب كما تمنى . . وبدأ الخطر يحوم حوله ، والخوف ينتابه ! .

وكان بدء ذلك فى صبيحة أحد الأيام ، وعليوة يروح ويجىء بين موائد الزبائن ، ويلبى طلبات العملاء ، ويملأ المقهى صياحاً وضجيجاً بصوته القوى . . وهو ينادى على المطلوب ، أو يستعجل تجهيزه . . حين فوجىء برؤية بضعة أشخاص لم يرهم من قبل يدخلون مسرعين إلى المقهى ، ويأمرونه . . هو وزميله بالوقوف فى أماكنهم ، وعدم التحرك ! . كما رأى بعضاً منهم يلتفون بالمعلم ، ويقودونه إلى داخل المقهى ، ويبدأون فى تفتيشه بعنف . .

وعلى الرغم من أنه كان هو وزميله يرتعدان من الخوف ، وتصطك أسنانهما من الرعب ، فقد كان المعلم يبدو رابط الجاش ، ويتظاهر بعدم المبالاة وينظر إلى الضابط الذى يقوم بتفتيشه . . نظرات مليئة بالشماتة والاستهتار ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة صفراء وهو يقول له :

— يابيه ما تتعبش نفسك . . مش حتلاقى حاجه والله ! . يابيه

أنا مظلوم وبرىء .. ولا باشتغلشى فى الأصناف دى ، وحرام اللى بتعملوه فينا ده كل شوية ! .

ولكن الضابط لم يأبه بقوله ، واستمر فى تفتيشه ، ولما لم يجد شيئاً مما يبحث عنه .. تركه محنقاً . وأخذ يفتش هو ورجاله فى كل مكان فى المقهى ، والغيظ يبدو على وجهه .. كلما انتهى من موضع ، ولم يجد فيه شيئاً . حتى إذا يئس من العثور على بغيته ، نظر إلى المعلم مرسى نظرات رهيبة ، وجمع رجاله ، ثم خرج من المقهى وهو يقول له بصوت يتجلى فيه الوعيد :

— معلهش يامعلم مرسى . المرة دى جت سليمة ! لكن الجايات أكتر من الرايحات ! .

فضحك المعلم ضحكة طويلة ساخرة ، وقال له مستهزئاً ، وهو يودعه بصوت لم يسمعه الضابط :

— إبقى قابلنى .. ياحضرة الظابط ! .

ثم التفت إلى غلامه عليوة .. الذى كان لايزال واقفاً مبهوراً .. وقال له مشجعاً :

— مالك ياواد واقف زى الصنم كده ووشك مصفر .. إنت خايف والا إيه ؟ ياواد خليك تقيل وشد حيلك . ومايهمكش ! ..

ومضى على هذا الحادث شهر أو يزيد ، والمعلم مرسى لا ينقطع عن زياراته الليلية لمنزل صديقه عليوة وقضاء سهراته الطويلة هناك ، ولا يكف عن غمره بعطاياه وهداياه ! وزادت هدايا المعلم .. فلم تعد تقتصر على ما يحضره معه من لذيذ المأكل والمشرب ، أو على ما يمنحه لعليوة من النقود كلما قام بعمل من أعماله المشبوهة ونجح فيها ، بل تعدتها إلى الحلى الثمينة ، والأقمشة الفاخرة .. يقدمها لزوجته نواعم بمناسبة وبدون مناسبة ! .

وفى ليلة من تلك الليالى كان المعلم مرسى يجلس فى مكانه المعهود من الغرفة الصغيرة وبجواره عليوة ، وبين أيديهما (الجوزة) يتبادلانها الواحد بعد الآخر ، ودخانها الغريب الرائحة يملأ الجو ، وبالقرب منهما صحاف الفاكهة ، وموقد النار ملىء بالفحم المشتعل ، ونواعم تخدمهما وتقدم لهما كل ما يحتاجانه ، ومايزيد فى بهجتهما ، وهى تختلس النظر من — حين إلى آخر — إلى المعلم فيمتلىء نشوة وفرحاً .. عندما طرق باب الشقة الخارجى طرقاً شديداً متوالياً ، فارتعدت فرائص الجميع ، وظهر عليهم الوجوم من شدة الرعب ! . وقامت نواعم وهى لا تكاد تمسك نفسها من فرط الاضطراب ، وقد استبد بها العجب لهذا الطارىء غير المنتظر .. الذى يطرق بابهم فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل . ومشت إلى الباب بخطوات بطيئة وهى تتوجس خيفة ، ولكنها قبل أن تصل إليه سمعت خلفها همساً خافتاً وحركة سريعة ، فالتفتت لترى ما يحدث ، فإذا بها ترى المعلم مرسى يقوم

بسرعة ، ويجمع كل ما كان أمامه من أدوات التدخين، ويسرع بإلقائها من نافذة الغرفة المطلة على الحارة الخلفية ، ثم يقف فى مكانه .. ونظراته متجهة إلى الباب . فزاد رعبها ، وتوقفت عن السير ، وهمت بالرجوع ، ولكن الطرقات الشديدة التى زادت سرعتها ، اضطرتها إلى أن تمد يدها المرتعشة وتفتح الباب ..

ولم تكد تفتحه ، حتى اندفع إلى داخل الغرفة مجموعة كثيرة من الرجال .. عرفت من ملابس بعضهم أنهم من رجال الشرطة ! فسرت الرجفة إلى جسدها ، وتسمرت قدماها بالارض ، وأخذت تنظر إليهم بذهول عظيم ! .

وتقدم إليها أحدهم ، وكان يبدو عليه أنه رئيسهم ، وسألها بلهجة صارمة :

— مش عليوة خليل العيوطى ساكن هنا ؟

ولم تستطيع الرد ، واكتفت بإيماءة من رأسها وهى تدخل الغرفة تعنى نعم .. وعندئذ تقدم الضابط ومن ورائه رجاله إلى وسط الغرفة ، وأخذ يحدق فيمن فيها بإمعان ، ثم سألها مرة أخرى :

أمال فين هوه ؟ ده احنا معانا أمر من النيابة بالتفتيش !

ولم ينتظر الجواب .. فقد أدرك من اتجاه نظرها إلى حيث كان يجلس عليوة منزويا فى ركن الغرفة .. أنه هو ! . وكان عليوة ينظر إلى ما يجرى

حوله دون أن يهتم به .. وكأنه فى حلم ! ولكن رؤيته للضابط وهو يقترب منه ، انتزعته من أحلامه وجعلته يهب من مكانه واقفا ، ويحدق فيه دون أن يتكلم ، أو يحرك ساكنا !

ونظر إليه الضابط نظرة ساخرة .. ولم يأبه به ! وأخذ يجول بعينيه فى أنحاء الغرفة حتى وقعتا على المعلم مرسى وهو واقف بجوار النافذة ، وعلى شفتيه ابتسامة باهتة ، وفى عينيه بريق مخيف ! فأدرك بفراسته مافعله ، ولكن ذلك لم يفت فى عضده ، واقترب منه وهو يقول له مهددا :

— والله وقعت يامرسى .!

ولكن علامات الخيبة لم تلبث أن ارتسمت على وجهه ، بعد أن انتهى من تفتيشه.. دون أن يجد شيئا مما يبحث عنه ! .

وأثار هذا الفشل حنق الضابط ، وجعله ينظر إليه شزرا ، وزادته نظرة السخرية التى بدت فى عينى المعلم مرسى غيظا وسخطا . ولكنه لم يجد مفرا من أن يتركه ليواصل البحث فى أنحاء الغرفة عما جاء من أجله . وكانت مظاهر سخطه تبدو واضحة فى حركات يديه السريعة وهو يفتش فى محتويات الغرفة القليلة ، وفى هزات رأسه الكثيرة ونظرات عينيه الملتهبة التى كان يوجهها - بين لحظة وأخرى - إلى المعلم مرسى ، الذى كان يقف فى مكانه ساكنا ، يراقب حركات الضابط بهدوء عجيب وكأنه واقف فى مقهاه يراقب عاملا من عماله ! .

وعندما امتدت يد الضابط إلى (دولاب) الملابس الوحيد الموجود في الغرفة ، وبدأ يخرج مافيه من ملابس ، ويفتشها بدقة ، لم ير البريق الخاطف الذى لمع فى عينى المعلم مرسى ، ولم يلاحظ الفرحة التى كست وجهه المغضن !.

وانفرجت أسارير الضابط المنقبضة ـ عندما عثر فى ثنايا أحد جلابيب عليوة على حزمة صغيرة أثارت انتباهه ـ فترك الجلباب ، وفتح الحزمة بسرعة ، وكانت فرحته كبيرة عندما رأى فى داخلها الشىء الذى يبحث عنه !.

وكان أول مااتجه إليه نظره هو المعلم مرسى ، ووقف برهة وهو ينظر إليه بحقد وكراهية ، ثم اقترب منه ببطء حتى كاد يلتصق به ، ومد إليه يده بالحزمة الصغيرة . . حتى كادت تلمس وجهه ، وقال له بلهجة مليئة بالشماتة :

ـ إيه رأيك فى الحزمة دى يامعلم ؟ مشق قلت لك إن الجايات أكتر من الرايحات ! واهى المرةدى جت بسرعة . . ودلوقتى مش حتقدر تفلت يابطل !

وضحك الضابط ضحكة عالية ، وهو يضع يده على كتف المعلم مرسى ، ويقول له ساخراً :

ـ ماتتكلم يامرسى . مالك خرست كده . . إنت خايف والا إيه؟

ولكن المعلم لم يتكلم ، ولم يبد عليه ماكان ينتظره الضابط من علامات الخوف ! ولبث فترة طويلة يحدق فى الضابط ، ويتأمل فيه ، وكأنه لم يسمع قوله ! فثار الضابط ، واشتد غضبه ، وصاح فيه بحدة قائلا :

— ماتتكلم يامرسى .. مالك واقف مبلم كده؟ إنت ماسمعتش اللى أنا قلته ؟

وقهقه المعلم مرسى من قول الضابط ، ودوت قهقهته فى أنحاء الغرفة الساكنة ، والضابط يحملق فى وجهه بذهول شديد ، حتى إذا انتهى من قهقهته قال له :

— كلام إيه ده ياحضرة الضابط اللى بتقوله ؟ أنامالى ومال ده كله ! وإذا كنت لقيت حاجة من اللى انت بتدور عليها .. أنامالى؟ إنت ناسى يابيه إنك لقيتها عند عليوة ، وإن البيت ده مش بيتى ! أنا هنا ضيف يابيه .. ضيف وبس ! عليوة صبى .. وبيشتغل عندى .. عزمنى فى بيته .. قبلت العزومة وجيت .. فيها حاجة دى ؟ مالى أنا بقى إذا كنت لقيت فى بيته ممنوعات ؟ هو إنت بلاقافية لقيت حاجة معايا ؟ صاحب البيت هو المسئول .. واهو قدامك أهوه .. إسأله يابيه .. وحقق معاه هوه ! أنامالیش دعوه . وهو أنا حاعلمك القانون يابيه ؟ ده إنت عارفه .. وسيد العارفين كمان !

وأفحم الضابط هذا الكلام ، فسكت وقد بدت على وجهه دلائل

الهزيمة ، وكان قد نسى فى غمرة انتصاره وفرحته أنه أمام مجرم عتيد ، وأن هذا المجرم ليس من الغباء بحيث يمكن اصطياده بهذه السهولة . ووجد نفسه يحول عنه وجهه ببطء ، ويتجه إلى حيث يقف عليوة ، ويواجهه بما يحمله فى يده من المخدر ، ويقول بصوت بذل جهده لكى يجعله طبيعيا ، ولكيلا يظهر أثر الهزيمة أو الضعف فى نبراته :

— الحشيش ده بتاعك ياعليوة ؟

وكان عليوة ينظر إليه ، ويسمع كلامه دون أن يعى منه شيئاً .. كان يبدو كالأبله أو المعتوه ! . وكان وجهه ممتقعا ، وجبينه ينضح بالعرق ، وعيناه تنطقان بأفظع أنواع الفزع ، وشفتاه ترتجفان كأن بها حمى راعشة !

وأثر منظره العجيب فى نفس الضابط ، فرثى له ، وأحس بالشفقة عليه ، وأدرك من حالته أنه كان ضحية سهلة لذلك المجرم الماكر . ولكنه لم يجد بدا من أن يسأله عن المخدر .. فصاح فيه قائلا :

— ماترد ياعليوه ؟ الحشيش اللى لقيناه فى دولابك وبين هدومك بتاعك .. والا لأ ؟ قل ماتتعبناش !

وانتفض عليوة من ذهوله عندما سمع ذلك الاتهام ، وأراد أن يتكلم ، ولكن الكلمات كانت تخرج من بين شفتيه المرتجفتين كأنها نفثات محموم .

ـ أ. .أبدا يابيه . . أ..أنا ماعنديش حاجة من دى ، و. .وعمره مادخل بيتى ، أنا مظلوم يابيه . . مظلوم والله العظيم ! يابيه ده أنا راجل غلبان وعلى قد حالى ، حاجيب الكمية الكثيرة دى منين ؟ هو . .

ولم يستطع أن يتم كلامه ، فقد منعه البكاء .وخلبته الدموع الغزيرة التى تدفقت من عينيه عن مواصلة الكلام .

وحاول الضابط أن يجعله يتكلم لكى يعرف منه مصدر هذا المخدر وأن يشجعه على الاعتراف باسم الشخص الذى يظن أنه وضعه فى بيته . وكان وهو يلح عليه فى معرفة الإسم يتمنى ـ فى قرارة نفسه ـ لو أنه اتهم المعلم مرسى أو أظهر شكه فيـــه !. ولكن عليوة لم يستطع أن يعلل سبب وجود المخدر فى ملابسه ، ولم يجرؤ على أن يتهم المعلم أو أن يوجه إليه شيء من الشك . . وإن كانت عيناه لم تنقطعا . . وهو يتكلم عن النظر إليه.. كأنه يستنجد به ، أو يلتمس منه العون فى الخروج من هذا المأزق الخطير !

ولم يخيب المعلم مرسى رجاءه ، فاقترب منه ، وأخذ يربت على ظهره برفق وهو يتظاهر بالشفقة عليه والتأثر لما هو فيه . ثم قال له مشجعا بلهجة يختلط فيها النفاق بالخبث :

ـ ماتجمد ياعليوة أمال . . وتخليك راجل ! هو انت ياأخى رايح المشنقة ؟ والا انت أول واحد يتمسك فى حاجة زى دى ؟ بكرة ياسيدى النيابة تفرج عنك وتخرج منها زى الشعرة من العجين ! .

وعندئذ تقدم الضابط منهما وأمر رجاله بالقبض عليهما ، ثم سار بهما إلى مركز الشرطة حيث كتب المحضر ،وأثبت وجود المخدر ،وسجل اقوال المتهمين ، ثم أمر بوضعهما فى الحجز إلى أن يعرضا على النائب المحقق فى الصباح .

ولم يستطع النائب الذى قام بالتحقيق - على الرغم من مهارته وحذقه - أن يجعل المتهمين يعترفان بملكيتهما للمخدر . فقد أصر المعلم مرسى على قوله بأنه لايملكه ولا يعرف مصدره .وأنه لم يكن سوى ضيف دعاه عليوة للزيارة فلبى الدعوة . . وليس فى ذلك شىء من الغرابة ! .

كما صمم عليوة على ادعائه بأنه- على الرغم من وجود المخدر فى بيته وبين طيات ملابسه ، واعترافه بوجوده - لا يمتلك هذا المخدر ، وأنه لم يكن يعلم بوجوده ، كما أصر على جهله بالوسيلة التى وضع فيها المخدر فى مسكنه ، وعدم معرفته الشخص الذى وضعه فيه ! .

وعندما انتهى التحقيق أصدر النائب أمره بالافراج عن المعلم مرسى فورا وبلا ضمان ، لعدم وجود مايثبت صلته بالمخدر ! كما أمر باستمرار حبس عليوة ، وإحالته إلى المحكمة .

ولم ينس المعلم مرسى - قبل أن يغادر دار النيابة - أن يتصنع الحزن الشديد لأن عليوة لم يفرج عنه ، وأن يتظاهر بالأسف الكثير وهو يشجعه على الصبر ، ويؤكد له أن قضيته تافهة ، وأن المحكمة سوف تبرئه .. خصوصا وأنه سيوكل عنه محاميا كبيرا للدفاع عنه ! ثم يطلب

منه أن يطمئن على بيته، ويقسم له على أنه سوف يرعاه ، ويوفر لزوجته كل ماتحتاجه ، وأنه لن يدعها تحس بالحرمان من شيء سوى غيابه الذى لن يطول ! .

ولم تفد محاولات المحامى الذى وكله المعلم مرسى عن عليوة فى نفى تهمة حيازة المخدر عن موكله ، وإن كان قد استطاع أن ينفى عنه تهمة الاتجار فيه .

وانتهت القضيـة بالحكم على عليوة بالسجن ثلاث سنوات مع الشغل .

وتلقى عليوة هذا الحكم بذهول شديد ، ودهشة بالغة ، فقد كان الأمل فى البراءة يراوده - منذ أن قبض عليه - وبفضل تشجيع المعلم مرسى ، وتأكيده له .. أن المحكمة لن تلبث أن تبرئه وتطلق سراحه بعد أن يظهر لها المحامى الكبير الذى وكله عنه . . عدم مسؤليته عن وجود المخدر فى بيته .

وعند ماخرج من قاعة المحكمة والحراس من حوله يقودونه إلى السجن لقضاء مدة العقوبة . . لم يكن يحس بما يجرى حوله . وكان زائغ العينين ، تائه النظر ، يحدق بغباء شديد فى الناس الذين يمر بهم . . وفى زوجته نواعم التى كانت تبكى بحرقة .. وفى المعلم مرسى الذى كان يلاحقه بكلمات التشجيع وعبارات المواساة . . حتى وارته سيارة السجن عن عيونهما ! .

وتتابعت الأيام والشهور . . وهى تمر على عليوة فى السجن طويلة مريرة ، يقضى نهاره فى عمل شاق مضن ، وليله بين تفكير مؤلم ، وأحلام مزعجة ! وكان أغلب تفكيره فى ذلك المخدر اللعين الذى وجدوه فى بيته ، ودخل بسببه السجن ! .

وكان يسأل نفسه كثيرا عن كيفية دخوله مسكنه ؟ وعمن جاء به ، ووضعه فى (دولابه) ، وأخفاه بين طيات ملابسه ؟ ! . وكانت كل شبهته محصورة فى المعلم مرسى ، وكل شكه متجه إليه ! فهو الذى يتجر فى هذا المخدر ، وهو وحده الذى يدخل بيته ويستطيع الوصول إلى (دولابه) ! وكان الذى يثيره هو أنه وضعه دون علمه ، ودون أن يخبره بمكانه ! ولو أنه أخبره . . لكان من الممكن أن يتخذ هو الحيطة ، وأن يخفيه فى مكان بعيد لا تصل إليه أيدى الباحثين عنه بتلك السهولة ! .

وكانت حيرته تزداد عندما يقفز إلى خاطره ذلك السؤال الغريب . . لماذا يفعل المعلم مرسى ذلك ؟ إذا كان فعله ليبعد عن نفسه أنظار رجال الشرطة الذين يراقبونه ، ويتربصون به الدوائر . . فلماذا يعرضه هو وزوجته لهذا الخطر الذى يريد أن يتجنبه ؟ . وكان يقف لحظات طويلة كلما ذكر زوجته ، ويسأل نفسه وبوادر الشك تتسرب إليه . . هل كانت نواعم تعلم بوجود ذلك المخدر فى بيتها ؟ وهل أخبرها المعلم بوجوده . . وبرغبته فى إخفائه فيه ؟ إنها ربة البيت التى تعيش فيه ، وتعرف خباياه ، وهى التى ترتب أثاثه البسيط ، وتنظفه ، وهى التى

تطوى ملابسه وتضعها فى مكانها من (الدولاب) . فهل شاركته فى وضع المخدر ؟ أو كانت على علم بنواياه ؟ .

وكان شكه يزداد كلما جاءا لزيارته معا ، ورأى أمارات السرور والوفاق التى كانت تبدو على وجهيهما - على الرغم من محاولتهما إخفاءها بما كانا يتظاهران به من العبوس ، وما يتكلفانه من الحزن ! وعلى الرغم من كلمات الشكوى الزائفة . . التى كانت تهمس بها زوجته فى أذنه — لحرمانها من رؤيته . . وبعدها عنه ! . وصيحات التشجيع المصطنعة . . التى كان يعلو بها صوت المعلم مرسى ، وهو يخاطبه من خلال القضبان ! .

وأوشك شكه أن يبلغ درجة اليقين فى اشتراك زوجته فى هذه المكيدة . . عند مارأى زياراتهما تقل وتتباعد ، ومدتها تقصر وتتناقص ! . وكان فى بادىء الأمر يلتمس لهما الأعذار ، ويقبل بسلامة نية مايقدماه له من حجج واهية ، ويكتفى بالعتاب الخفيف . . عن اللوم والتوبيخ ! .

ولم يكن انقطاع المعلم مرسى عن زيارته بعد ذلك مفاجأة له ، فلم يكن يطمع فى أن يستمر فى زيارته طوال مدة سجنه ، ولكن الذى آلمه ، وزاد فى عذابه ، هو أن تتخلف زوجته أيضا عن زيارته ! وكان أشد ماأثار دهشته . . أن يحدث ذلك منها فى نفس الوقت الذى كف فيه المعلم مرسى عن هذه الزيارة ! .

وكان قلقه يشتد كلما حل موعد الزيارة دون أن تجىء ! ولم يكن يدرى سببا لغيابها ، كما إنه لم يكن يعرف ماذا يفعل لكى يطمئن عليها !.

وكانت الأفكار السوداء تهاجمه بلا رحمة ، والأسئلة الحائرة تلاحقه بكثرة . . عن سبب تأخرها ، وعن سر غيابها ؟ . . أهو المرض ؟ . . إن كان هو . . فلا بد أن يكون مرضا خطيرا ألزمها الفراش ، ومنعها من الحركة ! . أو هو حادث من حوادث الطريق — وهى كثيرة — أعجزها عن المشى . . وربما أدخلها المستشفى ! . وكان يتألم كلما وصل من تفكيره إلى هذا الحد ، ويشتد به الألم وهو يتصورها طريحة الفراش فى البيت ، وحيدة لا يعنى بها أحد ، ولا يهتم بعلاجها إنسان ! أو نزيلة إحدى المستشفيات الشعبية بلا رعاية ولا اهتمام ! أم تراها غادرت القاهرة ، وهجرت المسكن ؟ وكان يبكى عندئذ وهو يتخيل صاحب البيت القاسى ، وهو يطالبها بالإيجار شهرا بعد شهر ، وهى عاجزة عن الدفع بعد أن نفد مالديها من النقود — وهو يعلم أنها لم تكن تدخر منها الكثير — وبعد أن تخلى عن مساعدتها المعلم مرسى . . فتضطر إلى ترك البيت . . بعد أن تكون قد باعت كل مافيه ! . وهنا يفور دمه ، ويرتعد جسمه . . وهو يسأل نفسه . . ولكن إلى أين ؟ إلى أين ذهبت ؟ وفى أى مكان تعيش الآن ؟ هل سافرت إلى أهلها فى المنصورة ؟ أم لجأت إلى . . إلى . . ويقف شعر رأسه ، وتجحظ عيناه . . عندما يصل إلى هذه النهاية ! ويود أن يكف عن التفكير . . ولكنه لا يستطيع ، ويجد نفسه يعود إلى ما كان فيه ! ويواصل التفكير ، ويتساءل . . هل من الممكن أن تكون قد لجأت إلى المعلم مرسى بعد أن ضاقت بها السبل ،

واضطرتها الظروف القاسية إلى أن تلجأ إليه .. وأن تعيش معه ؟ . . تعيش معه . . أين ؟ وفى أى مكان ؟ ويلمع فى ذهنه خاطر رهيب ، ولكنه لايلبث أن يبعده عنه بسرعة . . وهو يلوم نفسه على تسرعها فى الشك وميلها إلى الشر . . حتى دفعته إلى أن يسىء الظن بزوجته وصديقه إلى هذا الحد ! وعندئذ يسأل نفسه سؤالا جديدا . . لماذا لايكون ذلك الرجل شهما وكريما ؟ . فيأخذها إلى بيته . . لا لتعيش معه وحده . . وإنما لتعيش مكرمة مع زوجته ، وفى وسط بناته ! .

وهكذا كان عليوة يعيش فى سجنه - بعد انقضاء مايزيد على السنة وبعد أن هجره أحبابه - فريسة للظنون الآثمة ، والهموم المدمرة ! .

وانتهز فرصة خروج أحد زملائه من السجن بعد انقضاء مدة عقوبته ، ووصاه بالذهاب إلى منزله ، والسؤال عن زوجته ، ومعرفة أسباب انقطاعها عن زيارته . وتوسل إليه أن لايتوانى عن زيارتها ، وأن لايتأخر فى العودة إليه بما عرفه من أخبارها .

وكان هذا الزميل عند حسن ظنه به ، فلم يقصر فى القيام بما كلفه به ، وعاد إليه فى أول زيارة .. ليخبره بأنه لم يجد لزوجته أثرا فى المنزل . . بعد أن أخلته ! وإنه لم يستطع معرفة المكان الذى انتقلت إليه . . على الرغم من أنه حاول معرفته من جاراتها ، ومن صاحب المنزل ! .

وكان لهذا الخبر وقعا سيئا فى نفسه ، ولكنه لم يكن فى إمكانه

أن يفعل شيئا سوى الانتظار والصبر. ومضت سنة أخرى من العذاب والقلق، وعليوة لايعرف شيئا عن زوجته! وكان يجهد فكره كثيرا وهو يحاول أن يهتدى إلى سر غيابها، وسبب هجرها له، أو يعرف أين ذهبت، ومع من تعيش؟. إلى أن قيضت له الظروف فرصة أخرى، بخروج زميل آخر من زملائه انتهت مدة سجنه، فالتمس منه أن يقوم بالبحث عن زوجته مرة أخرى، وأن لايكتفى بسؤال الجيران، وصاحب البيت، بل يذهب - إذا لم يدلوه - إلى مقهى المعلم مرسى، ويحاول أن يعرف منه مكان زوجته.

وكان يعلق أملا كبيرا على هذا الزميل، ويتمنى أن يعود إليه بما يطمئنه، ويهدىء روعه، ويبعد عنه شبح الهم الذى لايفارقه! وكان مما يشجعه على التعلق بذلك الأمل، ثقته فى أن هذا الزميل سوف يجد عند المعلم مرسى من المعلومات ماهو بحاجة إليه. وأن المعلم مرسى لن يمتنع عن مده من أخبار زوجته بما يريد، فهو.. دون غيره، الذى لابد يعرف أين ذهبت؟ وأين تقيم؟.

ولكن أمله لم يتحقق فى هذه المرة أيضا، فقد رجع إليه الرجل وأخبره بفشله - على الرغم مما بذله من جهد فى البحث عنها، وعلى الرغم من تردده بضع مرات على مقهى المعلم مرسى، ومحاولته استدراجه إلى الإدلاء بما يعرفه من أخبار زوجته ومصيرها - ولم يخف عليه زميله شكه فى صديقه المعلم مرسى، واعتقاده بأن هذا

الرجل - على الرغم من إنكاره - يعرف كثيرا من أخبار زوجته ، ويتعمد إخفاءه !.

وتأججت النيران في صدر عليوة وهو يسمع من زميله ذلك الكلام وعندما انتهت الزيارة وتركه زميله آسفا، رجع إلى غرفته وهو حزين مهموم ، يخيل إليه أن تلك الغرفة قد ازدادت ضيقا ، وأن ظلامها قد زاد حلكة ، وأن نفسه قد امتلأت بؤسا وغما !.

وتمدد في الفراش الخشن ، وأغمض عينيه ، وسبح بفكره في ظلمات نفسه ، ودياجير حياته ! وإذا به يرجع القهقرى إلى ماضيه ، إلى اليوم الذي نزل فيه إلى تلك المدينة الساحلية الصغيرة (المنصورة)، وهو يومئذ في التاسعة عشر ، ليعيش مع خاله إسماعيل ، ويساعده في عمله ، ثم ليتدرب على تجارة الخضر ، وبيع الفاكهة ، وليعد نفسه - كما قال له خاله - ليصبح رجلا قويا ، يعتمد على نفسه ، ويكسب لقمته بعرق جبينه ، وليمد أمه وإخوته الصغار بما يحتاجون إليه في قريتهم البعيدة من نفقة ، كان يمدهم بها خاله بعد وفاة والده .

وتذكر كيف سارت به الحياة في تلك المدينة ، وهو يعيش مع خاله سعيدا بعمله الشاق ، راضيا بحياته البسيطة ، يبذل أقصى جهده في مساعدة خاله ، وينتظر اليوم الذي يستطيع فيه أن يستقل بالعمل ، وأن ينهض بالعبء ، ويتطلع إلى اللحظة التي يكون له فيها عربة خاصة ، يحمل عليها بضاعته ، ويتنقل بها وحده ، ويعود إليه ربحها ، لا يشاركه فيه إنسان !.

ومن أجل ذلك أخذ يقسو على روحه ، ويقتر على نفسه، ويدخر من القروش القليلة التي يمنحها له خاله كل ما يستطيع ! . وكان يقترب من هذا الأمل بخطوات صغيرة ، ويدنو من ذلك الحلم ببطء شديد .. عندما ظهرت في حياته نواعم .. وتغيرت بظهورها حياته ! ولم يعد يفكر في العربة الصغيرة التي يحمل عليها بضاعته ، أو يحلم بالربح الضئيل الذي تدره عليه تجارته .. ويحتفظ به لنفسه .. لا يشاركه فيه إنسان ! . لم يعد يحلم بشيء من بذلك أو يفكر فيه ، وإنما أصبح كل همه أن يكون بالقرب من نواعم ، وأن يلفت نظرها إليه ، وأن يفوز بحبها له ، واهتمامها به ! .

وكان ما يكاد ينتهي من جولته اليومية مع خاله في حواري المنطقة ودروبها ، حتى يهرع إلى الركن المظلم الذي تحتله أم نواعم من الحارة الضيقة .. وبجوار البيت المتهدم الذي تسكن في إحدى غرفه الأرضية الرطبة ! . وقد استقرت فيه منضدة كبيرة تضيق بما عليها من العلب والأدوات التي تستخدمها في صنع ما تقدمه من القهوة والشاي والدخان لزبائنها من الباعة الجائلين ، وعمال المصانع الصغيرة القريبة . كما يتزاحم فوق رفها الوحيد عدد قليل من الصواني الصفراء ، والفناجين الصغيرة ، والأكواب الزجاجية الرخيصة ، ويلتهم جانبا كبيرا من سطحها القذر الإناء الأسود الكبير الذي يشرب منه الزبائن الماء . وموقد الغاز يعلو وجهه ، ويرتفع صوته ! وإلى جانبها دكة خشبية عتيقة ، يجلس عليها

رواد ذلك المقهى المتواضع . . كلما سنحت لهم الفرصة أثناء الظهيرة ، وبعد الغروب ، أوعقب الفراغ من العمل !.

وكان عليوة واحدا من رواد ذلك المقهى . . ولم يكن يقصده ـ فى أول الأمر ـ لذاته ، وإنما كان يضطر للذهاب إليه مع خاله الذى كان يفضل الجلوس فيه . . لقر به من مسكنه، وللترويح عن نفسه فى نهاية كل يوم بمداعبة صاحبته . . العجوز المتصابية ! وكان عليوة يجلس فيه على مضض ، وينتظر فراغ خاله من شرب الشاى وتدخين (الجوزة) بصبر نافد ! ومايكاد يراه ينتهى منهماويهم بالرواح . . حتى يتنفس الصعداء ويسبقه إلى البيت . . لكى يتناول عشاءه وينام ملء جفنيه . . إلى أن رأى نواعم ـ ذات يوم ـ وهى تقدم إلى خاله الشراب الذى طلبه . . بدلا من أمها التى اضطرها المرض إلى ملازمة مكانها من الأرض ، والاكتفاء بالإشراف على العمل منه . . فأسر قلبه جمـــالها ، وسحر عقله دلالها ، وأثار عجبه ماأفاضه الشباب على وجهها من نضارة ، وماعتلىء به جسمها من أنوثة ، ومالم يستطع ثوبها البسيط الرث أن يخفيه من نضج واستواء !.

كانت نواعم إسما على مسمى . . بشرة ملساء فى لون الخمر المعتقة وإشعاعها ، ووجه مستدير يترقرق فيه ماء الحياة وبهجتها ، وخدان أسيلان مشربان بحمرة خفيفة ، تشرئب لها العيون، وتتلمظ من أجلها الشفاه ، وعينان ناعستان ، عميقتان ، تخفيان فى أعماقهما رغبة عارمة ونداء صارخا ، وشفتان مكتنزتان كزر الورد ، تثيران المشاعر ،

وتغريان بالقبل ! وجبين أتلع عريض ، يعلوه شعر أسود غزير ، ناعم كالحرير ، ثائر لايستقر ، يتطاير فى الهواء ليداعب برفق خديها ويحجب بدلال عينيها ، ولا يحد من ثورته إلا المنديل الأحمر الجميل ، المطرزة أطرافه بزهور من الخيط الملون الرقيق ، يحدد معالم الوجه الوسيم ، ويزيده فتنة وملاحة ! حتى ضحكتها .. الضحكة الطروب ، ذات الذيول الطويلة ، كانت تذوب رقة ونعومة ، فتدغدع الحواس ، وتضرم النيران ! .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد عليوة يجلس على الدكة الخشنة نافد الصبر ، ينتظر انتهاء خاله من تناول شرابه على مضض ! ولم يعد يتلهف على العودة إلى البيت ليلتهم عشاءه ، ويندس فى فراشه ، وينام ملء عينيه حتى الصباح .

منذ ذلك اليوم لم يعد يفعل شيئا من هذا .. بل أصبح ينتظر عودته من جولته المعتادة فى آخر النهار بشوق ، ليجلس على تلك الدكة ، ويطلب لنفسه شرابا ، ويحدق فى نواعم وهى تقدمه له بوله ، ويتابع باهتمام حركاتها وهى تروح وتغدو بين المنضدة الحقيرة ، والدكة العريضة ، تضع المشروبات ، وتقدمها للزبائن ضاحكة الوجه ، باسمة الثغر ! فإذا ماحان وقت الرواح ، إعتذر لخاله عن مصاحبته إلى البيت بعدم رغبته فى النوم مبكرا ، واستأذنه فى البقاء حيث هو .. بعض الوقت ! .

وكانت نواعم تشعر باهتمام عليوة بها ، وتحس بنظراته النهمة وهى

تلاحقها . كلما تحركت ! ولكنها لم تكن تنفر منها ، أو تضيق بها ، بل على العكس كانت تسر بها ، وتستزيده منها ! وكان وجهها يتضرج خجلا كلما تقابلت عيونهما .. فتحول وجههـــا عنه بحركة كلها رقة ودلال !

وأتاح له سفر خاله المفاجىء إلى البلدة لرؤية زوجته المريضة ، فرصة أوسع .. مكنته من إطالة مدة جلوسه بالقرب من نواعم ، والاستمتاع بأكبر قدر ممكن من مشاهدتها والنظر إليها .

وعندما سمعها مرة وهى تصرخ وتناديه باسمه ، مستنجدة به ، ليمنعها من الوقوع .. بعد أن التوت قدمها . وهى تسير حاملة صينية كبيرة مليئة بأكواب الشاى الساخن ، وفناجين القهوة .. عندما سمعها وهى تناديه باسمه لأول مرة ، ورآها وهى تكاد تسقط بما تحمله على الأرض طار صوابه هلعا ، وقفز من مكانه قفزة كبيرة كأنما يطير فى الهواء ! وأحاطها بذراعيه القويتين ، وضمها إلى صدره الواسع ، وسار بها إلى الدكة وهو خافق القلب . يخيل إليه أنه يضم هناء العمر كله ! وأجلسها برفق .. وكان فرحه عظيما عند ماعرف أنه لم يصبها شىء ، وعندما أحس من نظراتها الطويلة .. أنها تريد أن تقول له بعينيها الجميلتين مالم تستطع أن تقوله بلسانها .. من عبارات الشكر وعرفان الجميل ! .

ومضت بضع دقائق قبل أن تحاول نواعم الوقوف لتواصل عملها ولكن عليوة لم يترك لها الفرصة ، وأسرع إلى الصينية فأمسك بها ،

ـ وهو يشير إليها بالبقاء حيث هى ـ وذهب هو إلى المصنع القريب ، ووزع المشروبات على من طلبها من عماله ! . وعندما عاد بالصينية فارغة . . استقبلته بابتسامة حلوة ، كانت فى نظره أغلى من كنوز الدنيا ! .

ومنذ تلك اللحظة أخذ يساعدها فى كل أعمالها .. يشاركها فى صنع المشروبات ، أو يقوم بتقديمها إلى الزبائن ، أو يشترى ماتحتاجه من السوق .. بل كان أحيانا يشاركها وأمها الطعام ! .

ولم تكن الأم المريضة ترى فيما يفعله عليوة من مساعدة ابنتها ، أو مايقوم به من محاولات للتقرب إليها . . مايدعو للاستنكار! فعليوة فى نظرها شاب طيب القلب ، ساذج ، لايعرف الخبث ، ولا يضمر الشر ! وهو بمساعدته لابنتها يخفف عنها عبء العمل الكثير الذى لاتستطيع أن تقوم به وحدها ، دون أن يكلفها مصروفا . أو يحملها نفقة ! .

واستمر أ عليوة هذه الحياة ، ورضى عنها . . خصوصا بعد أن بلغه أن خاله لن يعود إلى بور سعيد بعد أن اشتد مرض زوجته ، وأنه ترك له الخيار فى أن يعود إلى البلدة ، أو يبقى حيث هو . . ولم يكن يكدر عليه صفو هذه الحياة سوى خوفه ـ وقد انقطع عن العمل ـ من نفاد نقوده القليلة التى ادخرها ! وسوى ماكان يسمعه من الدعابات الجريئة ، ويراه من النظرات الوقحة .. من رواد المقهى إلى

نواعم وجسمها الشهى ! وكانت هذه الدعابات ، وتلك النظرات تثير حنقه ، وتملأ صدره غيظا وسخطا ! .

وحاول فى أول الأمر أن يتجاهل مايسمعه ، وأن يتغاضى عما يراه. وأن يقنع نفسه بالسكوت .. ولكنه لم يستطع ، ووجد نفسه يصارح نواعم بما يخفيه من ألم ، ومايكتمه من غيظ ! ويطلب منها أن لاتستمع لتلك الدعابات ، وأن لاتدعهم يلاحقونها بنظراتهم الشرهة ! .

وضحكت نواعم وهى تسمع منه ذلك الكلام ، واعتذرت بأنها لاتستطيع منع الزبائن من مداعبتها ، أو النظر إليها .. مادامت محتاجة إلى نقودهم ، ومضطرة بحكم عملها لمقابلتهم ، ومادامت هى لاتبادلهم تلك النظرات ، ولاتشجعهم على مداعبتها ! .

وسكت عليوة مكرها ، ولكن سكوته لم يدم ، وأخذت الغيرة تنهش قلبه ، حتى اضطر إلى أن يعيد الطلب ، ولكنه لم يجد منها أذنا صاغية ، وكان ردها فى هذه المرة مفحما : أن ليس من حقه أن يمنعها من شىء لايملكه ! .

وفكر كثيرا فى الوسيلة التى تمكنه من فرض رأيه عليها ، ومنعها من مخالفته . . فكر فى أن يغلظ لها فى القول .. وفى أن يضربها ! ولكنه كان يعرف أن القول ولو كان غليظا لن يفيد ، وأن الضرب ليس من حقه .. كما قالت ! وخطر على باله أن يشكوها لأمها .. ولكنه عدل عن ذلك

لأنه يعرف أن أمها ترى مايحدث وتسمعه ولاتعترض عليه!، وأخيراً رأى نفسه يفكر فى الزواج . . فهو وحده الكفيل بفرض سلطانه عليها وإخضاعها لإرادته . ولكن كيف يتزوج وهو لايعمل ، ولا يفكر فى العمل . . منذ أن رحل خاله ، وليس لديه من المال مايمكنه من تحقيق رغبته . وما يشجعها على الزواج منه !.

وحار فى أمره ، وأضنته الحيرة وكثرة التفكير ، ولم يهدأ إلا بعد أن صمم على أن يتقدم لخطبتها من أمها وليكن بعد ذلك مايكون ! .

وانتهز فرصة عصر أحد الأيام — وهو الوقت الذى يخلو فيه المكان ، ويقل فيه رواد المقهى ، وتعود فيه نواعم إلى البيت ، لتعد طعام العشاء — وجمع أطراف شجاعته ، وأسر إلى المعلمة حفيظة برغبته فى الزواج من بنتها نواعم . .

ولم تدهش المعلمة حفيظة لهذا الطلب ، فقد كانت كل الدلائل تشير إلى أن مايحدث بين عليوة وبين بنتها سوف ينتهى إلى هذه النهاية ! ولم يبد على وجهها مايدل على أنها فوجئت به ، أو استاءت منه ! بل قابلته بابتسامة أشرق بها وجهها المغضن ، الذى لوحته الشمس . ونالت منه السنون ، وربتت على ظهره بلطف ، وقالت له بلهجة لاتنقصها الصراحة ، ولا تخلو من السخرية ، وهى ترفع بيدها الخشنة رأسه :

ـ وماله ياابنى . . هى نواعم حتلاقى لها عريس أحسن منك ؟ ده انت جدع طيب وابن حلال . ومن يوم ماعرفناك ماشفناش منك

حاجة وحشة ! لكن ياابنى قبل ماتفكر فى الجواز . . لازم تفكر إزاى تعيش . . وازاى تعيشها معاك ؟ وانت ياابنى من يوم خالك هامشى ماانتقلتش من هنا ، ولا حطيت إيدك فى شغل ! والجواز ياابنى مش لعبة . . الجواز لازم له بيت وعفش ، ولازم له أكل وشرب ! والا انتو حتناموا على الأرض ، وتمشوا على لحم بطنكم ؟ ياابنى أنا مش مانعة . . روح دور على شغل . . واشتغل . . وتعال خد نواعم من العين دى ومن العين دى ! .

ولو أن أحدا بشره بأنه ربح آلاف الجنيهات ، أوقال له أنه أصبح يمتلك سوق الفاكهة . . لما فرح عليوة لهذه البشرى . . فرحه بهذا الكلام ! . ولم يدر بنفسه وهو يمسك يد المعلمة حفيظة بلهفة ، ويقبلها بحرارة ، والدموع تتساقط من عينيه ! .

ولم يستطع البقاء بجوارها أكثر من ذلك ، فقد خيل إليه - بعد أن سمع كلامها - أنه على وشك أن يمتلك الدنيا ، وأنه لم يبق بينه وبين السعادة التى يحلم بها . . إلا أن يقوم من مكانه ليبحث عن عمل - أى عمل - وأن يسرع فى البحث ، لكى يحصل على كل مايتمناه ! .

وبات فى هذه الليلة يحلم بالمستقبل المزهر ، وباليوم الموعود . . الذى يصبح فيها زوجا لنواعم ، وبالبيت السعيد الذى يضمهما معا ! . وماكاد يرى شعاع الفجر يتسلل إلى غرفته ، حتى هب من فراشه ، وأسرع إلى السوق . . ولم يكن معه من النقود مايمكنه من شراء

أصناف عديدة يحملها على عربة صغيرة كما كان يتمنى ، ولكنه مع ذلك لم يتراجع ، ودخل إلى السوق وقد انطوى قلبه على أمل كبير ! .

واشترى بما معه من النقود صندوقين من الكمثرى ، حملهما فوق رأسه ، وخرج بهما إلى شوارع المدينة يطوف بها ، ويعرض بضاعته وينادى عليها .. وهو يدعو الله أن يكلل سعيه بالنجاح .

وعاد فى آخر النهار - بعد أن باع بضاعته - منشرح الصدر، مجبور الخاطر . واستقبلته نواعم وأمها بترحاب كبير ، وتهلل وجهاهما فرحا وهو يقدم لهما بعض ثمار الكمثرى التى احتفظ لهما بها .

ومرت أسابيع كثيرة .. وهو يواظب على السعى ، ويواصل الكفاح ، لكى يحظى بحبيبته نواعم ، ويكون جديرا بحبها - وحدثته نفسه بعد مضى هذه المدة بأن يطالب المعلمة حفيظة بأن تبر بوعدها له - وتردد قليلا قبل أن يفاتحها بطلبه ، ولكن تردده لم يطل .. ولم يلبث أن أقدم ! .

ولم تعترض المعلمة حفيظة ، أو تتنكر لوعدها ، ولكنها أبدت له خوفها -من أنها-وهى مريضة،وهو مصمم على بقاء نواعم فى البيت ومنعها من العمل بعد الزواج - قد لاتستطيع وحدها أن تقوم بالعمل - خصوصا وأن ابنتها الصغيرة لواحظ متعلقة بالمدرسة ، ولا يطاوعها قلبها على حرمانها من الذهاب إليها ! كما إنها - وهى كما يرى محتاجة لمن

يساعدها فى مصدر رزقها الوحيد - لا يمكنها أن تثق بإنسان غريب تستخدمه ، ولا أن تدفع له أجرا . . وهى لذلك تعرض عليه أن يحل هو محل نواعم ، وأن يقوم بعملها ، وتؤكد له أنه بجده واجتهاده سوف يوسع دائرة العمل ، وينمى إيراده !.

ودهش هو لهذا العرض ، ولكنه لم يستطع الرفض ، فقد أدرك مما شعر به فى حديثها من تصميم ، أنه ليس أمامه سوى القبول ، وأنه هو السبيل الوحيد للفوز بنواعم !.

واستأجر غرفة متواضعة فى نفس الحارة ، لتكون نواعم قريبة من أمها . وفى الليلة التى انتقلا إليها فيها - بعد أن انتهى حفل زفافهما البسيط - خيل إليه وهو يدخل .. ونواعم إلى جواره ، أنه إنما يدخل الجنة ! وأن نواعم ليست إلا واحدة من أجمل حورياتها !.

ومضى عام . . وعليوة يعيش مع زوجته نواعم فى عشهما الصغير أحسن عيش ، ويقوم بعمله فى المقهى خير قيام - وكان يظن أن الحياة ستمضى به على هذا المنوال - ولكن ظنه لم يتحقق .. وبدأت المتاعب تعرف طريقه ، والخلافات تسعى إليه ، وتعكر هناءه !. وكان مصدرها جميعا حماته .. بعد أن استردت صحتها وأصبحت قادرة على العمل . وكانت فى أول الأمر بسيطة ، ولم يكن يهتم بها .. لأنها لم تكن تخرج عن دائرة العمل . ولكنها لم تلبث أن اتسعت حين تدخلت فيها نواعم - بعد أن أوغرت أمها صدرها عليه - ووجد نفسه يعيش فى جحيم ، ولم يعد

يستطيع الصبر على هذه الحياة ، أو يقدر على العمل فى هذا الجو المثير المشحون بالنزاع ! . ولم يجد خيرا من أن يترك المقهى ، وأن يبحث عن عمل يبعده عن سيطرة حماته ، وعن مكان الخلاف . ولم يكن معه من النقود مايساعده على العودة إلى تجارة الفاكهة ، فاضطر إلى العمل فى أحد المقاهى البعيدة، ثم تركه إلى غيره ، ومازال ينتقل من مقهى إلى آخر ، حتى قادته المقادير إلى القاهرة ، وحطت به الرحال فى مقهى المعلم مرسى ، واستقرت به فيه ! .

وكان من حسن حظه أنه وجد - بعد بحث طويل - غرفة عالية فى شقة تسكنها عائلة فقيرة فى نفس الحى . وأنه استطاع بعد جهد كبير أن يقنع زوجته بالانتقال إليها ، بعد أن ظلت مدة طويلة تعارض فيه بحجة أن أمها محتاجة إليها ! .

وسارت به الحياة بعد ذلك سيرها العادى ، ولم يكن يتصور حين وضع قدمه فى مقهى المعلم مرسى ، وتوثقت صلته بصاحبه ، أن هذه الصله ستكون وبالا عليه ، وأنه سوف يخرج من هذا المقهى الواسع ، إلى السجن الضيق الذى يعيش الآن فيه ! .

وحين عاد عليوة من رحلته الطويلة فى ماضيه .. كان مؤذن السجن يدعو لصلاة الفجر ، فنهض من فراشه وهو يستغفر ربه، ثم أسند ظهره إلى الحائط ، وجلس فى انتظار نفير الصباح ، ليخرج مع زملائه إلى عملهم الشاق .

وعندما انقضت المدة المحكوم عليه بها وخرج من السجن لم يجد أحداً فى انتظاره ! . ولم يدهش لذلك . . فلم يكن يتوقع أن ينتظره أحد ! وكان أول شىء فكر فيه هو الذهاب إلى مسكنه ، لعله يستطيع أن يعثر على أثر يدله على مكان زوجته .

وحين وصل إليه . . استقبلته جارته بالترحاب ، وهنأته بالخروج من السجن ، وأرادت أن تقدم له فنجانا من القهوة . . ولكنه لم يمهلها ، وعاجلها بالسؤال عن زوجته ؟ فظهر الأسى على وجه المرأة الطيبة ، ونظرت إليه نظرة عطف ورثاء ، وبدأت تقص عليه ما حدث فقالت : إنها لاحظت بعد القبض عليه أن المعلم مرسى كان يتردد على مسكنه كثيرا ، وإنها كانت تظن فى بدء الأمر أن زياراته الكثيرة هذه لمصلحة زوجته ، ولمساعدتها على تحمل متاعب الحياة وتخفيف آلامها . ولكنها لم تلبث أن تبينت ـ بما كانت تسمعه من ضحكات رنانة وأحاديث ماجنة ، وبما كانت تراه من حركات مثيرة وإشارات مريبة ـ أن هذه الزيارات لم تكن لوجه الخير ، وإنما كان للشيطان فيها نصيب كبير ! .

فلم تستطع السكوت . . وكاشفت نواعم بما أحست به ، فاعتذرت لها ، وادعت أن ليس فى الأمر ما يريب ! . ولكنها اضطرت بعد أن ضايقتها كثرة أسئلتها . . إلى أن تخبرها بأن المعلم مرسى عرض عليها الزواج إذا حصلت على الطلاق من عليوة ! وإنها بسبب حاجتها إلى مساعدته ، ومنعا من إثارة الشكوك حولها بكثرة زياراته ، قد وافقت على رغبته ! وإنها قد تقدمت ـ فعلا ـ إلى المحكمة بطلب الطلاق . . مستندة

إلى غيبة زوجها الطويلة بسبب دخوله السجن ! . ولم تمض بضعة أيام حتى جاءتها وهى فرحة لتخبرها بأن طلاقها من عليوة قد تم ! وأن زواجها سوف يعقد على المعلم مرسى فى نفس اليوم . . وأنها لذلك سوف تترك الغرفة ، وتنتقل إلى المسكن الجديد الذى استأجره لها المعلم مرسى وأثثه بأثاث جديد ! . وختمت الجارة الطيبة حديثها وهى تقوم لتذهب إلى (دولاب) قريب ، وتخرج منه بضع رسائل بإسمه ، قدمتها إليه وهى تقول : ومنذ ذلك اليوم لم أرها ، ولم أسمع من أخبارها شيئا ! .

وجن جنون عليوة عندما سمع ذلك الحديث ، فقد كشف له كل شىء ، واكتشف سر اللغز الذى حيره ولم يعرف كيف يحله ، لغز انقطاع المعلم مرسى وزوجته نواعم عن زيارته فى السجن ، واختفاء أثر زوجته وهجرها له ! وفتحت المعلومات الخطيرة التى عرفها من جارته القديمة عينيه ، وأزاحت الغشاوة التى كانت تحجب عنه رؤية الحقائق الواضحة التى لم يستطع – لكثرة غبائه – أن يكشفها ! . فعرف سر عطف المعلم مرسى عليه ، وكثرة تردده إليه ! . وأدرك سبب تغير معاملته له ، وتحوله من صاحب عمل صارم ، إلى صديق كريم ! وتنبه إلى حرصه على قضاء السهرات الطويلة فى غرفته المتواضعة ، وتذكر ما كان يبدو على وجه زوجته نواعم من مظاهر الفرح والابتهاج كلما رأته ، وما كانا يتبادلانه من نظرات وغمزات ، لم يكن – لغفلته – يلتفت إليها ! . وعرف فى النهاية أن كل ما حدث كان رواية ألفها المعلم مرسى

بمهارة ، ورتب فصولها بدقة ! وأن المخدر الذى وجدته الشرطة داخل (دولابه) وبين طيات ملابسه كان بتدبيرهما معا ، وأن مجىء رجال الشرطة لم يكن اعتباطا ، وإنما كان بالاتفاق بينهما ، وأن القبض عليه، ودخوله السجن . . ليخلو لهما الجو . . هو الهدف من تلك الرواية ، والفصل القذر والأخير منها ! .

وعندما خرج إلى الطريق ، لم يكن يدرى ماذا يفعل ، ولا إلى أين يتجه ! . وكانت النار تشتعل فى جسده ، ومرجل الحقد يغلى فى صدره ! ، ولم يشعر بنفسه وهو يدخل محلا لبيع الأسلحة ، ويشترى منه سكينا كبيرة ، ويخفيها تحت ملابسه . لم يشعر بنفسه ، ولا بما فعل ، إلا عندما رأى قدميه تسيران فى الطريق المؤدى إلى مقهى المعلم مرسى وأحس بيده وهى تتحسس موضع السكين من وسطه . . كأنما يخشى عليها من السقوط ! .

وأصاب المعلم مرسى ذعر شديد . . حين رآه يقف أمامه فجأة . . وكأنه شيطان انشقت عنه بطن الأرض ، أو صاعقة هبطت عليه من السماء ! . واهتز كيانه ، وبهت لونه ، وظل يحدق فيه بعينين جاحظتين. وكأنه ينظر إلى شبح رهيب ، وليس إلى إنسان يعرفه ، وعاش معه فترة طويلة ! وزاده صوت عليوة الساخط المزمجر ، ولهجته الساخرة المروعة . . إهتزازا ورعشة ، وهو يقول :

— جرى إيه يامعلم مرسى . . انت مش عارفنى والا إيه ؟ ده أنا عليوة

عليوة صبيك ! أناخرجت من السجن النهارده .. وجيت على هنا على طول . . أصل مالقيتش حد أروح له غيرك ! .

وقام المعلم مرسى من مقعده ببطء شديد ، كأنما كان يشده إلى المقعد شيء ! . وحاول أن يعانق عليوة ، وأن يتظاهر بالفرح ، وهو يقول له بصوت متحشرج ، وظل ابتسامة صفراء يحاول أن يرسمها على وجهه المكفهر :

ـ ماتآخذ نيش ياعليوة . . ياخويا ! أصلك فاجئتنى .. وماكنتش متصور إنى أشوفك دلوقتى ! . اتفضل .. اتفضل اقعد .. واد يافلفل .. واد يافلفل . . هات واحد شاى قوام لعليوة .

وجلس عليوة على المقعد الذى قدمه إليه المعلم مرسى ، ومرت فترة قاسية من الصمت ، قطعها عليوة بقوله وهو ينظر إلى المعلم مرسى نظرات نارية :

ـ نواعم فين يامعلم ؟ أنا مالقيتهاش فى البيت ! .

وبدا الذعر الشديد واضحا على المعلم ، وزاد اكفهرار وجهه ، وأخذ يتحرك على مقعده حركات غريبة ، تدل على شدة مايعانيه من اضطراب ! . واستطاع بعد جهد كبير أن يتكلم .. ولسانه يتلعثم ، وأن يقول دون أن ينظر إلى عليوة :

ـ ن. ن نواعم موجودة ياعليوة . . ما ماتخافشى عليها . . دى بخير و وعندى فى البيت ! .

ولم يحول عليوة نظره عنه ، بل ظل يحدق فيه ، كأنما يريد أن يذيبه بنار عينيه ، وأن يلتذ برؤيته . . وقد تحول من عملاق ضخم . . يهابه الناس ، ويفرض سلطانه على الجميع . . إلى قزم ضئيل ، يخاف منه ، ويخشى من مواجهته ، ويمتلىء رعبا من وقع نظراته عليه ! . وكأنما أراد أن لايدع له فرصة يستريح فيها ، أو يسترد أنفاسه ، ففاجأه بعد قليل بقوله :

ـ أنا عاوز أشوفها . . عاوز أشوف نواعم . . مراتى . . يامعلم ! . أنا ماشفتهاش من زمان . . وعاوز أشوفها دلوقتى ! .

وضغط بقوة على الكلمة الأخيرة ، كأنما يريد أن يؤكد له رغبته فى رؤيتها ، وأن يزيد فى إذلاله وإشعاره بالمهانة ! .

ولم يستطع المعلم مرسى أن يعترض ، بل وجد لسانه يسبقه ويقول له وهو لايزال مطأطىء الرأس ، ونظره إلى الأرض :

ـ وماله . . ياخويا . . يلا بينا دلوقتى . . أنا مش متأخر . .

وفى الطريق . . بدأ المعلم مرسى يتكلم ليمهد السبيل لما يريد . . فأخذ يحدثه عن المتاعب التى واجهت نواعم بعد دخوله السجن ، وعن المجهود الكبير الذى بذله هو لكى يخفف عنها مرارة الحاجة وقسوة الوحدة ! . ولكنه ماكاد يفلح حتى بدأ الناس ينظرون إلى فعله هذا نظرة ضيقة ويرون فى كثرة زياراته لها رأيا خاطئا ! . وبدأت ألسنتهم

الحادة تلوك سيرتها ، ونظراتهم الشاكة ترمقهما شزرا . وتحصى عليهما حركاتهما وسكناتهما ! . ووجد نفسه بين أمرين أحلاهما مر . . إما أن يتركها وحيدة ، تواجه الحياة ، وتصارع الزمن ، وإما أن يقف إلى جانبها ، ليقيها من الانحراف ، ويحميها من الزلل . . وفضل الحل الأخير ! . ولم يكن له سوى طريق واحد ، يرضى الناس ، ولا يغضب الله . . وهو الزواج ! . وتزوجها . . وهو يعتقد أن مافعله هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ له بها ! .

ووقف المعلم مرسى عندما وصل من حديثه إلى هذه العبارة عن السير ، ورفع رأسه ، ونظر إلى عليوة ـ لأول مرة منذ أن تلاقيا ، وكانا قد وصلا إلى مدخل بيته ـ نظرة ضراعة ! ثم واصل حديثه وقال : وقد مضى على زواجنا مايزيد على السنة ، ولا أخفى عليك أنى قد أحببتها .. خصوصا بعد أن علمت بأنها حامل ! . وقد شعرت الآن بخطئى .. وأدركت أنى خنتك ، وأسأت إليك ، وأن من حقك على ـ لولا حملها ـ أن أردها إليك .

وتنحى المعلم مرسى ـ وهو يقول ذلك الكلام ـ عن مدخل البيت قليلا .. لكى يدخل عليوة ، ولكن عليوة لم يدخل ! . ووقف برهة ينظر فيها إلى المعلم مرسى نظرات مبهمة ، زادته رعبا . . ثم وضع يده على كتفه مربتا ، وتأبط ذراعه ، ودار به ليعود ! . وكانت دهشة المعلم مرسى بالغة ، عندما سمع عليوة وهو يقول له ، ردا على نظرة التساؤل وعلامات التعجب التى ارتسمت على وجهه : إنه لم يعد يحس برغبة

عاجلة فى رؤية نواعم ، وإن فى الأيام المقبلة متسع لرؤيتها ! .

وأفرخ روع المعلم مرسى .. بعد أن اطمأن إلى أنه لن يشاهد ذلك اللقاء المثير بين عليوة وزوجته ، وأحس ببعض الهدوء .، وهو يمشى فى الطريق إلى جوار عليوة .. ليعودا أدراجهما إلى المقهى . وعندما وصلا إليه .. جلسا صامتين ، وظلا هكذا فترة طويلة .. كان المعلم مرسى يختلس خلالها النظر إلى وجه عليوة ، ويحاول أن يستشف من قسماته مايعتمل فى نفسه ، ومايدور فى رأسه من أفكار ! .

وطال الصمت .. حتى ضاق به صدر المعلم مرسى ، وتوترت منه أعصابه ، وبدأ يفكر فى الوسيلة التى يزيح بها ذلك الكابوس ، ويحاول الكلام لعله يخفف به وطأة التوتر ! . ولكنه لم يجد - بعد كثرة المحاولات - شيئا يقوله سوى أن يسأله عما ينوى عمله بعد أن خرج من السجن ؟ ! .. وكان صوت عليوة يتجلى فيه طعم المرارة وهو يجيبه قائلا :

— ولا حاجة .. أصل أنا لسة مافكرتش فى حاجة .. وكل اللى أنا عاوزه دلوقتى حته أنام فيها .. لغاية ما ألاقى شغل . وإذا ما كانشى نومى فى القهوة يضايقك .. أنام فيها ! .

وتنهد المعلم مرسى من أعماق صدره ، وأسند ظهره إلى المقعد الكبير الذى كان يجلس عليه ، وقال له وقد بدت على ملامحه دلائل الراحة :

— وماله ياعليوة ياخويا . . القهوة قهوتك . . تنام فيها مطرح مايعجبك ! وإن كان على الشغل . . الشغل موجود هنا برضه . وتقدر من بكرة تستلم شغلك ، وتقف فى القهوة زى ماكنت واقف ! .

ومضت أيام عديدة .. وعليوة ينام فى المقهى ليلا ، ويعمل فيها نهارا ، دون أن يظهر عليه مايدل على الضيق أو السخط ، أو تصدر منه كلمة أو إشارة تشير إلى ماحدث ، أو يبدى رغبته فى رؤية نواعم. وكان ذلك يطمئن المعلم ، ويزيده أمنا ، ويساعده على الاعتقاد بأن عليوة قد نسى ماحدث ، أو يحاول أن ينساه ! . وأنه استسلم للواقع إن لم يكن قد رضى به ! .

وعاد للمعلم مرسى مرحه القديم ، وضحكته المجلجلة ، وبدأ صوته يعلو فى جنبات المقهى وهو يصدر أوامره ونواهيه ! . بل لقد شجعه ذلك الهدوء الذى يبدو على عليوة ، وعدم المبالاة التى تظهره فى كل تصرفاته .. على أن يعهد إليه بماكان يعهد به إليه من قبل فى شراء وتوزيع بضاعته المحرمة ! .

ولاحظ عليوة فى صباح أحد الأيام أن المعلم مرسى حين حضر لم يكن كعادته فى كل يوم .. فقد كان يبدو عليه القلق والاضطراب ، وكانت ملامح وجهه تدل على أن شيئا .. يشغله ، ويعذبه ،وكانت تحيته مقتضبة ، ونظراته شاردة ! . . ولم يحاول عليوة أن يعرف سر قلقه واضطرابه ، بل تعمد أن يبتعد عنه ، وأن يجتنب الكلام معه ، حتى

لا يعطيه فرصة يسرى بها عن نفسه ! ، وكان يحس وهو يفعل ذلك بلذة غريبة ، ويرى فى عذاب المعلم وألمه وسيلة لفرحه وسروره ، بل وكان يتمنى من أعماقه أن يطول أمد عذابه وقلقه ! .

وكانت الساعات تمضى ساعة فى إثر ساعة ، والمعلم مرمى على حاله تلك من الاضطراب ، والقلق ، وعليوة ينظر إليه كلما غدا أو راح ، وعيناه تفيضان غبطة وسعادة ، إلى أن جاءت نفيسة.. بنت المعلم الصغيرة وأسرت فى أذن أبيها بضع كلمات ، نهض على إثرها المعلم فرحا.وأخذ يصيح وهو متهلل الوجه ، يكاد يرقص طربا ، وينادى على عماله واحدا بعد الآخر :

— واد ياعباس . . واد يافلفل .. بلوا الشربات ياولاد . واسقوا الزبائن كلهم على حسابى . . النهارده فرح . . فرح !

ثم التفت إلى عليوة الذى كان يقف بالقرب منه ، وقد ظهر على وجهه العجب لما طرأ على المعلم من تغير ، وأمسك به بقوة ، وضمه إلى صدره بحرارة ، وهو يقول :

— بارك لى ياعليوة .. نواعم ولدت ! . ولدت ولد .. ولد ياعليوة ولد بعد ست بنات . . الدنيا مش سايعانى ياعليوة .. بقى لى ابن .. ابن يخلد ذكرى ! هنينى ياعليوة . . اليوم ده يوم المنى ياخويا . . ياسلام ياولاد . . مين كان يصدق ؟ لكن ربنا قادر على كل شىء ! والنبى لاعمل له سبوع ما اتعملش لحد ، واجيب له مزيكة وآلاتية ، وأعزم

أهل الحته كلهم ، وافرق فول وعيش على الغلابة كمان ! أنا رايح اشوفه ياعليوة . . إبق حصلنى ياخويا . .

ولم يكد يتم كلامه حتى غادر المقهى مسرعا وهو يمسك بيد ابنته الصغيرة . . التى لم تستطع أن تجاريه فى سرعته ، فكان يميل عليها من حين لآخر ليشجعها على الإسراع فى المشى ، واعدا إياها بحلوى كثيرة ، ومغنيا لها ـ وهى حاملة البشرى السعيدة ـ بمكافأة عظيمة ! .

وحين دخل إلى البيت . . رأى نواعم وهى فى فراشها . . وكانت مصفرة الوجه ، ذابلة العينين ، يبدو عليها الهزال !. ولم تستطع البسمة الخفيفة التى حاولت أن تستقبله بها أن تغطى شحوب لونها ، أو تخفى آثار تعبها . فأقبل عليها ، وأمسك بيدها ، وقال لهـــا والفرحة تملأ قلبه :

ـ حمدالله على السلامة يا نواعم ـ حمدالله على السلامة ياست الكل ! آه . . من دلوقت مفيش نواعم حاف . . فيه ست نواعم وبس ! حمدالله على سلامتك يا أم العريس . . ياجلابة الخير ! إنتى من النهارده ست البيت . . والكلمة لازم تكون كلمتك . آه . . أنا بقولها بعلو حسى لازم كلامك يمشى على الكبير والصغير .

وكان يقول هذا الكلام وهو ينظر إلى زوجته الأولى ، وإلى بناته اللاتى كن يجلسن بالقرب من سرير الوالدة صامتات ! .

ولم ينتظر حتى يسمع جوابهن، أو يلتفت ليرى علامات الامتعاض التى ظهرت على وجوههن ، بل مد يديه الكبيرتين ، وأمسك بالطفل بعناية شديدة ، والسعادة تكاد تطفر من عينيه ! وأخذ ينظر إليه بحنان ويهدهده برقة ، ويناجيه بأحلى الكلام . ثم التفت إلى الأم المتعبة وقال لها وعلامات الزهو تظهر فى نبرات صوته :

— قمر والنبى بأنواعم . . قمر ! ده احنا لازم نسميه إسم جميل زيه ، ولازم نربيه أحسن تربية . ده أنا من دلوقتى حاكتب له القهوة باسمه ، وحادخله المدرسة ، وأطلعه دكتور قد الدنيا ، وافتح له عيادة فى أحسن حته ! .

ونام المعلم مرسى فى هذه الليلة وهو أسعد مخلوق ، وأهنأ إنسان . وظل يحلم طوال نومه بالطفل الوليد ، وبالمستقبل السعيد الذى سيعده له ! .

واستيقظ فى الصباح الباكر على صوت طرقات عنيفة على باب الشقة جعلته يقوم من فراشه فزعا ، ولم يكن هو وحده الذى استيقظ فقد رأى جميع من فى الشقة يخرجون من الغرف وهم يفركون عيونهم ويسيرون إلى الباب ، وقد أزعجتهم كثرة الطرقات وسرعتها . فسبقهم إليه وفتحه وهو يدعو الله أن يكون خيرا ! . ولكنه ما كاد يفتحه حتى فوجىء برؤية بعض رجال الشرطة .. وفى مقدمتهم أحد الضباط ، يقتحمون الباب – بعد أن نحوه عنه – ويسرعون إلى داخل الشقة .

وأمسك به بعضهم ومنعه من الحراك . وشرع البعض الآخر فى تفتيش الشقة وماتحويه من أثاث . وكان كل من فيها من نساء وبنات قد تجمعوا حول المعلم ، ووقفوا ينظرون إلى مايجرى وهن ذاهلات .

ولم يستغرق البحث وقتا طويلا ، فقد خرج الضابط بعد لحظات فصار من غرفة النوم وخلفه جنديان يحملان بين أيديهما صندوقا كبيرا .. وعلى وجوههم جميعا بسمة عريضة ! واقترب الضابط من المعلم مرسى ، وفتح الصندوق ، وأشار إلى مايحويه من المخدرات ، وماتكدس فيه من أوراق النقد الكثيرة ، وقال له :

ـ الحشيش ده بتاعك يامرسى . . والفلوس كمان . . مش كده ؟ خساره . . دى تحويشة العمر يامعلم ، وتعبك راح على الفاضى ! .

ولم يتكلم المعلم مرسى ، ولم يرد على أسئلة الضابط الساخرة . . بلا أو نعم ، فلم يكن قادرا على أن يرد أو يتكلم ! . وكانت النظرات الشاردة الغريبة التى ترسلها عينيه ، والوجوم الرهيب الذى كسا وجهه ، والرعشة الشديدة التى سرت فى جسمه . . ولم يستطع معها أن يمسك نفسه تدل على أنه بلغ من الرعب والفزع حدا كبيرا إنهارت معه مقاومته ، وتخاذلت إرادته ، وفقد سيطرته على أعصابه ! .

وساقه الجنود ـ بعد أن وضعوا القيد فى يديه ـ أمامهم دون أدنى معارضة ، وخرجوا به من البيت . . بين صراخ زوجاته . . وعويل بناته ، وهن يندبن حظه العاثر ، وفرحتهن التى لم تتم ! .

وحين وصل إلى سيارة الشرطة .. وهم بركوبها ، حانت منه التفاتة فرأى عليوة يقف بالقرب منه ، وهو ينظر إليه نظرات مخيفة، ووجهه ينطق بالشماتة والسخرية ، فأدرك لتوه سر قدوم رجال الشرطة ومهاجمتهم بيته فى تلك الساعة المبكرة من الصباح ! وعرف أن عليوة هو الذى وشى به ، ودلهم على موضع المخدر الذى لم يكن يحمله .. لكى ينتقم منه . وأنه اختار هذا اليوم بالذات .. ليكون انتقامه فظيعا ، وليعكر عليه صفو هنائه ، ويحرمه من السعادة التى كان ينتظرها منذ سنين طويلة ! . فثار الدم فى عروقه ، وهم بأن يهجم عليه ، لكى يحطم رأسه ويقتله ، ولكن القيد الحديدى الذى يغل يديه، وسواعد رجال الشرطة التى تدفعه إلى داخل السيارة .. حالا دون إتمام غرضه ! . ولم يجد شيئا ينفس به كربه ، سوى أن يهز يديه المغلولتين مهددا ، وأن يبصق على وجهه ، وهو يقول له بصوت هادر .

ـ عملتها ياملعون . . عملتها يامجرم ! .

ولكن عليوة لم يبال بالرزاز الذى غطى وجهه ، ولا بالسباب الذى خرق سمعه ، وأخذ يضحك ضحكات سريعة متلاحقة ، ويرفع ذراعيه ، ويحركهما حركات عصبية . . وهو يشير إلى زجاجة سوداء كان يحملها فى إحدى يديه . . إشارات غريبة ، ويصرخ بصوت حاد يقطر غلا :

ـ معلهش يامعلم مرسى . . ماتزعلش . واحدة بواحدة . . لكن

أنا خرجت من السجن بعد تلات سنين . . إنما إنت مش حتخرج منه إلا بعد عمر طويل ! بعد مايتخرج المحروس ابنك من الكلية ، و . . يبقى دكتور ! . .

وانطلقت سيارة الشرطة بالمعلم مرسى ، وأخذت تبتعد عن المكان الذى يقف فيه عليوة شيئا فشيئا ، حتى اختفى عن عينيه . ولكن ضحكاته المريعة المتلاحقة ، وكلماته النارية الساخرة .. ظلت تلاحقه ، وتدوى فى أذنيه .. وكأنها عواء ذئب جائع ، أو نباح كلب مسعور ! .

ولو أن السيارة تمهلت قليلا .. ولم تسرع به ، لرأى منظرا فظيعا ، يقشعر له بدنه ، ويشيب من هوله رأسه ، ويتمنى أن يموت ولا يراه . ولسمع صرخات زوجته المروعة ، وأنينها المفجع ، وهى تتلوى على الأرض من قسوة الألم ، وتغطى بيديها المرتعشتين وجهها الملتهب ، الذى تآكل لحمه ، وذاب شحمه ، وشوهته المادة الكاوية التى ألقاها عليه عليوة من تلك الزجاجة السوداء التى كان يلوح له بها . ولأفزعه مشهد عليوة نفسه ، وهو يدور كالحيوان المجروح ، ويقفز كالطير المذبوح ، ويضحك ضحكات المجانين . . وقد تشنجت يداه ، وجحظت عيناه ، واحتقن وجهه ، وأخذ يصيح فى وجه نواعم . . بكلمات تفيض بكل ما كان يمتلىء به قلبه من ضغينة وحقد :

— خلاص يانواعم .. مش حتقدرى بعد كده تغوى حد بجمالك ! حتعيشى مشوهة طول عمرك .. الناس حتخاف منك .. وتبعد عنك ! ومش حتلاقى حد يحبك ولا ينغش فيك بعد النهاردة ! . .

الفهرست

صفحة

٣ الإهداء

٥ ربيع وخريف

٧٩ الحب والخطيئة

١٢٣ الضحية

١٧٢ نواعم

الرسوم بريشة الفنانة نجوى